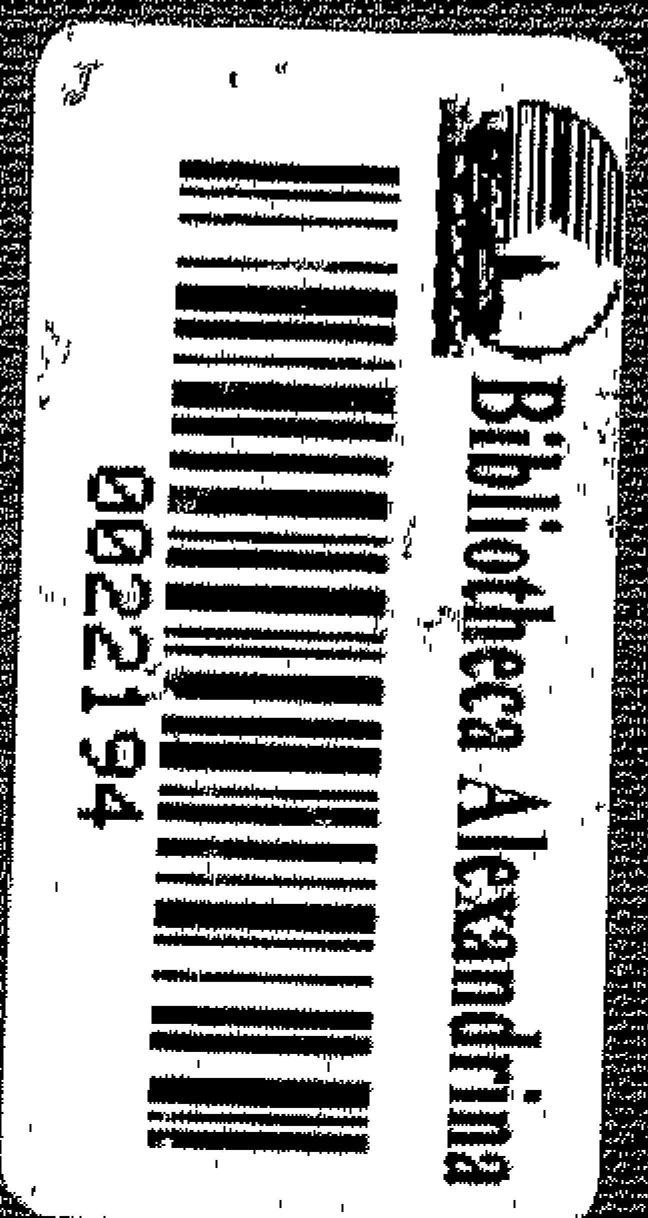


Bibliotheca Alexandrina
0022194

محمّد محفوظ

الذين ظُلِموا

التنظيمات الإسلامية في مصر



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر

4, Sloane Street, London SW1X9LA

THE PERSECUTED

by

MUHAMMAD MAHFOUZ

First Published in Great Britain in 1988

4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data

Mahfouz, Muhammad
The Persecuted.
1. Egypt. Islamic revolutionary movements,
1953-1981
I. Title
322.4'2'0962
ISBN 1 - 869844 - 48 - 3

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب

مقدمة

عادة أبدأ الكتابة وأنا سرحان، معزول تماماً عن ظروفي الخاصة، وعن الأحداث الجارية، لأكتب عن لحظات وقعت في صيغة الماضي التام!! في غير هذه الحالة فإنني لا أكتب.. فقط أخطرف.. هكذا بدأت هذا الكتاب، فلم أنتبه لأنني أعالج قنبلة متفجرة. تم تركيبها في الماضي ولكنها ما زالت خطرة وحية، حتى فوجئت بأن الجو حولي يتوتر.. ولمّح لي الإخوة ان هذا الكلام ليس هذا وقته، أو اذا كان لا بد من معالجته «فليس على طريقتك التي تتغافل عن حقائق الأوضاع» فالحركات الإسلامية ـ وبالذات في مصر ـ ما زالت مطلوبة للوقوف أمام فرقة إطلاق النار، والدفاع عنها ولو كان دفاعاً محايداً أمر يضعك في خانة أنت تعرفها.

أعدت قراءة ما أكتبه فوجدته أقل مما يجب، وأن كلمة أخرى مطلوب أن تُكتب، بعيداً عن جو الإرهاب الرسمي في الوطن، لأن الذين يصفهم الإعلام الكذاب يومياً بأنهم قتلة، وسفاحين، ودعاة لرجوع عهود الظلمات، ليسوا إلاّ أنقى عناصر هذه الأمة. والقوة الوحيدة التي لا تسترزق بالمبادىء. وهم بالنهاية يدفعون حياتهم ثمناً لإيمانهم الثابت، ودفاعاً عن كياننا ومعتقداتنا وأرضنا..

أيضاً هم دائماً وأبداً محكوم عليهم بالعيش مهددين، مشتومين، موصومين بما ليس فيهم!! ولم يسمح لهم أبداً بأن يسمعونا كلمتهم.. لم تتح لهم مطلقاً أن يدافعوا عن أنفسهم!!

ظل هذا حالهم في مختلف العهود والنظم.. ولذلك فإن القيام بعرض أفكارهم ومناقشة تجاربهم ووجهات نظرهم هي مسألة من صميم العدل..

بالنسبة لي كواحد من الملايين الذين اشتركوا واحتكوا، وعرفوا بالتجربة والخطأ، حقيقة هذه الفئة، فإن إنصافهم ـ بعض الإنصاف ـ اعتبره مسألة هامة. على المستوى الشخصي لأنني انسحبت مبكراً من صفوفهم، ومهما كانت

الأسباب فإنني لم أتخلّص من عقدة بالذنب تجاه التيار كله.. أما على المستوى العام، فقول الحقيقة مطلوب لنعرف ونتعلّم، فالأمة كيان ممتد بعرض الأرض، وبعمق التاريخ، وليست رهينة بإرادة الحكومة ـ أي حكومة ـ والنظام ـ أي نظام ـ وليس من المعقول أو من المقبول، أن تتوالى الأجيال وراء بعضها، فلا تعرف عنهم إلا وجهة نظر السلطة، التي ترى أن كل نقاش لرأيها وتوجهاتها، هو محاولة لقلب نظام حكم، لا يقوم بها إلاّ متهوسون، تحكمهم عقدهم وتحركهم أصابع خارجية!!

أيضاً عذبني سؤال بسيط، لماذا أعضاء الحركات الإسلامية وحدهم، عاملتهم الأنظمة الفاسدة والغاشمة بهذا الحجم الكبير من الغل والشراسة؟!

أيضاً لماذا تميّزت قيادات وعناصر تلك الحركات بتلك السذاجة السياسية التي جعلتها تبلع كل مرة الطعم الذي يلقيه لها خصومها، فتعطيهم الفرصة الكبرى للعب بها، وجرها مجاناً للفخ الذي تنصبه لها، وبعدها تتولى قمعهم، وإبادتهم؟

لماذا تكررت هذه المسرحية في عهد «ابراهيم عبد الهادي» الذي أصدر قرار اغتيال «حسن البنا» وهو يفاوضه في إيجاد حل للأزمة، عن طريق المحامي «مصطفى مرعي».. وفي عهد زكريا محي الدين وبعده شمس بدران ثم ممدوح سالم وصبية النبوي اسماعيل وأحمد رشدي وأخيراً في عز زكي بدر؟!

هل هي حتمية التاريخ، وقانون الأشياء؟

الكتاب ليس دفاعاً عن الجماعات الإسلامية أو ترويجاً لمبادئها وفكرها فهذه ليست مهمتي فلست داعية، ولا أصلح لذلك، كما أنني عانيت خلال الكتابة نوعاً من العذاب الجواني لأنني سلوكياً وفكريا، لم أستطع أبداً أن أوحد، أو حتى أقرّب بيني وبين سلوك المسلم الصحيح قوة وفعلا.. لا ولكني أيضاً لست «برنارد شو» عندما كتب عن محمد ﷺ.. رغم التعاطف على هذا التيار الساذج والثوري معاً فإنني حاولت أن أقيّم فكر أبرز الجماعات، وأنقده بموضوعية وهذا أمر صعب جداً، فالنقاش والنقد يجوز في حالة التعرض لفيلم أو مسرحية، أو حتى نظريات فلسفية، وسياسية.. ولكن في مسائل تطبيق المعتقد، فإن الذي لا يتفق معك سيعتبرك خارجاً، يستحق الحرق مع كل كتبه.

لم أحاول طرح حلول أو تصحيحات، أو تصاميم هياكل للفكر الإسلامي، والتنظيم الحركي.. بل استعرضت أهم التجارب، وأشرت لنقط الضعف ولمعالم القوة محاولا الإجابة على الأسئلة التي حيّرتني طويلا، ولكني تركت النهاية في نهاية الكتاب مفتوحة، على أساس أن القصة لم تكتمل، وأن فصولاً أخرى يجب أن تضاف..

كذلك فإنني أرى كل ما سجلته من أحداث، على المستوى الشخصي والعام،

وما طرحته من وجهات نظر سلبية وإيجابية في هذا الكتاب الغريب ـ حسب موقفك منها ـ هي أمور جدلية، قابلة للنقاش، فهذا النقاش هو هدفي الأول والأخير، لأنه سيكشف الأخطاء المدفونة في ساحة العمل الإسلامي، وهو القادر على إضاءة الطريق الصحيح بدلاً من دائرة الرعب التي تكررت مع كل التجارب، والتي تمثلت في بدايات ونجاحات باهرة، ثم خطايا ونهايات مأساوية..

هنا فإنني أذكر بالفضل للإخوة المسلمين الأصوليين في «انجلترا» و «ألمانيا» الذين تابعوا هذا الكتاب يومياً، فأمدوني بالمعلومات، ووافقوا واعترضوا على كل ما كتب يوماً بيوم، مما أمدني بالكثير من الخلفيات والمعلومات التي كنت أجهلها، ومن خلالهم حصلت على «نص مكتوب» لمحاكمات مجموعة شكري مصطفى وكذلك كتاب «الفريضة الغائبة» الذي كتبه محمد عبد السلام فرج وأيضاً محاضر التحقيق مع شهيد الإسلام خالد شوقي الإسلامبولي ومجموعته.

في النهاية أقول ان كل كلمة صدرت في هذا الكتاب، صدرت عن قناعة تامة، وبصدق وأمانة مع النفس ومع الناس، وان كنت لا أدّعي أنني أحطت بالحقيقة وكشفتها لأقدمها للقارىء فقد تعلّمت بعد عمر طويل من الأخطاء، والأحكام العشوائية، بأن الحقيقة لها ألف وجه، وأن ما كتبته في لندن جاء مختلف تماماً عما كان ممكناً أن أكتبه في القاهرة.. وأن أحكامي اليوم مختلفة بل ومتصادمة مع أحكامي التي أصدرتها منذ ثلاثين سنة حول نفس القضية التي هي صلب هذا الكتاب.. وليغفر الله لنا جميعاً.

محمد محفوظ

١

محن "الأخوان المسلمين"

أنباء المذبحة

تعودت أن أنظر اليه كمثلٍ أعلى، كنموذج باهر. أول مرة رأيته فيها في معسكر الفدائيين بصحراء بلدنا «بلبيس».. أنا طالب ثانوي، عمري خمس عشرة سنة، أرى الدنيا ملخصة في كلمتين: المجد والشهادة. طبعاً الشهادة هنا ليست «شهادة الثقافة» بل شهادة سيد الشهداء حمزة. اما شهادة الثقافة التي كنت سأحصل عليها لأصبح مؤهلا لوظيفة على الدرجة الثامنة، فلم تعد على البال، فالزقازيق الثانوية أغلقت بالضبة والمفتاح.

وصل هو، «حسن دوح»، مع الشيخ فرغلي ويوسف علي يوسف والشيخ أحمد نار، وقضينا الليلة ساهرين حولهم في المعسكر.

ذكرته بهذه اللحظات التي تصورتها لا تُنسى. ولكن عبثا. لم يذكر شيئاً. ذكرته بيوم حريق جامعة القاهرة، وكان هو يخطب مرحباً بالزعيم الايراني نواب صفوي مندوب آية الله كاشاني زعيم «فدائيان إسلام». طَفت مسحة الألم على الوجه الطيب، ورفض أن يتذكر.

قلت له إنني كنت يومها في كلية الهندسة، ورأيت مجموعة «منظمة الشباب» وعلى رأسها «جمعة» و«ميشيل» وبصحبتهم ضابط المخابرات كمال يعقوب يخترقون البوابة، ويطلق كمال يعقوب الرصاص في الهواء، فيهاجمه نجيب جويفل بالكرباج، ليهرب الضابط مع زمرته، ويعودون بسيارة «جيب» يقلبونها، ويشعلون فيها النار، لتخرج الصحف تتهمنا نحن الاخوان بالحادث، وتكتب «أخبار» الأخوين «مصطفى وعلي»

المانشيت الشهير: (الاخوان يحرقون الجامعة).

لم يعلق. هز رأسه فقط.

سألتـه: كيف حدث وأنت حسن دوح، وبعد هذا كله، أن تعمل في «أخبار اليوم»؟

لم أكن أتهمه، وحاشا الله أن أفعل. كنت استفسر وأحضه على الكلام فقط. قال: أنت أيضاً عملت في «الأخبار»، حسب ما علمت منك..

قلت: أنا لست حسن البنا، ولا حسن دوح، ولا حسن السلوك.. لست حسناً على الاطلاق. أنا كنت وما زلت بعيداً عن الايمان بقدراتي على فعل شيء له قيمة، وإذا بدأت فإنني لا أكمل المشوار.. كالمنبت، لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى.

ـ متى تركت مصر؟

ـ سنة ١٩٦٢.

ـ هل اعتقلوك سنة ٥٤؟

ـ اعتباطياً، ولمدة ٤٨ ساعة، وأنقذتني صدفة، أو معجزة ساقت لي بلدياتي اللواء ميتكيس، فتعرف عليّ في قسم السيدة، فقال: طلّعوه أنا عارفه. وكان أن طلعت بعد أن طفحوني الدم، وأنقذني أن إسمي المسجل هو محمد. وهو اسم لا يعرفه أحد في البلد، حيث شهرتي محفوظ. فلما ذهبوا يسألون عن محمد قالوا لهم صادقين: لا نعرف أحداً بهذا الاسم.

ضحك جداً، وقال: أنت محظوظ يا أخي.

ثم سكت. تصورته يشك فيّ، ويتحفظ في كلامه معي. وعذرته، فأنا أعرف «سماعياً» حجم العذاب الذي وقع بهم. وها أنا في الكويت بعيداً عن بلبيس والجيزة وجامعة القاهرة، أدير مؤسسة صحفية بلا دور. وها هو حسن دوح في نفس البلد، يشرف على مجلة إسلامية، يطبعها عندي، ويعاملني بحذر كأنني «شاويش» أو شاهد زور أتقرب منه وأجره للكلام كي أورطه. ملعون أبو هذا موقف، عندما ينكرك ماضيك، ويتملص منك مثلك الأعلى الذي كان.

ونلتقي كثيراً وأنا غير قادر على أن أكون سلبياً معه، وهو غير قادر على كسر الحاجز الذي أقامه بيني وبينه، بينه وبين العالم، كما اكتشفت بعد

ذلك.

وذات ليلة سهر معي في المطبعة. ولا ليلة في الكويت مرت دون سكر بيِّن. لاحظ هو ذلك.

سألني: هل تشرب؟

قلت: من زمان؟

ـ أي زمان؟

قلت: هذا الزمان الذي نعيش.

ـ كثيرون غيرك فتنوا، وكثيرون صمدوا.

ـ وما الفارق، وكلنا صُدمنا وندمنا وخاب رجانا؟

ـ اجلس يا أخي هداك الله. اطلب لنا القهوة، فأنا أريد أن أتحدث معك.

ـ تتحدث معي أنا! يبدو أن الويسكي سره باتع.

وجلسنا في مكتبي، وجاء «أحمد باخللا» بالقهوة المعتبرة، فطار «السبرتو»، وتكلم حسن دوح. ويبدو أن حاجته الى الكلام كانت أكبر من حاجتي الى الاستماع. قال: ماذا تفعل بنفسك يا أخي.. ألست مسلماً؟

ـ مسلم طينة.

ـ ستضر نفسك، ولن تضر الله شيئاً.

ـ الله تخلى عنا.. وإلا ما كنا هنا.

ـ إنها المحنة والامتحان. القليل صبروا واحتسبوا، والكثيرون استشهدوا، والبعض فقدوا عقولهم، وأيضاً هناك من فقدوا إيمانهم. الذي حدث يا أخي لم يكن هيناً.

ـ أنا لم أعد أنا.. وأنت لست الشاب الذي عرفته.

ساد صمت كالزيت ـ زيت الخروع ـ تمنيت لو بكيت. وتقيأت في داخلي بالمقلوب، وتقبضت مصاريني، فعدلت نفسي بالقهوة المرة، وبدأت أفيق على صوت جليسي كأنه يأتي من عالم آخر، عبر وسيط لتحضير الأرواح:

ـ ما حدث يومها كان فظيعا بدرجة تستعصي على النسيان. ليلطف بنا الله جميعاً. سأحكي لك لعلك تتأسى ولعلني أرتاح.

جمعـونا، ونقلونا الى «ليمان طرة». لا أحد يعرف بالضبط على أي أساس أدانونا. حياة الليمان هي تدمير للجسد في عمل شاق لا جدوى منه. تكسير البازلت تحت شمس محرقة، ورقابة غاشمة مهينة. اشتغل يا مجرم يا ابن الكلب. وتفتيش شخصي مذل في أي وقت، ولأي سبب. وغالباً بدون سبب. ورحم الله البعض، فرحلوهم بعد عامين الى معتقل الواحات، وبقي في الليمان ١٨٠ أخاً، اختيروا لأسباب يعلمها الله وبيريا محيي الدين ـ زكـريـا محيي الدين ـ وصلاح الدسوقي الششتاوي، وضابط المباحث أحمد صالح، الذي لفق لنا القضية ـ الزور ـ التي دخلنا بمقتضاها الليمان.

ـ أي قضية فيهم؟!

ـ قبض عليّ في حادث إحـراق الجامعة، وحققوا معي، وأفرج عني بالضمـان ليعاد القبض عليّ في حادث إطلاق النار على عبد الناصر في ميـدان المنشيـة. وصـدرت أحكـام الاعدام بالجملة، وعلقت المشانق للشيـوخ الأبرياء، وحُكم عليّ بالأشغال الشاقة، والتي تضمنت حكماً بالاعـدام البطيء، وبطريقة معذِّبة. وبدأت رحلتنا مع الموت منذ اليوم الأول لوصولنا الى «طرة» في ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥.

أنزلونا بزنازين عنبر رقم واحد حيث المعاملة «برنجي» ممتازة، اختير لهـا أشد السجانين جلافة. الواحد منهم لا يعرف أباه ولا يرحم أمه. والشـاويشيـة والضبـاط يفخرون بأنهم ربابة زيجلر، مدربهم النازي المشهـور بأسـاليبه الفظيعة في التعذيب. أحاطونا بالفزع من اللحظة الأولى، ولكنا كنا تعودنا ذلك طوال جولات التحقيق والمحاكمة، والبهدلة في سجن الاستئناف وسجن مصر، وقبلهما السجن الحربي.

دائما عوملنا معاملة الذبائح في يد الجزارين. وهكذا تأقلمنا مع «طرة» وزبانيته، ووطدنا أنفسنا على إقامة ستطول ما شاء الله لها أن تطول، واستعنا بالله، وقراءة القرآن، واعتصمنا بكل رصيدنا من الايمان.

* * *

تقـول الأسطورة التاريخية ـ وكل التاريخ أساطير ـ إن الاسكندر

الأكبر، عندما تولى حكم اليونان، عقب وفاة أبيه «فيليب المقدوني» ذهب الى معلمه الأشهر «ارسطو» وقال له: الآن أصبحت أقوى رجلٍ في اليونان، وحان الوقت لأن أستعمل قوتي يا معلمي.

فسأله الفيلسوف: وكيف ستستعمل قوتك؟ ماذا ستفعل؟

ـ سأخرج لأهزم عدونا ملك الفرس وأستولي على بلاده.

ـ عظيم.. وبعد ذلك؟

ـ سأفتح مصر..

ـ ممتاز.. ثم ماذا؟

ـ اتجه الى الهند، وأضمها الى إمبراطوريتي.

ـ مدهش.. وبعد الهند؟

ـ اتجه الى الصين، وبذلك يدين لي العالم..

ـ يا سلام.. وعندما يدين لك العالم.. ماذا ستفعل؟

ـ عندها أكون قد تعبت،، فأعود الى اليونان كي استريح.

فرد الفيلسوف: ولكنك حاليا في اليونان يا مولاي، فلِمَ لا تستريح من الآن وتخلصنا؟

هذه «النكتة» أو الحكمة، تسخر من تبديد القوة بلا هدفٍ أخلاقي.. من إطلاق صواريخ بلا أجهزة توجيه، فتضيع في الفضاء.. أن نترك نهر «الكونغو» بلا سدود، فيبدد نفسه في الأطلنطي، لا يترك أثراً نافعاً.

الاسكندر فتح العالم القديم، وعندها كان العالم بعده أسوأ مما كان قبله.

أتيلا وجنكيزخان وهولاكو، كسَّروا الدنيا، ولم يتركوا خلفهم سوى أهرام الجماجم، وأطلال المدن المحروقة.

نابليون هدد أوروبا واستولى عليها بالكامل، ووزع عروشها على إخوته وعشيقاته، ودمر كل النظم، وأجهد فرنسا، وتركها محطمة محتلة، ليموت مهزوماً مسموماً، يلعنه أصدقاؤه قبل أعدائه.

هتلر، هو آخر طابور الذين عبدوا القوة للقوة ذاتها، أو وضعوا القوة في خدمة فكر شرير، غير إنساني. فالقوة هنا تدمر، ولا تغيِّر.

الفكر وحده هو القادر على تغيير العالم. ليس أي فكر، ولكن الفكر

الخيِّر الذي ينفع الناس، فيمكث في الأرض.. أما الزبد فيذهب جفاء.

وأصحــاب هذا الفكر يعيشون غرباء في صحراء موحشة، يحلمون بعالم غير موجود، ويتعاملون مع وحوش تنكرهم.

نوح يسخر منه قومه، ويكفر به إبنه الذي من لحمه ودمه.

موسى يتمـرد عليـه هؤلاء الذين أنقذهم، فيكفرون بربه، ويعبدون العجل الذهبي.

المسيح يخونه أقرب الناس اليه، ويسلمه للعدو.. هو الذي تعشّى معه.

محمد يُضطهد، ويُتهم، فهو ساحر، وهو مجنون. وفي النهاية يخرج مطارداً كي ينجو بدينه وأصحابه.

تغيير العالم الحقيقي لا يتم إلا بالفكر والرؤيا الانسانية، ولكنه طريق صعب، محفـوف بالمخــاطر، ولا يقـدم عليـه إلا أولو العزم، وأصحاب الرسالات، المستعدون لمعارضة الكون وصدمه، ودفع الثمن.. ويا له من ثمن!

هذا الصنف من البشر ليس كثيرا. ولكن تأثيره يتخطى الجغرافيات ويسخر من مسلمات التاريخ.

إذا تركنا شارع التاريخ العام الى الحارة التي ولدت فيها، لعثرت على ذلك الشخص صاحب الرؤيا التي شكلت تفكيري من بدري، وحملتني مسؤولية إصلاح العالم من صغري. علمني انني انتمي لأمة عظمى لا يجب ان تهـان، وان إستكـانتهـا للاغتصاب أكبر إهانة، وأن حكامها موالون للكـافـر، وعمــلاء للظلمــة، وأن التغيير ضروري. ولا تغيير إلا بالايمـان، ووحـدة الاخوان. والبداية تكون ببناء الفرد المؤمن، وحوله تتكون الأسرة المؤمنة التي تشكل من مجموعها المجتمع الايماني. وهذا يفـرز حكومة المؤمنين التي تحكم بالقرآن، وتستعيد المجد العظيم من غرناطة الى بكين، ومن صوفيا الى دار السلام، دولة الله والحرية والعدل المطلق التي لا تكف عن نشر نورها حتى يعم العالم أجمع.

كلام كالسحر، أخطر ما فيه أنه بسيط، وأنه رائع، يفهمه صبي في العاشرة، فيرتفع به من طين الزقاق الى حكم العالم.. من العراك على بطولة «أولهاسينو».. الى الانخراط مع جند الله.

وذات صباح استبدلنا نشيدنا القومي:
«إحنا شارع حبيشي، اللي يعادينا مين؟
نضرب بالسكاكين.. ندبح الـ......»

بهتاف مختلف تماما، أجمل إيقاعاً، وأسمى معنى، ومثير لدرجة يقف لها شعري كلما تذكرت نفسي وأنا أصرخ به، بصوتي المسرسع وبنطلوني القصير: «الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

كبرت فجأة، وأصبح عمري ألفاً وأربعماية عام. ولم أر صاحب هذه «اليوتوبيا» التي ما زالت شغالة داخلي، وداخل مصر، سوى مرة واحدة قبل اغتياله بعامين، عندما زار الشعبة الجديدة في بلدنا، وصافحنا نحن الأشبال واحداً واحداً، ودعا لنا، وأقسمنا أمامه على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، وكلفنا بمهمة مختصرة: «اخضاع العالم كله لكلمة الحق».

بس كده.. بسيطة.. دا احنا شارع حبيشي.. واللي يعادينا مين؟

لم نره بعدها، ويصبح بالنسبة الينا هو «الامام الشهيد» الذي قتلته الحكومة، كما فعلت ببطلنا الخصوصي أدهم الشرقاوي، ذلك المحرض الذي أبكانا دماً وشاعرنا يرسم لنا المنظر الأخير في المأساة:

تالت رصاصة جت في بزه الشمال بنشان.
قال: إن عشت يا حكومة، لألبسك طرح وشيشان.
وإن مت يا حكومة، دانا واخد عليكي تلاته بنيشان.
أمانة يا عيلة الشرقاوي ما حد بعديه.
لا أخ لي، ولا عم، يأخد التار بعديه.
يا قاعدين كلكم وحِّدوا الاله يا هوه.
دي الحادثه اللي جرت على سبع شملول...
داسوا عليه الرجال قتلوه.
ومنين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه.
شبه المؤيد لمعناة الكلام وتالوه.
الحادثة اللي جرت على سبع شرقاوي.

الاسم أدهم، لكن اللقب شرقاوي.

كان التشابه بين ميتة «الامام الشهيد» وميتة رمز البطولة في الشرقية «أدهم» الذي تحدى الحكومة ودفع الثمن، سبباً كافياً لأن نضم الرجل وفكـره الى تراثنا. «أدهم» لم يكن من الشرقية، ولكن لقبه «الشرقاوي» يرجع بأصوله لأرضنا.

حسن البنا ليس من الشرقية ولكنه كـ «أدهم»، وأيضاً كـ «عُرابي» أسد الشرقية. كلهم تحدوا، والى النهاية، فرسمناهم وشما على جلودنا، وحفـرنـاهم جراحا غارت في الذاكرة الشرقاوية، تلك الذاكرة الاقليمية المتعصبة بالفطرة، والتي تحلم بـ «اليوتوبيا»، وتتغذى بذكريات التجارب المجهضة، والآمال الخائبة.

هذا الكلام دار بيني وبين الأخ «حسن دوح» في نهاية الستينات بالكويت.

هو زعيم معسكرات الفدائيين عام ١٩٥٠، والخطيب الرهيب في حشود الاخوان بالجامعة، خلال أزمة مارس ١٩٥٤. أحد النماذج التي شكلت الوجدان، وشاركت في صياغة الاحداث. شاب شعره، وثقل فؤاده، وتغير جداً، ولكنه كلمني عن فصل آخر من فصول «اليوتوبيا».. فصل هربت منه، ولكن، هل الهروب ممكن؟

عام ١٩٥٥، أين كنت أنا.. وأين كان هو؟! أنا هربت من الجامعة، وتركت دراسة الهندسة، وعملت مدرسا إعداديا في مدرسة «أوده باشا»، وعشت قصــة غرام تعِس موازيــة لمغــامــرة حب محرم، وبدأت أشرب بإنتظام، وأتسلى بالعراك مع أبي، وبتحالفات صغيرة ضد نائب بلدنا.

«حسن دوح» كان يدفع الثمن من عمره ودمه، سجيناً، بكِلْيَة واحدة، في «ليمان طرة» مع بقية الاخوان. إنتقام السلطة الوحشية بادٍ على وجه وجسـد «الأخ حسن»، وهو يفتح لي قلبه ذات ليلة مشحونة في مطبعة المرزوق بالكويت.

قال:

ـ كل شيء يمكن ان تعتاد عليه، حتى تكسير الزلط في الليمان، وسفالة السجَّان.

عنـدما وقع العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، طلبنا التطوع في صفوف الجيش والحرس الوطني، فلم يردوا على طلبنا.

كان طبيعيـاً، بمرور الوقت، ان تتحسن العلاقات الداخلية في هذا الليمان الجهنمي الشهير، فخفت تحرشات شاويشية السجن الأرذال، وتقلصت نوبـات التفتيش اليـوميـة، فأصبحت أسبـوعيـة، وخُفضت مقـطوعيـة البازلت التي نكسرها في الجبل، وسيطرت روحٌ عجيبة على المكان.. ولكن الى حين.. فبعد انحسار العدوان، يبدو ان النظام التفت نحونا مرة أخرى.

ـ لِمَ إلتفت لكم وقد خرج سليماً قابضاً على البلد بيدٍ من حديد؟

ـ لا أعـرف، فهنـاك تفسـيرات كثـيرة لهذا الموقف. عموماً، فوجود الاسـلام، حتى في الليمان، كان بمثابة تهديد له. المهم أننا فوجئنا في بدايـات العـام ١٩٥٧ بعـودة أساليب التجرمة والاستفزاز والتفتيش اليومي لنا نحن نزلاء العنبر رقم واحد ـ برنجي ـ وامتلأ الجو بالتوقع والاشاعات ونُذر الشؤم. وليس كمناخ الليمان مكاناً صالحاً لتكاثر مثل هذه الميكـروبات. وإتبعنا اسلوب التحمل، وعدم الانجرار للاستفزاز، وحتى الامتناع عن تقديم الشكاوى مهما حدث. كان وقوع الشر حتمياً، ولكننـا أردنـا تأجيله فقط. ولكنك كسجين أعزل، لن تستطيع، ومهما تحايلت، وقف إنهيار صخور الجبل بعد الانفجار.

وفجروا هم الموقف يوم الأربعاء ٢٩ مايو ١٩٥٧، وكان يوم الزيارة المخصص لاخوان «شُبرا».

والذي حدث هو ان الضـابـط عبـد الله ماهر دخل ساحة الزيارة متحـرشاً بالاخوان موجهاً لهم الاهانات الفظة أمام زوجاتهم وأبنائهم وأقاربهم، فتحملوه تماماً، ولم يردوا عليه بقليل أو كثير، فاغتاظ سيادته، وقلب الدفة موجهاً بذاءته نحو أهالي السجناء، فصبروا حتى وصل الأمر به لتوجيه الفاظ فاحشة لشقيقة أحد الاخوان، فحاولت السيدة الفاضلة تهدئته، فتمادى، ليسب عرضها، فثار الشقيق لعرضه وشرفه.

وهذا هو المطلوب.

صَفر حضرة الفرعون الصغير معلناً إنتهاء الزيارة.

وتقـدم الحـراس يسوقون الاخوان أمامهم الى العنبر. وفي الطريق حولوهم الى «عنبر التأديب»، ووضعوا أيديهم في الحديد خلف ظهورهم، وأقيمت حفلة التعذيب بالعصي والقوايش والجزم، في عز الظهر الأحمر، تحت إشراف الضابطين «عبد الله ماهر» و«عبد العال سلومة». وتفشى الذعر كرذاذ الانفلونزا. وتم تفتيش العنبر رقم واحد بصورة لم يسبق لها مثيل في البهدلة والسفالة.

وبتنا ليلة الغراب الأسود، التي يهابها أهل الحظوة من المتصوفة. دعوات مكتومة، وإحتساب الى الله، ونوم مستحيل. وبعد صلاة الفجر، نزل الزبانية يطوقون الزنازين: إنزل الجبل.. انزل الجبل..

ونزلنا الجبل متوجسين، لا نتبادل الكلمات.

كانت النظرات كافية، وأكثر من كافية، فهي مشحونة بكل ما يقوله المؤمن لأخيه في الموقف الضنك.

مر اليـوم مكهـربـاً، ولكن بلا أحداث. أسوأ ما فيه صمت الظالم، وتوقعات المظلوم.

عدنـا الى العنبر، فوجئنا بأمر غريب، غاية الغرابة. وجدنا الزبانية الذين لا يعـرفـون الله، وقـد سحبوا الاخوان المرضى من المستشفى، وأعادوهم لزنازين «العنبر رقم واحد»، ومعهم أمر بأن ينزلوا الجبل مع غيرهم يوم السبت.

كيف، وفيهم من أجريت لهم عمليات جراحية لم تلتئم، وخياطتها ما زالت مفتوحة؟

كيف، وبينهم من هو في مثل حالة الشهيد سيد قطب لا يقوى على رفع جسده عن الأرض؟

ولـماذا الإصرار على نزول المئة وثمانين أخاً للجبل بالتمام والكمال، مريضهم قبل السليم؟

ليلة الجمعـة نِمنـا، فنحن لم نذق النوم في الليلة السابقة، وقضينا أسبوعاً طويلا نكسِّر الزلط، وغداً راحة. ومنذ الفجر بدأنا نفتش في فكر السلطة، فوصلنا لنتيجة واضحة، هي: إن الجماعة قرروا التخلص منا دفعة واحدة، والى الأبد. وسحبنا مع مرضانا للجبل، سيُتيح لهم فرصة

اطلاق النار علينا في مذبحة جماعية كمذبحة المماليك، ثم إعلان ما وقع كأنه محاولة جماعية للهرب، أجبرت الحراس على فتح النار على الهاربين.

سواء كان هذا التحليل صحيحاً أم مخطئاً، فهو ما اقتنعنا به، وتصرفنا على هداه، لم يشذ فينا أحد. وقررنا الامتناع عن نزول الجبل، وطلب النيابة للتحقيق.

نمنا وقد استرحنا لهذا القرار، وفي يد كل منا ورقة كتبها بهذا المعنى. وبعد صلاة الفجر، تعالت الصيحة الملعونة «إنزل الجبل». ونزلنا ساحة السجن، وسلمنا الأوراق للشاويش الذي سلمها بدوره للضابط عبد العال سلومة. وكان المفروض ان نخرج للجبل، حتى تعرض الأوراق على إدارة الليمان ويبت فيها، ولكن الضابط جمع الأوراق، وأمر الاخوان بالعودة الى العنبر رقم واحد، وباغلاق الزنازين عليهم.

في الساعة العاشرة حضر الشاويش منادياً: حسن دوح.. عبد الرازق أمان الدين.. عبد الحميد خطابي.. أحمد البس.. للنزول فوراً لمقابلة معالي الباشا المدير.

خرجنا من الزنازين وسط مجموعة من الحرس المسلح، وبوغتنا بأن العنبر محاط بكردون من العساكر يحملون البنادق فوق السور، وان حالة قصوى من الطوارىء معلنة، ومعالم معركة مقبلة، واضحة على الوجوه، فالعصي والكرابيج، وصناديق الذخيرة مكومة، وفي متناول الحراس. اما ساحة الليمان، فامتلأت بألف عسكري كامل السلاح، هم قوة السجن كلها.

إذا كان هذا الحشد مجهزاً لضرب مئة وثمانين رجلا من الاخوان نصفهم مرضى، وكلهم أعزل.. فعلينا العوض، وعلى الله الحساب. ولماذا طلبونا ما دام الحكم قد صدر، والساحة جاهزة؟

تحرك المغص في كليتي الوحيدة، كطعنات مسمار مُحمًّى. ضغطت على أسناني، وتفصد عرقي، وأمسكت خاصرتي، وندَّت مني آهة مكتومة لفتت إنتباه الاخوان شركاء الركب. ودعوت الله في سري ان يخفف عني وطأة هذا الوجع حتى نمر من هذا المأزق الصعب. وأخيراً وصلنا الى مكتب الضابط محمد صبحي، حيث وجدنا أننا بمواجهة مجلس عسكري

برئـاســة مدير الليمان العقيد سيد والي، وحوله كامل أركان حربه من السادة الضباط . كنت أتمزق من الوجع، وأشار نحوي قائلا: إتكلم..

ـ عن ماذا؟

ـ انت خطيب بليغ زي ما بيقولوا.. إتكلم.. قُل أي كلام.

* * *

هل كان يعذبني؟

هل كنت أنا الذي يعذبه؟

المؤكد أن كلانا يتعذب، ويعذب الآخر. كنت كذلك الحاوي الهندي الذي نفخ في مزمار الذكريات، فخرجت من سلتها أفاعٍ تتلوى محركة المخاوف القديمة والتجارب المسمومة في قلوب النظارة، وفي قلبه قبل كل شيء. كان الأخ حسن دوح وهو خطيب له حضورٌ عجيب، يخطب وأنا كل جماهيره.. لم يكن يخطب.. أنا تخيلته كذلك، فلم أكن بقادر على تصوره يتكلم كبقية الناس. لا بد من آلاف.. عشرات الآلاف من الطلبة والطالبات يملأون ساحة الجامعة، وهو يعتلي المنصة أمام قاعة الاحتفالات الكبرى لجـامعـة القـاهرة بقبتها المهيبة، ونحن مشدودين للحروف والكلمات والمعاني. كان شيئاً خارقاً.. فوق البشر، يتخطى المكان والزمان، فهو لا يتوجه لنا، بل يتوجه بنا محلقاً لفوق.. فوق.. فيبدو كل شيء صغيراً.. الدنيا والمستحيل.. والموت كان يتمثلنا.. يلخصنا في إرادة واحدة، لها أذرع بلا حصر، وعيون بلا عدد.

الآن إنهزم الاخوان أمام النظام، وانهزم النظام أمام العدو، وإنهزم حسن دوح في كل هزيمة من تلك الهزائم، وهو في تلك اللحظة يحاول ان يكــون صاحبي، يكشف لي كيف تألم.. كيف تعــذب.. كيف اعتــراه الضعف والخوف.. وأنا أرفض أن أراه هكذا، أرفض كسر المرآة المعلقة على جدران ذاكرتي حيث هو نصف إله، مقاتل نبيل، وزينة شباب أهل الجامعة وزعيمهم. لا شيء أقل من ذلك أبداً. صحوت على صوته يترقرق دامعاً:

ـ تعلمنا في الليمان ألا نناقش الأوامر مهما بدت عبثية. نطيع كالآلات، ونلغي عقولنا تجنباً للمتاعب. في تلك اللحظة كنت متداعياً، فوجع الكِلية ينهش جانبي، فأكاد أصرخ بينما السيد مدير الليمان يطلب مني أن أقول أي كلام. وقلت.. أي كلام، ولكن يبدو أن حالتي كانت بالغة السوء، فقد قال الرجل: مالك يا أستاذ؟

قلت: لا شيء يا سيدي.

فرد ضابط العنبر: إنه تعبان من كِليته يا سيدي.. إنه يعيش بكلية واحدة، والثانية تعبانة.

قال المدير: إجلس يا أستاذ.. اتكلم انت..

وأشار للأخ عبد الرازق أمان الدين، فتكلم عن المعاملة التي ساءت، والاستفزازات التي تصاعدت. وبعده تحدث الأخ عبد الحميد خطابي عن الاهانات التي توجه للزوار من أهل المساجين، بلا سبب.. وكيف وضعت القيود الحديدية في أيدي الاخوان من الخلف، وهو وضع مذل، علاوة على كونه مؤلما يستحيل معه الأكل والشرب والنوم ودخول الحمام.. وكيف ان الجواسيس الصهاينة، الذين قبض عليهم في قضية لافون، يلقون من نفس الضباط الذين يفترون علينا، معاملة أفضل وأكرم.. وهذا حرام شرعاً وديناً.

وأخيراً تكلم الأخ أحمد البس فتساءل عن سبب التوتر، وحشد الجنود والذخائر، وهل كل ذلك لضرب مئة وثمانين من الاخوان العُزَّل، الذين لا يملكون من أمر انفسهم شيئاً، ولم يقترفوا ذنباً. بينما العدل والرحمة تفرض على المدير أن يعالج الأمر بالحكمة وليس بالقوة.

الرجل حقاً كان فيه عرق طيب رغم أنه يدير أسوأ سجون مصر سمعة، فقال: قسماً بالله العظيم، انني ما عالجت أموري طوال حياتي إلا باللين، ودوسيه خدماتي بالحكومة يشهد عليّ.. وسأفعل ذلك الآن..

قال ذلك وقام خارجاً يتبعه ضباطه، وتركوا أربعتنا بالغرفة، ونحن نشعر بأن الأزمة إنحلت على خير، ولكن الأمور لم تكن بيد مدير السجن. وقد عرفت فيما بعد انه اتصل برئيسه ـ مدير عام السجون ـ الذي بدوره اتصل بوزير الداخلية ـ «بيريا محيي الدين» ـ حيث القرار كان مختلفاً.

وفـوجئنـا بهم يعـودون ومسدساتـهم مشهورة في وجوهنا، وبصحبتهم الحـرس يحملون الجنـازير التي تستعمل في سلسلة المسجونين، كل عشرين معاً في قيدٍ واحد. وضمت أول مجموعة عبد الرازق أمان الدين وعبد الحميد الخطابي وأحمد البس. وعندما وصلوا عندي بالجنازير، أشار لهم مدير السجن. قائلا: ده ودوه العيادة.. شكله تعبان وحيموت.

وهكذا أُبعدت عن مسرح الجريمة، ولكني عرفت وقائعها بالتفصيل الدقيق على لسان الذين حضروها وكُتبت لهم النجاة منها. توالت المناظر كالتالي:

فتحـوا الزنـازين بالدور، وأخرجوا الاخوان، واخضعوهم للتفتيش الدقيق والضرب الوحشي، ليسلسلوهم معاً بعد ذلك.. وانتهوا من تقييد خمسـة عشر أخاً في الجنزير الأول. وساد فزع مجنون في نفوس بقية الاخـوان، وقـد تأكدوا أنهم مساقون الى الموت. وفي حالة هياج مرعب انقض الأخ مرسي صادق على سجان العنبر، وخطف منه حلقة مفاتيح الزنازين ليفتحها وليخرج منها بقية الاخوان، وقد شلت المباغتة بقية الحرس في لحظة تساوى فيها العقل بالهستيريا، والموت بالحياة. وعجزت الادارة عن عمـل أي شيء سوى إقفال العنبر وترك الزنازين مفتوحة، وإصطحاب المسلسلين الى عنبر آخر، حيث أودعوا حجرة فيه، ليصلوا في قيودهم وحديدهم.

وبعد الظهر عاد المساجين والحرس من الجبل، وكذلك العاملون في الورش، وأغلقت عنابر الليمان الأربعة على من فيها إلا عنبر رقم واحد، الذي يضم الاخوان، فقد تركوه على حاله ولسبب ما تصور نزلاؤه ان الأزمة إنتهت.

وحوالي الساعة الواحدة، دخل عليهم العقيد سليمان طلعت، فالتفوا حوله يناقشونه في كيفية فض الاشكال بصفته مأمور أول الليمان، وكان متجاوبا. وبعد دقائق من الأخذ والرد، حضر أحد الحراس، وهمس في أذنه بعبارة خاطفة، قطع بعدها الحوار، وخرج من العنبر مهرولا، تاركاً الاخوان ينظرون لبعضهم: الراجل جراله ايه؟

ولم تتأخر الاجابة، فقد تعالت ضربات الأحذية العسكرية على بلاط

الممرات وطقطقة «دبشك» البنادق، وأوامر الشاويش المدوية: أمام سر.. يمين دُر. وظهر الألف عسكري بكامل السلاح، لينقسموا فريقين، الأول توجه للدور الرابع، والثاني في الدور الثاني.. وبقي الاخوان محصورين بالدور الثالث، في الوسط، وأخذ العسكر وضع الاستعداد لضرب النار من الشرفات المحيطة بالهدف الأعزل المطوق من فوق وتحت.

ما كان يحدث في تلك الساعة بدا كأحد سيناريوهات الخيال المرعب، فليس معقولا أن يصاب نظام في الدنيا بهذا الحجم من موات الحس، بحيث ينظم حفل إبادة جماعية ضد خصومه، وفي عز الظهر الأحمر، وبلا سبب تقريباٍ. حتى الاخوان الذين صُوبت البنادق نحوَ صدورهم، وقفواْ يتفرجون. لا تبدر عنهم حركة، ولا يند عنهم صوت، كأنهم مدعوون لحفل لا يخصهم ولا يعنيهم.

ظهيرة يوم السبت، أول يونيو ١٩٥٧، كانت حارة بدرجة غير عادية، وبالذات داخل مبنى «ليمان طرة» حيث تجمعت الرطوبة، والخوف البشري، ورائحة النشادر الصادرة عن جرادل البول، والعرق الغزير.. فاليوم، أول أيام الأسبوع، وأشدها إرهاقاً في الجبل.. وألف قطعة سلاح مصوبة نحو المئة والثمانين سجيناً من الاخوان المسلمين، في عنبر رقم واحد ـ برنجي ـ. وساد صمت خائن، تجمدت وسطه الأحداث، ثم سمعت «تكتكة» شد ترابيس البنادق، واقتحم الصورة السيد مدير الليمان، ومعه زمرة من أعمدة السلطة في ملابس مدنية، يتصدرهم صلاح الدسوقي الششتاوي.. محافظ العاصمة فيما بعد، ونجم المباحث العامة صالح داوود. وبعد إلقاء نظرة سريعة للتيقن من أن كل شيء ـ تمام أفندم ـ رفع مدير الليمان يده بالمسدس، وأطلق رصاصة البدء. وفوراً فتحت أبواب الجحيم، وزخ الرصاص يعوي باتجاه الاخوان المحاصرين. وتعالت الصرخات والدعوات، وتناثرت الأشلاء في نوافير الدم.

منظر لا يصدق، ولا يمكن ان تستوعبه النفس المسلمة، المفطورة على الخير. في اللحظات الأولى سقط الشهداء: السيد العزب صوان، واحمد قرقر، وعصمت عزت عثمان. وتيقن الاخوان أن ما يقع لهم حقيقي، وليس

مجرد كابوس، فبدأ الكل يركض أو يلقي بنفسه على الأرض، بحثاً عن ساتر يعصمه من الموت. واستمر الضرب في «المليان» دقائق أطول من الدهور، حتى خمدت حركة الضحايا، وصدرت الأوامر بوقف إطلاق الرصاص. وبدأ الفصل الثاني من المذبحة، والأكثر فظاظة، وأشد هولا من سابقه.

صرخ النقيب احمد رشدي(*) في هياج حيواني، يأمر فرقة حاملي الهراوات ـ الشوم ـ بالهجوم على الزنازين: خلصوا عليهم، ما تخلوش واحد من ولاد الكلب فيه نفس.

ودخل الزبانية المخزن البحري الذي لجأ اليه تسعة من الاخوان، استشهد منهم خمسة، وكان الأربعة الباقون في حكم الأموات، والمكان عبارة عن بركة من الدماء، فظنّوا الجميع قتلى، فتركوهم، وتسارعوا يركضون نحو المخزن القبلي، لانهاء المهمة، ولكن البوابة استعصت على الفتح، بسبب رصاصة إنحشرت في «الكالون» فكانت السبب في نجاة أحد عشر أخاً إعتصموا وراءها، ولكن الزنازين رقم ١٣ و١٤ كانت مفتوحة، فاقتحمها القتلة، وأجهزوا على ستة من الاخوان بداخلها.

استمر هذا العرض لمدة ساعة متواصلة. وكانت حصيلته واحدا وعشرين شهيداً، واثنين وعشرين جريحاً، وأربعة عشر فقدوا عقولهم.. جنُّوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي ليلة الأحد، خرج من الليمان، واحد وعشرون نعشاً، في قلب الظلام، وبحراسة مسلحة، واتجهوا بكل شهيد الى قريته. حيث يدفن في جنح الليل، وبحضور واحد من أهله، وليبقى القبر تحت حراسة النظام، لا يزوره أحد.

* * *

هذه المذبحة لم يُكتَب عنها خبر واحد في صحيفة..
لم تحرك وجدان الانسانيين في الداخل أو الخارج.
فالذين ماتوا ليسوا بشراً، بل إرهابيون، قتلة، حوسبوا على نياتهم،

* أصبح وزيراً للداخلية في عهد حسني مبارك.. واقتحم بقواته الجامع الأزهر وكان هو الثاني في التاريخ الذي فعلها بعد نابليون.

ولقوا الجزاء المناسب.

وعندما سمعتها من الأخ حسن دوح في الكويت، أصبت بالاكتئاب لأكثر من عام. وتعمقت كراهيتي لعالم يسمح بوقوع مثل هذه الجرائم، وبمثل هذه السهولة، ومن دون أن يحاسب الفعلة. أيضاً تمرمرت حياتي الخاصة، وبدت لي كم هي تافهة.. ان أعمل وأسافر.. وأسهر وأسكر، وأتزوج وأنجب، وأتوهم لنفسي دوراً أو مهمة، وأخوض معارك للفوز في المناقصات، والجري وراء النسوان.. بينما الآخرون الذين أعرفهم، والذين لم أعرفهم، يذبحون غدراً من أجل إيمانهم الذي هو إيماني ـ أو كان إيماني ـ لقد قُبض عليَّ في الأحداث نفسها، ولما خرجت مصادفة، هربت من الجامعة، واعتبرت ذلك من محاسن الحظوظ، ثم هربت من مصر كلها عند أول فرصة.

هل هو الحرص على الحياة؟

وماذا فعلت في الحياة؟

لا شيء.

ما قُدر يكون

الشهيد سيد قطب كان أحد شهود تلك المذبحة. رأى النظام البربري وهـو في حالة شغل.. كان أحد المرضى الذين سحبوهم من المستشفى، ليُذبحوا في المجزرة، فأصدر حُكمه علي الحكم بأنه «جاهلي»، وأنه أشد كفراً، وأجدر بشن الحرب عليه مستشهداً بمعالم من الجاهلية الأولى.

كل الشواهد والشهود يؤكدون أن الرجل الودود المريض أصدر هذا الحكم الشديد على المجتمع، متأثراً بأحداث أول يونيو ١٩٥٧، وأيده تلميذه، وزميله في الزنزانة، وأيضاً في المرض، الأخ الشاب محمد حواش الذي زامله حتى النهاية، فشُنق معه عام ١٩٦٦.

كان المفكر الاسلامي مثل كل المثاليين، يبحث عن الطريق الى تحقيق حكم المدينة الفاضلة، الساعية الى الله بفضله، والبديل الخيّر لمجتمع القتلة واللاأخلاقيين.

وبينما هو في عز أزمته البدنية والنفسية، إذا بزميل سجنه يصحو ذات يوم مستبشرا بحلم رآه، فيقصه على أستاذه الغارق في مرحلة الحيرة والبحث عن اليقين:

- يا سيدي رأيت في منامي عجباً.. رأيت سيدنا يوسف عليه السلام يأمرني قائلا: ابلغ «سيد» أن الحل الذي تبحث عنه موجود في سورة يوسف، الآيات ٣٨ و ٣٩.

يعجب المفكر الحائر من هذا الحلم. هل هو مجرد أضغاث أم رؤيا من وحي الله؟!

وكيف لم يفطن لهذا التشابه العجيب بين وضعه ظلماً في سجن النظام، ووضع يوسف وصاحبيه في سجن العزيز.. هي مصر في الحالين، وهو نظامها الجائر أبداً على مدى كل التواريخ.

ولكن ماذا تقول الآيات؟

[٣٨]: «يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار».. [٣٩] «ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك

الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»..
(صدق الله العظيم).

هكذا إذن أكدها الحق جل جلاله، وأظهرها لعبده في عز أزمته، كلمات محددة واضحة، تلقي ضوءاً يفسر، ويضع كل أمر في مكانه.

إن الحكم إلا لله.

تلك حاكمية مطلقة، لا يشاركه حاكم آخر وأي حكم لغير الله وبغير كلام الله، ليس بشيءٍ، وما أنزل الله به من سلطان..

فهذا الظلم الواقع، وهذا المكان الجهنمي، والحراس السفلة، لا تصح لهم حاكمية، ولا لمن فوقهم، لقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فلم يعودوا مسلمين. لقد استبدلوا عبادة الله بعبادة الفرد. وهم يجهلون كل شيء عن الاسلام والعدل القرآني والحس الانساني، فأصبحوا ولا فرق بينهم وبين الضواري المتروكة سائبة، تولغ في دماء عباد الله. إنهم خطر على البشرية، والنظام الذي منحهم تصاريح القتل بالجملة، أشد منهم خطورة. إنهم كفرة فجرة مسلطون على رقاب عباد الله المؤمنين.

وكان فكراً خطيراً جداً.

منذ نهاية العام ١٩٥٧، كان المفكر الاسلامي سيد قطب يكتب يومياً في فراش مرضه داخل «ليمان طرة» وقد تقمصته روحية الشهيد الذي أيقن أن أيامه على الأرض باتت معدودة، وأن عليه أن ينجز مهمته بسرعة قبل فوات الوقت المحسوب. رأى قضيته الرسولية أن يؤكد شرعية إسقاط النظام الجاهلي الحاكم، ويرسم على أنقاضه معالم المدينة الفاضلة.

كانت الأحوال داخل السجن بالغة الكفر، فأمدته بالمادة الخام اللازمة لكتابة حيثيات الحكم بإدانة النظام الكافر بكلمة الله، المعادي لعباده.

وبدأت مسودات كتابه «معالم على الطريق» تتسرب الى الخارج ليتداولها بقايا الاخوان في المخابيء، ويتخذونها دليل عمل يرشدهم في مرحلة التيه.

كنتُ في تلك الفترة عدت الى الجامعة لألتحق بكلية الآداب بدلاً من كلية الهندسة، وأدرس الصحافة بدلا من العمارة.

الدنيا تغيرت، والاخوان الذين عرفتهم تخرجوا أو دخلوا السجن.

شعرت بالغربة التامة، فزملاء دُفعتي كانوا جميعاً أصغر مني سناً فيما عدا ضابط جيش متقاعداً، والزميل عبد السلام زكي مبارك الذي ترك كلية الطب هارباً للصحافة.

لم أستطع مصاحبة «حضرة الضابط» لأنه ضابط مصرٌّ على أننا «أنفار» عنده. أما عبد السلام فقد أحببته، ولكن العلاقة بيننا تجمدت عندما حاول «بلشفتي» وضمي بظرف الى التنظيم الشيوعي، مع «نبيل» و«خميس» و«رؤوف أسعد» إعتبرتها «عيب» و«قلة قيمة»، ولكني بقيت أحترمه دون الباقين. وأعتقد انه بدوره إحتفظ لي بالمشاعر نفسها. ولكن حدث أن تعرفت على الزميل والصديق اسماعيل داوود. ومن أول يوم كشف لي انه من الاخوان، ومجروح، ولا يرى حلاً لكل مشاكله الشخصية والجامعية، ولا طعم للحياة، ولا هدف لها إلا بعودة الاخوان والعمل من خلالهم، فلو كان الاخوان موجودين لما شعرنا بهذا الفراغ وانعدام الجدوى، ولما خلا الجو للشيوعيين «يبرطعون» فيها وحدهم. قلت له إن الحال من بعضه، وإن كان وضعك أفضل بكثير، فأنت لم تُكسر، كما كُسرت أنا. أنت على إيمانك، أنا لم أعد أؤمن بشيء، وحتى لو كان الاخوان موجودين كما كانوا، لما إنتظمت معهم. ورغم ذلك فإنني أفتقدهم كأنني يتيم ضاع أهله، ورغم الحنبلة وتضييق الأنفاس التي كانوا عباقرة في فرضها، فإنني أراهم وحدهم الفاضلين، ولا أجد عزاء في مصيبتي فيهم، فهم صداقات الصبا، وتفتُح الوعي والاكتشاف، ولكن ما باليد حيلة.

أصبحنا ولا نكاد نفترق. وذات يوم جاءني متهللاً وهمس أذني على جنب: الجماعة رجعوا.

ـ جماعة مين؟

ـ جماعة الاخوان.. جماعتنا..

ـ كيف عرفت؟

ـ قابلت الشيخ يوسف القرضاوي وأبلغني أن التنظيم عاد بقيادات جديدة وبأسلوب مختلف للعمل تحت الأرض، حريصين على تفادي الأخطاء القديمة.. وأن عملية جمع التبرعات لاعالة أسر المعتقلين تتم

تحت أنف الحكومة وهي لا تشعر.
ـ هذا وضع خطر. فالنظام أصبح قويا بلا حدود. وخرج منتصراً في معركة السويس. وأصبح له رصيده في الشارع وفي العالم العربي، وقبضته البوليسية شديدة. فأنت بمواجهة ديكتاتور عسكري، وإذا ضرب فسيترحم الاخوان على حنان حكومة عبد الهادي الذي إغتال الامام البنا علناً في قلب القاهرة. أنت لم تجرب قبضة «الضباط الأحرار». أنا كنت هنا في كلية الهندسة خلال محنة مارس ١٩٥٤، ورأيت كيف أحرقوا الجامعة، واتهمونا، ثم علقوا المشانق للشيوخ الستة بتهمة محاولة إغتيال عبد الناصر وقلب نظام الحكم وتخزين السلاح. أنت يا صديقي يتيم ووحيد أمك، فدعنا نحصل على الورقة ونتخرج، وبعد ذلك نتفرغ لهم. وإذا كنت أنت لا تهتم ومستبيع، فإنني تلميذ جامعي، جرب الفشل، وأصبح يخافه، وعمري الآن ربع قرن ولا توجد أمامي فرصة أخرى إذا أفلتت مني الشهادة الجامعية هذه المرة.
ـ توقعتك أفضل من ذلك.
ـ آسف لأنني خيبت ظنك، ولكنك لا تعلم أنني يتيم في حياة والدي، وانني أجري على أمي وثلاثة إخوة كلهم يتعلمون، ويسكنون ويأكلون ويلبسون، وضياعي يعني موتهم جوعاً، وفي أقل من شهر ستطردهم «أم مجدي» من الغرفة الزريبة التي تأويهم على السطح.. إن هذا الوضع يشنقني شنقاً، وأنا وحدي القادر على تقييمه، إنني أعطيت لنفسي الرخصة التي تسقط عني فريضة الجهاد والخروج على الحاكم، ولا تنس ان النبي أعفى الرجل الذي يعول أمه من الصلاة في المسجد.
ـ وأنت تعلم أنه لا حاجة لمسلم إذا إحتاج الاسلام.. يعني أننا وما نملك مصادرون إذا إقتضت الضرورة ذلك.. والاسلام في محنة.. ووفق منطقك، فإن الأمة بكاملها تستطيع اسقاط التكاليف.
في ذلك اليوم ترك كل منا صاحبه وفي نفسه غصة. وكانت غصتي أشد مرارة، ولم نعد الى فتح الموضوع مرة أخرى. وفي الواقع كنت مشتبكاً في معركة لقمة العيش، غارقاً لشوشتي في تأمينها، بعد أن رفع الوالد عن نفسه التكليف ـ هو أيضاً ـ فاشتغلت مدرس رياضيات في مدرسة «اوده

باشـا»، ثم غسـالاً للصحون بفندق «هيلتون النيل»، ورساماً رخيصاً للأطباق الفخارية التي تباع للسياح، وتحمل مناظر مصرية، وصحفياً من الدرجة العاشرة في كل الصحف، مقدما كل اصناف الخدمات المتواضعة من ترجمة ورسم ـ كاريكاتير ـ واخراج صفحات وكل شيء يجلب الراحة لقلوب أصحاب الصحف، ويجلب لي تعب القلب ووجع العيون.

أيضـاً تغيرت نظرتي الى النظام وصاحبه، فقد حدد الملكية، ووزع الأراضي على الفـلاحـين الغلابة جداً ـ يعني على كل أقاربي ـ وألغى الألقاب، وخاض معركة منتصرة ضد انجلترا وفرنسا واسرائيل، فاستعاد لنا قناة السويس، وأسقط إتفاقية الجلاء التي وقعها سابقاً مع الانجليز، وربطتنا في دفاع مشترك مع تركيا.

أصبح استقلال مصر كاملا غير مشروط.

هذه الأهداف التي شدتنا من نياط القلب قبل الثورة وفي بدايتها، تحققت وبسرعـة، فلمـاذا نخوض معركة عقيمة ضد الذين إحتضنوا الأماني ولم يفرطوا في الأهداف؟

لم نكن ندري بمـا يدور داخـل زنـازين «ليمـان طرة» وغـيره من المعتقلات، ولم تصلنا مسودات كتاب «معالم على الطريق». كنا نسير في طريق آخر، لا دور لنا فيه، ولكنه داعب طموحاتنا، فها هي مصر تقوم بدورها القيادي في محيطنا العربي، فتسقط حلف بغداد، وتشد الشام نحـوها، ثم هناك القضية الأكثر توهجاً، وأقصد بها دعم الثورة التي شبت في الجـزائـر، والتي خطفت الأضـواء من كل القضايا الاخرى، وبحيث بدت كل الأمـور المحليـة تافهـة قيـاساً لها، بما في ذلك إبادة «الاخوان» أو عودتهم.

لقد فتح أحمد سعيد جعورته كل ليلة منادياً على ثوار الأوراس، فحرك الحماسة للخارج، ودفن مأساة الداخل وضحاياها، حتى كدنا ننساهم ونحن نتابع الفاصل الجزائري في سيمفونية إنفردت فيها الطبول الكبيرة فألغت جميع الأنغام الأخرى.

استولى العسكر على الحكم، وصادروا العمل السياسي، لا يقربه أحد إلا «وراح في ستـين ألف داهيـة»، وانحصرت صلة الشـورة الجزائرية

بالشعب المصري في اثنين من ضباط المخابرات، وسيطر أحمد سعيد على كل مخارج الاعلام. ورغم ذلك، بقيت للثورة الجزائرية قدسيتها ووهجها في قلوبنا نحن الشباب الممنوع من التعبير والمشاركة، فلم نتوقف أبداً عن متابعة ما يدور، خاصة وأن وسائل الاعلام الموجه ركزت «بالأمر» على موضوع الجزائر.

اكتشفت فرنسا بسرعة الصلة النامية بين مصر والثوار في الأوراس، وأن السلاح ينقل من مصر عبر ليبيا وتونس لينفذ من الحدود الطويلة التي يستحيل قفلها، وفي البحر تم اغراق زورقين مصريين محملين بالامدادات قبل وصولهما إلى أيدي الثوار، فتصاعد التوتر بين القاهرة وباريس، وأخذ شكل حملات وشتائم مقذعة، تبادلها الكبار في البلدين، وصلت لذروتها عام ١٩٥٦ عندما اعتقلت البحرية الفرنسية السفينة المصرية «آتوس» في المياه الجزائرية محملة بالسلاح، فصادرتها وحاكمت طاقمها، وأعادت باريس تكرار مقولة «جاك سوستيل» الحاكم العسكري للجزائر:

«القاهرة هي رأس الاخطبوط الذي يمد أذرعته باتجاه شمالي افريقيا الفرنسي».

انشغلت الأطراف كافة بالحرب الخفية على مختلف المستويات، بما في ذلك الصعيد الديبلوماسي، فجاء كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا الى القاهرة ليحلها مع عبد الناصر بعد أن عجز «سوستيل» عن حلها بالمدافع، وكنا في مطلع العام ١٩٥٦، وتم الاتفاق على لقاء بين ممثلي «الكي دورسيه» ومقاتلي الأوراس، على ضفاف النيل.

والتقى الطرفان بالفعل، ووصلا بسرعة الى الطريق المسدود، واستأذن الفرنسيون في السفر الى عاصمتهم، على أن يعودوا فور استجلاء بعض النقاط، وذهبوا وحتى يومنا هذا لم يعودوا بعد.

الوفد الجزائري ملَّ الانتظار طبعاً، فغادر القاهرة بالطائرة كي يمارس أشغاله الاخرى، ويبدو ان الجماعة الفرنسيين كانوا صاحيين لهم، فما أن ركبوا «الايرفرانس» من المغرب حتى نقلتهم الى حيث تسلمتهم المخابرات الفرنسية ليقبض عليهم وينقلوا الى جزر «الانتيل» حيث

معتقل «ثاتودوني».

وأصبحت قضية الزعماء المخطوفين الخمسة إحدى معلقات الثورة، ووصمة عار لفرنسا الغادرة.

كنا يومها في ٢٣ اكتوبر ١٩٥٦ وحرب السويس زحفت علينا، وأجواء القاهرة ملبدة بسحب الأزمة حول القناة ومن أجلها.

لم يكن هنـاك من يعلم بأمـر المـؤامـرة الثلاثية التي جمعت لندن وباريس وتل ابيب في حلف واحد ضد القاهرة، تم توقيعه سراً في ضاحية «سيفر».

ورغم توترنا البالغ في تلك الحقبة المرهقة التي أصبح فيها مصيرنا كبلد وأفراد معلقا في يد القدر المجهول، فإننا لم ننس أبداً في عز دين زنقتنـا، قضية الزعماء المخطوفين الخمسة، «أحمد بن بيلا»، «محمد خيضر»، حسين آية أحمد»، «رابح بيطاط»، و«محمد بوضياف».

أيضـاً فهمنـا بشكل غامض فحوى تهديد وزير الحربية الفرنسي بوزارة «جي موليه» الذي قال فيه: «اننا نريد أن نكسب حربنا في الجزائر عن طريق القاهرة».

بعد أسبوع تركنا غصباً عنا مدرجات قسم الصحافة وخلافنا المؤذي مع النظام، لندافع عن البلد، وفي المكان الذي نعرفه، أو الذي يخصنا منه ـ كما كنا نقول على سبيل التريقة ـ وعندما بدأ العدوان ورأينا طائرات «المستير» وقـاذفـات «الميراج» تقصف مطارات «إنشاص» و«بلبيس»، وتنقض على المدرعات المصرية فيما بعد، زدنا إقتناعاً بالتحليل الذي طالما أكده لنا الشيخ أحمد نار، والذي يرى ان المعركة ضد الاسلام واحدة من الأطلسي وحتى سور الصين، وانها المعركة الوحيدة التي تجمع بين خصوم الاسلام مهما إختلفت ألوانهم وتضاربت نظمهم، فها هي فرنسا التي طالمـا تحـاربت مع بريطانيا من أجل مصر، فإذا بها تتحد معها لضربهـا، وها هي الصهيونية العالمية والصليبية الغربية تتحالفان لأول مرة في التاريخ لضرب الانسان الجزائري والانتقام منه على أرض سيناء والقناة، مولغين في دماء أبناء مصر.

كنا نرى ما يدور أمامنا بمنظور آخر مختلف عن منظور النظام.. نراه

معركة متصلة منذ الصليبية الأولى، ممتدة بعرض وطول دار الاسلام. سلاحنا فيها الفرد المعد بعمق لقبول الموت، ويراها النظام العسكري مسألة كرامة وشغلة مخابرات. ولذلك ما أن توقف القتال حتى عادت جدران عدم الثقة أكثر ارتفاعاً، وهرول رجال المباحث يجمعون السلاح الذي وزعه علينا الجيش بالأمس، بل ويحققون معنا كأننا سرقناه أو استعملناه ضد صاحبة الجلالة السلطة رغم ان البنادق «اللي أنفيلد» التي سلموها لنا كانت بلا إبر إطلاق، وبلا طلقات، ولا تصلح لمواجهة قوات ثلاث دول تتسلح من مخازن «الناتو».

الباقي معروف، إنكفأنا داخل مصر، وبقيت الجزائر وحربها شغلة النظام وحده.

ورغم ذلك بقيت عيوننا على ما يدور فيها، وقلوبنا تخفق إشفاقاً لما يقع لناسها، وحماساً لما يقومون به.. لم نفعل شيئاً أكثر من الاستماع الى «صوت العرب».. و[البي. بي. سي]..



كان من الأريح لي وللكثيرين من جيلي أن يتصالحوا مع النظام من طرف واحد، على أساس انه تبنى كل الشعارات الاجتماعية العادلة، ونفذها على طريقته، وهو أيضاً نجح في تأميم قناة السويس، وتحقيق حلم إجلاء الانجليز عن مصر.. وإشتبك في معارك مدوية ضد حلف بغداد، وضد الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا، ودعم الثورة في الجزائر، وحقق الوحدة مع سوريا. أقنعنا أنفسنا، لوهلة، أن أمجاد عبد الناصر هي أمجادنا، لأن كل الأهداف التي حققها كانت أهدافنا.. والأهم من ذلك انه لم يدخلنا السجون ـ مجرد محاسن المصادفات ـ وسمح لنا بأن نتعلم ونعمل في مؤسساته، وفق شروطه.

وعندما تركت مصر عام ١٩٦٢ لأعمل في الكويت، فوجئت بأنني أعمل في وسط خلية ناصرية، من الاخوة اللبنانيين، يضعون عبد الناصر بعد الله مباشرة، وعاملوني على أنني مبعوث وممثل عبد الناصر الشخصي..

ألست مصريا ومن مدرسة «روز اليوسف» التقدمية؟ وارتاعوا عندما تكشفت لهم عن شخص متصالح فقط مع عبد الناصر، ولكن في النفس شيء من المرارة لم أتجاوزه.

كانت للرجل صورة خارجية هائلة، فهو يمثل الكمال نفسه، خاصة بعد الانفصال السوري الذي اعتبره العروبيون «طعنة لئيمة في ظهر البطل النبيل».

وأذكر ذات حوار دار بيني وبين طلال سلمان وناجي علوش حول موقفي البارد.

قال طلال:

ـ انكم في مصر لا تقدرون قيمة، «أبو خالد»، ولعل الاخوة في الشام كانوا على حق، عندما قالوا، نريد وحدة مع ناصر بدون المصريين، وليته ولد عندنا في جنوب لبنان.

قال ناجي، العقلاني:

ـ وهل نسيت انه لولا مصر ما كان عبد الناصر؟

رد طلال:

ـ انه زعيم سابق لزمانه، ومتقدم بمراحل عن جماهيره.

قلت مغيظاً:

ـ ليس معقولا ان يكون الرجل عظمة على عظمة ـ وإحنا مش واخدين بالنا ـ إنكم بعيدون جداً عن واقع مصر. إن الحرارة في داخل المستوقد غير الدفء اللذيذ الذي يشع خارجه. إن موقفنا المحايد من النظام ليس مجرد عدم شهامة، بل هو موقف فرضه علينا النظام بالقوة. إنه نظام لا يثق إلا بالجيش، وهو يحكم به. وهو أسلوب أراحنا من التفكير والحزق والتعرض للتهلكة، فقنعنا بوضعنا على الرف.. ولولا ذلك لما كنت معكم أعمل مع «أبو يوسف» الشعوبي الاقليمي في صحيفته «الرأي العام».. والقومي الناصري، في مجلته «دنيا العروبة». انني كصحفي قضيتي الحقيقية في مصر، ودوري الطبيعي هناك، ولكن جميع الأدوار ألغيت بجرة قلم.

اذا كان هذا الصلح السلبي موقفاً مصلحياً بحتاً، و«تقية» كريهة

فرضهـا الرعب على لقمة العيش، فإن موقف الضحـايا المضروبين في معتقلات النظام الذين يتعرضون للابادة المنظمة، وبتكتم شديد للغاية، كان مختلفاً. الغريب أن المعلومات عن مذبحة «طره» والتنظيم الجديد للاخوان، كانت متاحة ومنتشرة في الكويت، ومحجوبة لا يسمع عنها أحد في القاهرة! وفي «دار الرأي العام» قرأت المسودات المهربة لكتاب «معالم على الطريق».. ومن موقف المحايد الذي نفض يده من كل شيء، واكتفى بالجري وراء الدنانير.. شعرت بأن الدعوة الاسلامية مقدمة على مرحلة خطرة في الفكر والممارسة، وان الجو العنيف الذي عصف بالكاتب داخل الزنازين، وما عاناه صحياً ونفسياً، تركز حصرماً مراً، وشديد الوقع في الكتـاب. كان من السهل رصد تأثير هذا الفكر على الجيل الجديد من شباب الدعوة، المتلهف تلقائياً على فكرة الانتقام من النظام للحملة الظالمة التي دمرت التنظيم وسوَّته بالأرض عام ١٩٥٤، فصاعداً.

لقد بدأ التجمع الجديد مبكراً في العام ١٩٥٦، بهدف جمع التبرعات لأسر الشهـداء والمعتقلين، وهي مهمـة قام بها أساساً تنظيم الأخوات المسلمات بقيادة «زينب الغزالي»، وذلك حتى لا تثور شكوك النظام الذي انفرد بالساحة واقتلع جميع القوى السياسية من أقصى اليسار لأقصى اليمين. والواقع ان التنظيم النسائي قام بدور غاية في الخطورة الى جانب هذا الدور الانساني، فقد ربط الاخوان الذين أفلتوا من قبضة «بيريا محيي الدين» حول هدف خيري أولاً، سرعان ما تطور سرياً الى تنظيم جديد له جاذبيته في الأوساط الشابة التي تعاني من الفراغ السياسي، وهـو فراغ خلقه التنظيم الواحد الذي لم يكن في أحسن حالاته سوى شعبة تابعة لوزير الداخلية تم اختيارها من خلال المباحث.

التنظيم الاخواني الجديد لم يقنع بالأدبيات الاخوانية السابقة، بل وجـد في كتـاب سيد قطب العنيف «معالم على الطريق» التعبير الحاد لموقفهم من النظام الذى أصبح في المنظور «القطبي» ليس إلا «الجاهلية الجـديـدة» والتي هي أشـد كفـراً وفُجراً من «الجاهلية الأولى»، ولذا يتوجب على المؤمنين ازالتها أولا.. ثم اقامة المجتمع الاسلامي ـ اليوتوبيا ـ على أنقاضـها.

الأب الروحي للجيل، الاخواني الجديد، الذي يكتب في الزنزانة بسجن القناطر ـ نقلوه هناك بعد مذبحة طره ـ كان ممكناً ان يظل حبيساً مع فكره ليُدفن معه، لولا تنظيم الأخت زينب الغزالي التي زارت الشهيد سيد قطب بصحبة شقيقتيه في السجن عدة مرات، وعرفت بالمؤلف الذي يعكف عليه، فنظمت عملية تهريب صفحاته، وتوزيعها على الاخوان الجدد، فأشعل في القلوب الفتية نار النقمة والاندفاع لمجابهة جديدة مع النظام الذي لم يتذوقوا طعم بطشه. أما الجيل المضروب فقد استشعر الخطر، وحذر من تكرار الكوارث.

وحدث أن سافرت الأخت زينب الغزالي لقضاء فريضة الحج في الديار المقدسة، حيث التقت في مكة مع الأخ عبد الفتاح اسماعيل ذلك «الدينامو» الذي لا يهدأ، والذي رتب الهروب الكبير للاخوان المصريين واستقرارهم في المملكة وفي مختلف امارات الخليج، حتى لقد اشتهر بأنه «الرجل الذي يصلي فروضه الخمسة، كل فرض في بلد».

السطحيون يفسرون العلاقة الحميمية بين الاخوان المسلمين والسعودية التي فتحت لهم أحضانها، بأنها حركة «براجماتية» من «المملكة» قصد بها ضرب عبد الناصر بالاخوان المسلمين، يتجاهلون الصلة العقائدية بين «الاخوان» السعوديين ـ جنود التوحيد ـ الذين منحوا «الاخوان المسلمين» اسمهم ـ الاخوان ـ وشعارهم ـ السيفان المتقاطعان ـ وتنظيمهم الحركي العسكري. وهي صلة سبقت الثورة وظهور عبد الناصر بعشرات السنين، واللقاءات بين الشهيد حسن البنا والملك عبد العزيز بن سعود تظهر عمق الارتباط بين قيادة التيارين، حيث الحركة الاسلامية فروع كثيرة تصب في بحر واحد.. وهذا يوضح لماذا طلب «المرشد الشهيد» من حكومة ابراهيم عبد الهادي السماح له بالسفر الى السعودية، عندما شعر أن النظام قرر اغتياله.

المهم كانت مكة مكان الميلاد الثاني للحركة الاسلامية في مصر، وذلك لحكمة لا يعلمها إلا الله، قضت أن يعود الاسلام من حيث بدأ.

* * *

فيمــا عدا المقــابلة بين الزميــل اسمــاعيــل داوود والأخ يوسف القرضاوي، لم أسمع، ولم أشعر بوجود تنظيم للاخوان في الجامعة من ١٩٥٦ الى ١٩٦١.. عندما تخرجت دفعتنا من قسم الصحافة.

فراغ لم يملأه تنظيم الحكومة المكشوف والمحتقر، لأنه مكون أساساً من الطلبة المخبرين. أما الرفاق الماركسيون فكل اثنين منهم شكلا حزباً لـ «البــروليتــاريا»، واختلفا على منصب القيادة! ولما استحال التفاهم بينهما، قام كل منهما بإبلاغ مباحث أمن الدولة ضد رفيقه المنشق عليه.

أين كان الاخوان؟

الواقــع أنهم كانــوا في قمة الازمة والنشاط في ذات الوقت. التنظيم الخــارجي بالمملكــة العربية السعودية ودول الخليج يتبلور ويتضاعف عطاؤه للأخوة المعتقلين وأسرهم، وتزداد الحماسة بعد ان قامت وتقوّت الصلة بالخــلايا الجديدة داخل مصر عقب اللقاء الذي تم بين الاخت زينب الغــزالي والأخ عبد الفتاح اسماعيل، وبعدها تحول بيت رئيسة التنــظيم النسائي الى ملتقى سري لقادة الخلايا الجديدة التي تكونت قيادتها من أربعة أعضاء، واختارت العمل خارج القاهرة التي سلطت عليهــا عيــون أصحــاب النظام... وأيضاً الجيزة والشرقية أكبر معاقل الاخوان التقليدية.. وبالتالي لم يبد للاخوان الجدد أي ظهور ملموس في جامعات القاهرة وعين شمس، بينما تركز التنظيم في المحافظات البعيدة والتي كان التواجد الاخواني فيها ضعيفاً عادة كالبحيرة وأسيوط والاسكندرية.

كان الهدف الأول هو الاستفادة من تجارب محنة ١٩٥٤ والاستعداد للانتقــام لهــا، فغلبــوا السريــة ومتــطلبات الأمن على أي اعتبار آخر، وأصبحت الحركة باطنية ذات موقف عدائي من العالم الخارجي الذي تعيش فيــه وتستعد لتغييره. ولم يسعفها التنظير السابق، وإذا بكتاب سيد قطب يسد هذا النقص، فقدم النظرية وحدد معالم الطريق.

- أين كانت القيادة السابقة للدعوة؟

الذين نجــوا من السجــون وحمامات الدم، هربوا الى خارج مصر. بعضهم تاه، وبعضهم ضلّ وفســد، وبعضهم دخل التنظيم الذي بدأ

يتشكل في المنافي البعيدة، ويحلم بيوم تنهض فيه دولة العدل على أيدي رجال آخرين.

المرشد حسن الهضيبي، خليفة الشهيد حسن البنا، استبقاه النظام خارج السجن لظروف صحية، ولأنه فعلياً، لا يشكل أي خطر، لا بوجوده ولا بتفكيره الوظيفي، وعقليته القانونية التي تجرم أي عمل خارج عن رضا الدولة والنظام ـ أي نظام ومهما كان رأيه فيه ـ وهذا يفسر لنا قوله معلقــاً على المانفيستو الجديد «معالم على الطريق» عندما وصله: «لقد خابت كل آمالي التي علقتها على الأخ سيد قطب كرجل قادر على قيادة الدعوة من بعدي، والرجل المهيمن على فكر الدعوة في المستقبل».

كان المرشد المريض رهن الاقامة الجبرية، يمد رؤياه نحو الصدام المحتوم.

الذي حدث خلال هذه الفترة، تختلف فيه الآراء، فقد أطلق النظام سراح الشهيد سيد قطب عام ١٩٦٥ عندما توسطله الرئيس عبد السلام عارف لدى صديقه الحميم عبد الناصر.

البعض يقول إن «عارف»، صاحب الاتجاه الاسلامي المعروف هو الذي أحرج الدولة، فاستجابت لرجائه، والبعض يؤكد أن أخبار التنظيم الاخواني وصلت الى الأجهزة، فقررت الافراج عن «المفكر» كي تسرع بالأحداث الى نهايتها الدامية.

الاخــوان بشكـل عام، انقسموا حول الاستراتيجية التي يتبعونها خلال المرحلة القلقة.

القيــادة الربــاعيــة للتنظيم الجديد، اجتمعت بالشهيد سيد قطب وأبلغته بأن هناك استعدادات جارية لقلب النظام بالقوة... ولم نعرف رده.

صحيح أن الكتاب الجديد «معالم على الطريق» لم ينص صراحة على استعمال العنف وصولا الى الهدف النهائي، ولكنه أيضاً قال ان التغيير لا يتحقق بالكـلام، ولكنه يفرض على المؤمنين ان يعملوا ـ وقل اعملوا فســيرى الله عملكم ورســوله والمــؤمنــون ـ ولكن البعض، مثل زينب الغزالي، رأى ان العمل يجب أن ينحصر في توعية الناس اسلامياً، وخلال

ثلاثة عشر عاماً أو خمسة عشرة ينضم في أثنائها أكثر من ٧٥٪ من مجموع الشعب للحركة، فيمكن ساعتها الاستيلاء على الحكم بلا عنف.

منير الدلة من الحرس القديم، ذهب لمقابلة سيد قطب، وحذره من مغبة تبني شباب الاخوان الذين لم يتمرسوا في التنظيم وتغلب عليهم الحماسة، لفكر يدفعهم الى صدام مروع مع الدولة الباطشة.. فالنظام لفق مؤامرات ١٩٥٤ كي يغرق البلد بالدم، فكيف الحال إذا عثر هناك على خيوط انقلاب حقيقي؟!

كانت الأمور تجري أسرع من الجميع، فلم تُجدِ «الفرامل» في ايقافها، وليس هناك رصد دقيق لمجريات الأحداث خلال سنتي ١٩٦٥ و ١٩٦٦.

في الكويت كنا أكثر قدرة على الرؤية والتحليل، فعرفنا أن النظام بدأ يشعر بالورطة الكبيرة التي وقع بها في «حرب اليمن»، والتي دمرت الجيش والاقتصاد معاً.. فالمؤسسة العسكرية فشلت في الحسم، ونجحت في التهريب.. والشعب يشعر بالضائقة الاقتصادية والفراغ السياسي.. وظهور طبقة جديدة من الفاسدين المفسدين الذين أثروا من محنة الحرب وحماهم النظام ـ جيش المشير على وجه التحديد ـ فزاد التململ في أوساط الشعب. وكان لا بد من ايجاد كبش فداء، يلهي الجماهير عن فشل النظام في مغامراته بالخارج، بخلق معركة داخلية لها جعجعة مدوية، وليس هناك أصلح من «مؤامرة» يقوم بها «الاخوان الإرهابيون» تؤدي هذا الدور المطلوب.. خاصة إذا قيل إن هؤلاء المتعصبين المجانين سيغتالون أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وسعاد حسني والقائد المعلم والمشير الفلتة.. وبذلك يطعنون الشعب الغنائي في أعز ما يملك، ويحرمون الجيش الذي يقاتل من قيادته الملهمة.. ولهذا، أوكلت المهمة للجيش كي ينفذها «جيشي».

قامت المباحث العسكرية بتصفية الاخوان هذه المرة، ولم يُسمح لغيرها بأن يشارك في المجد، رغم أن القاعدة في مثل هذه الحالة أن تقوم الأجهزة البوليسية بكامل المهمة، فهي من صميم اختصاصها.

شمس بدران ومكتب المشير والبوليس الحربي، وجدوا ان الانتصار على الشعب أسهل وأسلم عاقبة من الانتصار في جبهات القتال.

خلال الستينات في الكويت، وبالذات نصفها الأول، تعرفت على تنظيم إخـواني، أقـرب فكـريـاً لحركة الموحدين ـ الوهابية ـ منه لفكر حركة «الاخوان» في مصر، وبما أن النشاط الحزبي غير مسموح به في الكويت، بينما يسمح الدستور بقيام الجمعيات والنوادي، فقد مارس «الاخوان» نشاطهم تحت اسم «جمعية الاصلاح الاجتماعي»، التي جعلت هدفها تطبيق الشريعـة، بواسـطة الضغـط على النـظام من خلال مؤسساته البرلمانية، وتجميع رأي عام اسلامي في الشارع والجامع والمدرسة.

بداية تعرفت على قطب التجمع علي عبد الوهاب، وهو من كبار التجار في منطقة الخليج.. نموذج يجمع بين الحذاقة والتقوى. وقد ذهلت لقدراته التنظيمية والادارية الفذة، فمكتبه الذي يقع في قلب الحي التجاري، لا يخلو من ثلاثة أو أربعة من «الاخوان»، من مختلف الجنسيات يبحثون في أمور الدعوة والعقيدة، ليس في الكويت فقط، بل وفي باكستان وافريقيا ومـاليـزيـا وأفغـانستـان... وخـلال ذلك كله كان الرجل يصرف امور امبراطوريته التجارية الواسعة، ويسخرها، بموظفيها، لخدمة العقيدة. هذا الجمع بين الدين والدنيا، أثار دهشتي، واستنكار غيري من خصومه.

وعندما زرته للحصول على اعلانات «صابون برسيل» لمجلة نسائية كنت أصدرها، وبرفقتي الأخ خالد الأمين الذي سحبني لتلك المقابلة.. وجدته يفاجئني بقوله:

ـ ما شاء الله يكـون. سمعت عنك والآن أريد ان أسمع منك. لقد حدثني الأخ خالد كثيراً عنك يا أخ محمد، والواقع ان مجلتكم جميلة، ولا يستحي المسلم ان يدخلها بيته، فتقرأها ابنته وزوجته..

ـ هذا من فضل الله، وما حرصنا عليه منذ البداية، وأنت لا تعرف الأخت غنيمة المرزوق رئيسة التحرير، فهي من فضليات النساء المسلمات.

ـ نعـم.. نعم.. رحم الله والدهـا. ولكن يا أخي محمـد، لي بعض ملاحظات، أرجو أن يتسع صدرك لأخيك وتسمعها.

ـ لعله خير..

ـ خير إن شاء الله، نحن في الكويت بلد مسلم، ومحافظ، والمجتمع هنا ليس كمجتمع القاهرة، وأرجو ان تراعوا ذلك في كل كلمة تنشرونها، وكل صورة تختارونها. لتكن مجلتكم للأسرة المسلمة التي تربي البنت المسلمة والابن المسلم. لا داعي للاسراف في الحديث عن الموضات المتبرجة، ونشر القضايا الخارجة، توسعوا في الابواب الاسلامية التي تخص المرأة وزوجها وتعالج العلاقات الاسرية. نحن لا نريد ان ننقل الغرب الى داخل غرف نومنا، بل نحن بحاجة لغرس الاسلام في بيوتنا.

واستمر الحديث يتنقل بينه وبين الجالسين حوله، ولا يقطعه سوى دخول السكرتير برسالة، أو المحاسب يستفسر عن رقم، أو الهاتف يحمل خبراً عن بضاعة وصلت أو أخرى على الطريق... وأنا صامت أتفرج وأتلقى درساً في اخلاقيات مهنتي. لم يكن الحديث متسماً بالتعالي وفرض الرأي والاتهام.. بل موضوع منطقي، ولفت نظر لجانب هام لم أعطه أي التفات... ان يكون العمل الصحفي اخلاقياً، وان يكون لمجلة نسائية دور مستند الى فلسفة.. يا الله.. من زمان سحيق وأنا بعيد عن تلك الأطروحات الجادة، حيث كل حياة المسلم وتصرفاته مكرسة لهدف أسمى، يضفي عليها معنى ساميا، ويعطيها جدوى... وحيث لا مكان للعبثية بل كل شيء قدرناه تقديرا.

حصلت على الاعلانات، ونسيت ما قلته وما قيل لي، وأغرقني خصوم الرجل ـ وما أكثرهم ـ بهجائيات تعكر مياه الخليج، وزرت مقر جمعية الاصلاح، ونمت صداقة ودودة بيني وبين الأخ عبد الرحمن الولايتي رئيس تحرير مجلة «المنار» التي تصدر عن «جمعية الاصلاح»..

والتقيت السيد يوسف هاشم الرفاعي الذي ينتمي للجماعة، ووصل الى كرسي الوزارة بعدها، وتعرفت على عدد من الاخوان المصريين هناك. وكانوا بلا استثناء معجبين بتكتيكات «جمعية الاصلاح» في التأثير على النظام من داخل النظام، وليس بالصدام معه، وما ينجم عن ذلك من مذابح يدفع ثمنها الاسلاميون وحدهم، فها هم «الاخوان» بالكويت لهم نوابهم في البرلمان يحركونه بمعارضة حية ملتزمة بالهدف، ولهم وزير نشط وغاية في الذكاء والفاعلية.. فالوصول الى الله له أكثر من صورة،

فلماذا لم يستفد الاخوان في مصر من تجربة أشقائهم في الكويت؟

الأمور في مصر لم تكن تسمح بتحقيق الحلم الكويتي الجميل، فالنظام مختلف، والاخوان في مصر، واجهوا الثورة عام ١٩٥٤، دون ان يحددوا هويتها، وموقفهم منها بشكل قاطع. لم تكن هناك نظرية يمكن إصدار الأحكام على هداها.. فبينما كان حسن الباقوري وزيراً، كان إخوانه في التنظيم يعلقون في حبال المشانق. الآن، في الستينات، اكتملت للتنظيم نظرية شديدة الحسم، صنفت المجتمع القائم، كجاهلية حديثة، يتوجب على كل مؤمن إزالتها، ليقيم دولة الاسلام على أنقاضها، وأي تهادنٍ مع النظام غير وارد إطلاقاً.

النظام نفسه مكلف بذبح خصومه بالداخل، كي يغطي فشله في الخارج، ويعيد هيبته ويجمع الجماهير خلفه بالنفخ في بوق «المؤامرة الاخوانية» ودق طبولها.

الاخوان المصريون في الكويت، لم يكن لهم تجمع ظاهر أو نشاط ملموس، حافظوا على تواجد خافت تماماً، وإن كانت عملية جمع التبرعات الشهرية لأسر المعتقلين ظلت منضبطة لآخر لحظة.. كما ان أخبار التنظيم في مصر لم تنقطع أبداً بفضل «الاخوان العرب»، وبالذات «حزب التحرير الاسلامي» ونشراته ودعاته، والذي كان مهتماً بالأوضاع في مصر قبل أي بلد آخر. والدليل على ذلك ان مسودات كتاب «معالم على الطريق» الذي أصبح دستور المرحلة، وصل الى يدي عن طريق أخ من «حزب التحرير» قبل ان يعلم به أحد من «الاخوان المصريين» الذين أعرفهم.

عندما تواترت المعلومات من داخل مصر وخارجها عن قيام تنظيم جديد للاخوان يقوده فكر سيد قطب، تكاثرت التكهنات والتوقعات، وكلها متشائمة للغاية، فليس معقولا في ظل نظام بوليسي حتى النخاع، أن يجهل ما يدور داخل البلد من تحركات تتحدث عنها الديوانيات في الكويت.

وعندما زار عبد الناصر الاتحاد السوفييتي، شنت الصحف الاسلامية والنشرات السرية عليه أعنف هجوم قامت به في تاريخها،

واتهمته بالعمالة لقطبي الكفر في العالم.. الامريكان والروس معاً، وأنه مكلف بالقضاء على الاسلام لصالح الشيطان الشيوعي الذي تسلل الى المنطقة على يديه.

وتوقعنا شراً.. ولم يتأخر طويلا.

❊ ❊ ❊

رغم أن الفكر الوارد في كتاب «معالم على الطريق» كان تحريضاً متفجراً ضد النظام، بل والمجتمع بأسره، وان تنظيماً جديداً للاخوان بدأ يتجمع حول هذا الفكر، إلا أن الجماعة المتحمسة لم تكن تملك أية قوة لقلب النظام أو تحريكه.. كانت فقط فريسة سهلة له ينقض عليها ويمزقها في معركة بطولية من طرف واحد، يكسبها النظام على طول الخط، مختلقاً زوبعة إلهاء تغطي فضائح قياداته في اليمن.

المشير ورجاله الذين صنعوا كارثة الانفصال السوري، كانوا غارقين حتى ذقونهم في المسلخ اليمني، لذا بدوا متلهفين على عدو يحرزون عليه أي انتصار، فرأوا في ضرب الاخوان هدية جاءتهم في الوقت المناسب، فما أشد وقع الكلام عن مؤامرة تحاك ضد مصر داخل مصر، وجيشها يناضل في اليمن السعيد.

فأية خيانة.. وأية طعنة تقوم بها الرجعية الدينية الارهابية ضد جيش المناضلات برلنتي عبد الحميد، ومها صبري وسعاد حسني؟

الجيش الذي حولت قياداته معاناة الشعب ونزيف الاقتصاد ـ مليونا دولار يومياً في معركة اليمن ـ الى تجارة وتهريب ونهب على شكل بدلات.

لهذا لم يكن غريباً أن يتولى مكتب المشير بقيادة شمس بدران ومباحثه العسكرية مهمة تدمير الأعداء الداخليين، وغزو «كرداسة» وسار السيناريو كالتالي:

ـ في ٢٩ يوليو ١٩٦٥ جرى القبض على محمد قطب، شقيق الشهيد سيد قطب، وأقرب حواريه لقلبه. وكان التنظيم على درجة من انعدام

الفاعلية والخبرة الى الحد الذي عجز فيه عن ادراك ما سيتبع تلك الخطوة من عواقب على ضوء التجارب السابقة.. فلم يبادر بالرد، أو بالاختفاء تحت الأرض لتقليل حجم الخسائر على الأقل. كان تنظيماً محشواً بالنظرية، صفراً في القدرة الحركية.

تنظيم يمثل أشد أطوار الاخوان سلامة نية وحماسة، وأضعف بكثير من الطور السابق، وأقل خبرة قياساً بالنسبة الى أعباء المرحلة التالية.. ويصح هنا القول بأنهم اغتالوه في «المرحلة الجنينية».

ـ في ٩ أغسطس قبضوا على الشهيد سيد قطب ومعه مجموعة من قيادات الجماعة.

ـ في ٢١ أغسطس اعتقلوا عبد الفتاح اسماعيل وعلي عشماوي.. الأخير هو الذي تكلم بالتفصيل الشديد بعد ان وقع في فخ السلطة. وبناء على صراحته تم القبض على جميع أفراد التنظيم، وبمنتهى الفاعلية والحماس لقوات المباحث العسكرية والبوليس الحربي، وبكل الخبرة المكتسبة في مجال القمع.

ـ في ٢٢ أغسطس ظهرت بوضوح الكفاءة التي اكتسبتها قيادة الجيش في الساحة اليمنية، وأساليب الامام في حرب القبائل عندما حاصرت قوات العبقري شمس بدران قرية «كرداسة».. وهي قرية اشتهرت بأنها معقل للاخوان، ومركز تدريب عسكري لهم منذ اشتراكهم في معركة فلسطين عام ١٩٤٨.. ومن ميزاتها أنها لا تبعد كثيراً عن القاهرة، بالقرب من منطقة الهرم، وعلى رأس عدة دروب تخترق الصحراء الغربية، فطالما اخترقتها القوافل التجارية والمهربون والفارون من العدالة واللاجئون السياسيون الى ليبيا ومنها.

«كرداسة» التي عانت طويلا من المنازعات العائلية بين أكبر أسرتين فيها للاستئثار بمنصب العمودية، سالت فيها بحار من الدماء، واشتعلت فيها نيران الثأر، ما كانت تنطفىء إلا لتتجدد.. حتى جاء المرشد حسن البنا ليصلح بين «أوسها» و«خزرجها»، ولتصبح القرية من يومها، وبكل أهلها مركزاً منيعاً للدعوة والدُعاة.

الذي حدث في موقعة «كرداسة» العسكرية، كما رواه المعاصرون،

كالتالي:

ـ توجهت قوات المشـير المنصـورة للقبض على أحـد أفراد التنظيم الجديد للاخوان، يدعى السيد ناظيلي، فلم تعثر عليه، فكان ان قبضت على أخيه محمد بدلا منه، وهو أمر مناف للعدل. والأهم من ذلك أنه لم يعجب أهـل القـريـة من الصعايدة ذوي الرؤوس الناشفة، فهاجموا المهاجمين ليطلقوا سراح الرهينة، وطار النبأ الى مكتب «الفيلد مارشال عامر» وهو أيضاً صعيدي ولا ينام على ثأر ـ يستسيغ فقط أفظع الهزائم أمام العدو ـ وبسرعة أرسلت قوات المظليين والبوليس الحربي لتحاصر «كرداسة» المتمردة.

المصفحـات تغلق المـداخـل، والهليـوكـوبتر تزن وتون في السماء، وهُـوجمت البيوت، بيتاً بيتاً.. وأهينت الحرمات، وأخرج جميع الذكور البالغين لتنتف لحاهم وشواربهم، ونصبت «العروسة» في ساحة القرية ليشد عليها العُصاة، ويتم جلدهم واحداً واحداً أمام حريمهم وعيالهم، لا يُفك الرجل حتى يجعر أمام الجميع «أنا مرة»، أو يموت تحت السياط.

هذا الأسلوب في العقـوبة الجماعية والاهانة العلنية، نسيه الفلاح المصري منذ عهد محمد علي المفتري، ولكنه بقي مخزوناً في عقل السلطة، تتـذكـره كلما احتاجت الى تخويف الناس وضرب العبرة برأس الذئب الطائر واثبات المرجلة بالداخل كلما منيت بالهزيمة في الخارج.

بعـد حفـلات الضرب بالكـربـاج، شُحن الرجـال.. كل الرجال، في شاحنـات «زل» الروسيـة العسكرية، الى السجن الحربي، ليتسلمهم شذوذ حمزة البسيوني ورجاله لمدة ثلاثين يوماً، ليخرجوا بعدها وقد نسوا أسماءهم.

لا داعي الى سرد التفـاصيـل، فهي ملعـونة، وكتب فيها الكثيرون مجلدات كلها متشابهة، وكلها مخيفة، وتواترها بشكل متطابق يُجزم بصدقها.

حتى الآن لم يعـرف الشعب المصري الكريم بما يحدث في السجن الحربي ومكتب المشير، اللهم إلا تجارة الثلاجات والبوتاجازات المهربة رسمياً في طائرة المشير، وفي السفن الحربية، وباشراف رجال مكتب المشير

الأنقياء الذين يقبضون، ويعذبون الاخوان الارهابيين، المجانين بالعنف، والمفطورين على الشر.

كانت حقبة من أعجب حقبات التاريخ المليء بالأعاجيب. وفي النهاية كان لا بد من إبلاغ الشعب بالمؤامرة.

من موسكو حيث كان «الزعيم» في رحلة عمل، وصلت الأنباء منه شخصياً، بكشف مؤامرة انقلابية واسعة النطاق، دبرها الاخوان المسلمون بهدف الاطاحة بالمجتمع الاشتراكي العادل، والعودة بمصر التقدمية الى عصور الظلام والرجعية، وتحريم «المزيكا»، وإغلاق دور السينما، وأيضاً سجن النسوان في البيوت، والعودة الى نظام الحريم.

الاخوان المسلمون لا ينسون أبداً ولا يغفرون أيضاً أن الحكم بإبادتهم صدر من موسكو، وبتحريض منها، لأنها واحد من «الطواغيت الثلاثة» المعاصرة والمعادية للاسلام، وهي الشيوعية والصهيونية والصليبية الجديدة التي تحمل امريكا رايتها..

المؤامرة كما رسمها النظام متشعبة وواسعة النطاق، فهي شملت، فيما بعد، الارهابي السابق حسين توفيق ومصطفى أمين.

* * *

كتابا «سيد قطب» «معالم على الطريق» و«جاهلية القرن العشرين»، غيّرا بنية الحركة الاسلامية في مصر، وطريقة تفكيرها، وسيأتي حواريوه مْن بعده ليفسروا «الدوغما» الجديدة، ويفهمونها بطرق مختلفة. ومن الآن وحتى المستقبل المنظور سيكون من الصعب على أي مفكر اسلامي ان يهمل هذا الاجتهاد المثير والخطير، وستظل فكرة تكفير المجتمع واعتباره جاهلية معاصرة، لا بد من تدميرها على يد العصبة المؤمنة أولي العزم، مسألة جذابة بالنسبة الى أجيال الشباب الذين لا يجدون لهم مكاناً جيداً في المجتمع ويعانون من عدم الانتماء لأنظمة تدمرهم، ولا تقبل مشاركاتهم، ولا رأيهم.. فإذا حاولوا، انقضت ماكينة الدولة عليهم لتبيدهم.

في العام ١٩٦٥ جاءت الضربة «جيشي»، وعلى يد رجال المشير المغتاظ والخطير، فبعد الهجوم على قرية «كرداسة» وتركيعها علناً، جاء الدور على «بولاق الدكرور»، ضاحية الذين ترسبوا في قعر القفة الاجتماعية لمدينة القاهرة، حيث تراكم الفقر على الغضب، والانسحاق فوق المرض، في عجينة انسانية قابلة للانفجار لأقل الأسباب، وبلا أسباب.. وحيث تنتشر أشد الأفكار تطرفاً، كأدخنة الغازات السامة... عالم كامل يعيش تحت الأرض، وتحت خط الفقر بمراحل.

وبدأت مطاردة مهولة للبحث عن أفراد التنظيم، إنتهت بالقبض عليهم جميعاً، إلا من رحم ربك، وتمكن من الافلات.

تشتغل ماكينة الاعلام المُدَرب، وترسم للأحداث صورة كونية شديدة الاستفزاز، وتؤلب الرأي العام المصري والعربي ضد «الاخوان»، تلك الوحوش الوالغة في الدم، المثيرة للفتنة، والتي لا تتورع عن ضرب الجيش الوطني في الظهر بينما هو يناضل في اليمن.

وتحرك «الدين الرسمي» ممثلا في الشيخ حسن مأمون إمام الجامعة الأزهرية، الذي نعت الاخوان بأنهم فئة ضالة تريد إرجاع عقارب الساعة الى ظلمات العصور الوسطى.

كل هذا الجور الفادح، والمتهمون لم يمثلوا بعد امام القضاء، ولم تحدد جرائمهم بل وما زالت عملية انتزاع الاعترافات منهم تتم بأبشع الأساليب، وأشدها هولاً. وعندما تم تجهيز أرضية المسرح، اعتلته محكمة الدجوى أشهر القضاة العسكريين، وأكثرهم رأفة، فأرسل الى المشنقة الشهيد سيد قطب، وزميل زنزانته وحواريه محمد الحواش، و«دينامو» التنظيم عبد الفتاح اسماعيل، وتم تنفيذ الحكم فجر يوم الاثنين ٢٩ أغسطس ١٩٦٦.

ونشرت صورة سيد قطب الرجل المعَذب، معلقاً في الحبل الرهيب، ورأسه مائل على صدره، وشبح ابتسامة خافتة يرف على جانب من فمه.

أي والله... كان يبتسم في رثاء.. ربما لنفسه.. وربما لجلاديه، والذين شاهدوا تلك الصورة، يستحيل أن تفارق أذهانهم الحية حتى تواريهم القبور.

لم تُجدِ برقيات الزعامات العربية والاسلامية التي طلبت له العفو، وتخفيف الحكم، ولا عرائض التوقيعات التي تحمل أسماء عشرات الألوف من الاسلاميين، تطالب بايقاف الاعدام واستبداله بالسجن المؤبد.. كل ذلك لم يؤدِ الى شيء، وظهرت الصورة العجيبة في موعدها المحدد.

وشددت حملة الاعلام النكير على الاخوان بالخارج، هؤلاء الذين باعوا دينهم وبلدهم، وعملوا في خدمة الخيانة والرجعية، وفي أجهزة حلف «السنتو».. وركزت المسبات، بالذات، على سعيد رمضان، صهر المرشد.

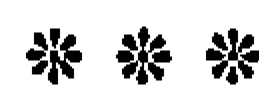
ايضاً تذكر النظام أن له حزباً يملك النسبة المعروفة من أصوات الناخبين (٩٩,٩٩٪)، ويحتل جميع أمانات الاتحاد العربي الاشتراكي، وكل مقاعد مجلس الأمة العتيد.. والأهم من ذلك كله، فهو يمثل تحالف طبقات قوى الشعب العامل، من عمال وفلاحين ومثقفين ورأسمالية وطنية. وصدرت التعليمات للتنظيم من فوق كي يتحرك في الشارع بين جماهيره ليواجه التنظيم الارهابي للاخوان المسلمين، فاتضحت الصورة الكاريكاتورية لأيتام الحكومة الذين تربوا في حضنها، فلم يكن هناك حزب في الواقع ولا في الشارع، إسمه «الاتحاد الاشتراكي العربي». هناك فقط مكاتب، ومبنى على النيل، يقف الى جانب هيلتون النيل، ويزاحمه في الرخام والتكييف المركزي ـ كتفاً بكتف ـ وهناك موظفون من ذوي الكروش يتحركون وفق «الكادر الوظيفي»، ولا علاقة لهم بالكوادر السياسية، عيونهم على الدرجة والعلاوة والبدل وموعد فراخ الجمعية، أما الفراغ السياسي، فلا يعرفون عنه شيئاً، لسبب بسيط، لأنه عشش داخل رؤوسهم الصُرَّم. وفي الحقيقة فان ضباط الانقلاب المصري لم ينجحوا في خلق تنظيم شعبي، ولم يثق الجيش ـ وهو المؤسسة الحاكمة ـ بالشعب ودوره في السلطة. إهتموا بالسلطة نفسها كقوة مجردة، ولهذا تنازعوا عليها، واقتسموها بينهم. وعبر هذا الوضع عن نفسه على شكل عصابات تتصارع على المكاسب والصلاحيات، فظهرت مراكز القوى داخل الجيش وأسلحته، وفي مكتب المشير، ورياسة الجمهورية، وبين قادة المؤسسات الصحفية المؤممة، وحتى بين أهل الفن من الراقصات

الى بنـات الكومبارس، وغابت الارادة الشعبية لتحل محلها الشعارات الرنانة، والانتصارات المزيفة، فمنذ البداية افتقر العهد للنظرية التي تقـود العمـل، ولم تكن كل أدبيـات العهـد كافيـة لتغطية هذا العجز المؤذي... بدءا من كتاب «فلسفة الثورة»، وبعده «الميثاق»، وحتى «ورقة مارس». وقـد شعر عبد الناصر بهذا الفراغ في أعوامه الأخيرة، ولكن الأحـداث وظروف الهزيمة العسكرية والمرض الجسدي، لم تسمح له بتقويم المسيرة وسد العجز.

وعلينـا الا ننسى ان عبـد النـاصر لم يُكِن احتـراماً حقيقياً لعقيدة المشاركة الجماهيرية، فأثناء محادثات الوحدة مع سورية، قال لـ «أكرم الحـوراني»، عنـدما طالبه بتقرير السيادة الشعبية: «لا تحدثني عن الجماهير، فبعشرين ألف جنيه، وبيان في الراديو، قلبت مصر، ضد نجيب الذي كانت تهتف باسمه بالأمس».

كان يشـير بذلك لأحـداث مارس ١٩٥٤، ورشـوته لصاوي محمد صاوي زعيم نقابات العمال ليقوم باضراب شامل، مطالباً بعودة «ضباط الثورة»، ووقف خطوات العودة الى الديمقراطية.

في العام ١٩٦٦ عندما طلبوا قوى التحالف لسد الفراغ، وتأييد شنق الاخوان، فوجئوا بالتنظيم السياسي غارقاً في النوم، وحل لهم الاشكال الشيخ محمد محمود علوان، شيخ مشايخ الطرق الصوفية، والتي ألحقت بادارة الجيش بأمر عسكري، فحشد الرجل أتباعه بالرايات والسَّناجق، وحملتهم الحـافلات العسكرية من جميع أركان مصر، ليحتلوا ميادين القاهرة وشوارعها، يؤيدون الثورة، ويذكرون الله. وعندما أخذت الجلالة واحـداً منهم هتف: «الله أكبر ولله الحمد»، قبضوا عليه وأرسلوه الى السـجن الحربي، واعتبروه من تنظيم سيد قطب وحكموه عشر سنوات.. وهو غير فاهم أي شيء، وظل طوال الوقت يردد: «خبر إسود ومنيِّل، هو أنا قلت ايه يا جدعان؟؟».



عندما اغتالت حكومة ابراهيم عبد الهادي بأوامر مباشرة من القصر

المـرشد حسن البنا في مساء ١٢ فبراير ١٩٤٩، فزع تنظيم «الاخوان المسلمون»، الذي غابت قياداته وكوادره في سجون النظام ومعتقلاته، وها هو عقله المـدبـر، منظمه ومُنظره، يختفي من المسرح كلية، فاستحقت المرحلة اسمها الذي افرزته فالتصق بها: «المحنة».

كنا في الزقازيق الثانوية، ما زلنا أغراراً شديدي الحماسة ولكننا لا نفهم بوضوح ماذا يدور في القاهرة، ولا نتبين بوضوح ماهية ذلك الغول الرهيب الذي اعتقل كبارنا، وأطيب الناس في بلادنا، وها هو يطلق النار على مرشدنا.

من هم أعداؤنا؟

علمونا انهم الانجليز الذين اغتصبوا الارض، والاحزاب التي تحكم مستندة الى حراب الغاصب، والنظام الذي فسد ونخره الانحلال.

وتتوقف اجتماعات الاسر لفترة، ثم يعود النشاط تدريجياً وبمنتهى السرية. كل اجتماع مغامرة مثيرة في مكان جديد، وكلمة سر، ومهام صغيرة تبدو لنا غاية في الخطورة.

وعلمنا خلال هذه اللقاءات ان «الاخوان» قاموا بانتخاب مرشد جديد، هو قاضٍ فاضل، اسمه حسن الهضيبي.

لم نسمـع بهـذا الاسم من قبـل، فهـو ليس من نجـوم الخـطابة كالعشماوي وعبد البديع صقر وسعيد رمضان، وليس من الكتاب الذين نقرأ مؤلفاتهم مثل: البهي الخولي وسيد قطب وعبد القادر عودة ومحمد الغزالي.

ثم من هم الاخوان الذين انتخبوا لنا المرشد العام؟

واذا كانوا هم الاخوان.. فمن نحن؟

وبعـودة الوفـد الى الحكم، خرج الاخوان القدامى من المعتقلات، وأصبـح الخـلاف علنيـاً عندما عاد التنظيم علنياً، وتكاثر اللغط حول المرشد الجديد، الذي جاء كمرشح تسوية، وقيل ان القصر فرضه كشرط للعودة. وأذكر ذات خميس ركبنا الدراجات وزحفنا من شُعبة «بلبيس» على المركز العام بالحلمية، وبتنا فيه، طالبين مقابلة الهضيبي وأعضاء «مكتب الارشاد» فلم نلق أحدا، فعدنا جائعين، لأننا لم نحمل نقوداً ولا

طعاماً، ولم نتوقع ان يكون المركز العام، على هذا القدر من الشح فيتركنا أهله نبيت على الطوى. ولكن عرفنا ان الانقسام كبير بين الجماعة التي تنـادي بالمحافظة على خط الدعوة كما وضعه حسن البنا وبين الملتفين حول حسن الهضيبي، والذين نعتوا غيرهم بالمنشقين ـ وأعجبني الاسم ـ وشعرنا بوضوح ان القيادة الجديدة، لا ينقصها شيء الا موهبة القيادة.

ولـما كان «المـرشـد الشهيد» شديد الاعتماد على تأثيره الشخصي، وقدراته الخطابية البالغة، وعبقريته الاعجازية في التنظيم وكسب الرجال، فانه لم يهتم بوضع أفكاره على الورق. لم تكن له مؤلفات تشكل نظرية تحدد رؤيا الجماعة للعالم وتفسر علاقتها بالمجتمع وتعاملها معه.

ترك عدة رسائل، كل منها بحجم الكف، تحمل عناوين أدبية مثل «نحو النور» و«الى ما.. ندعو الناس».. وكتاب خواطر صغير بعنوان «مذكرات الدعـوة والدعـايـة»، كان بشخصـه يملأ الفراغ الفكري لأكبر حركة اسلامية في القرن العشرين، وعنده كان «الاخوان» يجدون الاجابة لكل سؤال، والعلاج لكل موقف. وعندما غاب لم يجدوا بعده النظرية المطلوبة لتحديد «معالم الطريق»، فتاهوا بلا مرشد، وتصادموا ببعضهم وغيرهم، كأي طاقة منفلتة لا يحكمها قانون عام مسجل في نظرية شاملة ومكتوبة، يمكن بناءً عليها تحديد الخطأ من الصواب، الملتزم من المنشق.

وهكذا وجدنا أنفسنا عام ١٩٥١ في معسكر اقامة الاخوان لمحاربة الانجليز، ولكننا في الوقت نفسه محل سخط وتنديد المرشد الجديد الذي رأى ان الحـرب ضد الانجليـز سفاهة، وان المهمة الحقيقية للاخوان الحقيقيين هي حث الناس على الفضيلة.

تشرفنا.

هذا الغياب التام للنظرية تعمده «المرشد الشهيد» كنوع من «التقية» تمكنه من الافلات، كلما نصبوا الفخاخ للدعوة. كان يعرف حجم خصومه داخـل مصر وخـارجها. وأدرك ان اعادة الحركية للإسلام أمر ترفضه القوى التي تكره هذا الدين وأهله، ولهذا كان الدوران حول الهدف هو التكتيـك المـرحـلي المأمون، وهنا يقول: «يقولون نحن في حيرة من أمر

الاخوان المسلمين.. أهي طريقة صوفية؟ أم جمعية خيرية؟ أم حزب سياسي؟

وأي شيء يقصدون؟ وفي أي طريق يسيرون؟

أما نحن الاخوان فقد تجاهلنا المسميات، وأخذنا الطريق الذي لا يصلح أمر الناس إلا عليه.. الدعوة الى كتاب الله وسُنة رسوله.. ونهجنا منهج الاسلام، ووسيلتنا ايمان ومحبة وعمل..».

وطوال حياته كان الرجل في حوار دائم مع النظام، ينقده صحيح، ولكنه يتعامل معه.. وحتى آخر مشوار في عمره، كان في طريقه لمفاوضة قتلته على شروط عودة التنظيم وخروج أفراده، وفتح صفحة جديدة مع الدولة.

وفي أزمة ١٩٥٤، اتضحت بصورة أشد خطورة غياب النظرية وتحديد موقف متكامل من المجتمع، فالمواجهة هذه المرة ليست مع حكومة عميلة للانجليز ومسنودة على «عابدين» بل الضباط الاحرار الذين انتمى معظمهم للاخوان، ويرفعون نفس شعاراتهم.. النظام الذي سانده الاخوان من اللحظات الاولى، والخطرة لميلاده.. ورجاله الذين لم يعارضوا تطبيق الشريعة، وأعادوا فتح التحقيق في مؤامرة اغتيال «المرشد الشهيد» وحاكموا الجناة.. بدءاً من رئيس الوزراء الذي أمر بالاغتيال، وحتى الأمباشي الذي ضغط على الزناد.. هذا النظام يلوح بالشعارات الغالية.. ماذا يكون الحكم عليه وهو يفتري على الاخوان ويشنقهم بالجملة، ويدمر انسانيتهم في المعتقلات، ويفنيهم عمداً في مسلسل مدروس؟!

بينما الضمير الاخواني يعاني بحثاً عن تفسير، ويطلب الاجابة عن أسئلة محيرة، كانت المحنة الكافرة تفرز نقيضها المؤمن.. كان سيد قطب يتقلب ويتعذب، بالمرض وبالكرابيج، ويشهد المذبحة من داخل زنزانته، في «ليمان طره». ومن عصارة كل ذلك يثمر أوراقاً من علقم، لترسم «معالم الطريق»، مجيباً على كل الاسئلة، طارحاً الحل الشامل لمشكلة «الحركة الاسلامية في مصر»، محدداً من اللحظة الاولى، ان العالم فسد، واننا نعيش في «جاهلية القرن العشرين».. وقد آن الأوان لظهور الاسلام من

جديد.

منذ اللحظة الأولى لصدوره عام ١٩٦٤، أصبح كتاب سيد قطب بمثابة «المانيفستو» للتيار الاسلامي في مصر، والعالم العربي، وسيطر على خيال شباب السبعينات، وما زال حتى اليوم مهيمناً على عقول الثمانينات، وستجده واضحاً في حركة صالح سرية التي قامت بالاستيلاء على «الكلية الفنية العسكرية»، و«حركة التكفير والهجرة» التي قادها شكري مصطفى، وأيضاً تنظيم «الجهاد» الذي أفرز مجموعة خالد الاسلامبولي.

اذاً فنحن بمواجهة نوعية من الفكر الذي يعيش ولو عُلق أصحابه في حبال المشانق.

كانت أول وظيفة قام بها الكتاب هي قيامه بتصنيف التجربة الناصرية، وفي حياة صاحبها، وعنفوان أجهزته، بأنها «جاهلية جديدة»، وبذلك تخرج من دائرة الاسلام مما يوجب على المؤمنين اسقاطها.. وهذا الحكم اذا صدق على عهد «عبد الناصر» فانه أشد صدقاً على نظم خلفائه، الذين أضافوا للظلم جرم الخيانة وممالأة الكافر.. والاستسلام لعدو الدين ـ الصهيونية ـ لقد اختفت الحيرة القديمة ليظهر التحليل الصارم، والحكم القطعي ـ أبيض أو أسود ـ مؤمن أو كافر ـ فبدأ العنف يفجر بعضه، ولا ينتظر الدولة كي ترسم «سيناريو» سقوطه بين أشداقها.

الرجل حلل الوضع بمنطق سلس، وملأ العبوة بالديناميت ورحل.

مثل هذا فكر يثير أقصى الجدل، ليس بين خصومه، بل بين جنوده والعاملين في الحقل الاسلامي:

الأزهر وقف مع «قيصر» لأنه ظل الله، مانح المرتبات والجراية.. وليسامحني الشيوخ، وليراجعوا ما قاله الشيخ حسن مأمون الذي نافس أحمد سعيد في التجعير والتكفير والاتهام بالزندقة والهرطقة.

الاخوان انقسموا بشأنه.. فالهضيبي أعلن خيبة أمله في الكتاب والكاتب..

والتقليديون شهقوا من الروعة في العرض، والفزع من النتائج.

الشباب اعتبروه مخطط عمل طالما بحثوا عنه.

الحكومة صادرته، وأوقفت توزيعه، وطلبه عبد الناصر وقرأه، وأصدر أمراً باجازته، حتى لا يصبح كالحشيش يؤدي منعه الى مزيد من الاقبال عليه. ونزل الكتاب.. فنفدت نسخه في ساعات، وطبع ست طبعات متوالية خلال أشهر، كل طبعة ضعف سابقتها، فعاد قرار المصادرة، هذه المرة بلا رجعة. كانت الأرض عطشى، وما زالت، والدليل هو أن هذا الكتاب ما زال أكثر الكتب توزيعاً بعد القرآن الكريم.

فمن هو «سيد قطب» الرجل الأشد خطورة بعد موته.. كما كان خلال حياته؟

هذه المعرفة تخدمنا في كشف جوانب المسألة المعاصرة التي تعيشها مجتمعاتنا، التي تعاني من انفصام في شخصيتها، ينعكس علينا قلقاً يجعلنا كالجالسين على الخازوق، نتحرك بقوة ونحن مثبتون في أماكننا، هذا الوضع المؤذي المخزي يتضاعف آلاف المرات بالنسبة لمفكر حساس، ويتوه في أزقة الحضارة الغربية، فلا يجد القناعة، ويعود الى الحضارة الأم، ويتعذب.. ويسجن.. وفي النهاية يُشنق، ليعيش فكره بعد موته وموت أعدائه.

لنبدأ من نقطة الصفر.

كان العام ١٩٠٦، عاماً عجيباً في حياة مصر، فاليأس خيم على الناس، فالانجليز الذين دخلوا البلد لاعادة السلطة للخديوي وبعدها يعودون لمراكبهم.. دخلوا ولم يخرجوا، ومضى عليهم حوالي ربع قرن، ولم تظهر عليهم علامات الخارجين، بالعكس هم يتصرفون كأن بقاءهم أبدي، فالمعتمد البريطاني لورد كرومر يتصرف في البلد كمزرعة قطن ملحقة بـ «لانكشاير» ولا يتورع عن إهانة الخديوي عباس حلمي علناً، والمفروض انه جاء ليحمي والده، وبالتالي حمايته، وفي الوقت نفسه فان الوطنية المصرية والتي تجسدت في شخص مصطفى كامل، تعاني من خيانة فرنسا التي اعتمد الحزب الوطني على مساعدتها في إجلاء الانجليز عن أرض مصر، ولكن الفرنسيون قايضوا انجلترا ـ مصر مقابل تونس ـ وتركوا الحركة الوطنية معلقة من عرقوبها.

أيضـا في العـام نفسـه، شنق الانجليز فلاحي قرية دنشواي بعد محاكمة سريعة وظالمة، واهتز الوجدان المصري الذي يكره الظلمة عندما ظهرت «الاهرام» تحمل صور المشنقة، والرقبة المعلقة في الحبل لفلاح مصري لم يرتكب جرماً.

في العام نفسه رُزق الحاج قطب ابراهيم بطفل أسماه «سيد»، قُدر له هو الآخر أن يُعلق في المشنقة، وتنشر صورته في «الاهرام» نفسها في زمن مختلف تماماً، ولأسباب مختلفة أيضاً.

«الحاج قطب» كان من أعيان قرية «المنشأ» بمديرية أسيوط، ورئيس فرع الحزب الوطني فيها ومن أشد المعجبين بالزعيم الشاب مصطفى كامل، ومشترك ثابت في صحيفة الحزب «اللواء»، يعني سياسي صعيدي غارق في المسـألة الوطنيـة للرُكَب.. تُعقـد في بيتـه الجلسات الحزبية الأسيوطية المشحونة بالغضب على الاحتلال، وشتم اللورد كرومر وترديد شعارات الزعيم: «لا يأس مع الحياة.. ولا حياة مع اليأس».. و.. «لو لم أكن مصرياً، لوددت أن أكون مصريا».

في هذه الطينة المشبعة بكراهية الاحتلال، وبإحياء الرباط العثماني بين دول العـالم الاسلامي، والتي نادى بها الحزب الوطني كسلاح في الصراع الطويـل ضد سياسـة الاذابة التي يتبعها الاستعمار، عاش «سيـد» الصغير، الذكي بدرجة غير عادية، يستوعب كل ذلك، وينسج منه خلفيتـه الفكرية على مهل. الحقه والده بالمدرسة الحكومية ليتعلم وفق التعليم المدني. رغم وجود عدد من أبناء الأسرة دخلوا الكُتاب، وحفظوا القـرآن، وانتسبـوا بعد ذلك للجامعة الأزهرية، إلا أن «الحاج قطب»، اختار لولده طريق المدرسة العلمانية، التي تخرج منها زينة شباب مصر، وزعيمهـا مصـطفى كامـل. رغم هذا الخيار المفروض، سنجد الطفل الصغير يحفظ القرآن برغبته الذاتية، ودون توجيه من أحد، ويختمه عند بلوغه سن العاشرة، وبذلك إمتلك ناصية أهم سلاح سيخوض به، وتحت رايته، أخطر معاركه الفكرية. افتتانه المدهش بالقرآن سيلازمه في معظم مراحل تطوره، وسنلمسه في كل كتاباته التي سبقت انضمامه المتأخر للحركة الاسلامية، وانضمامه لتنظيم الاخوان، وهو على أبواب الاربعين

من عمره، فنجد بين كتبه المبكرة كتاباً بعنوان «في ظلال القرآن»، وآخر بعنوان «التصوير الفني في القرآن».. كان ذلك مقدراً.. وما قُدِّر يكون.

الحـاج قطب ابراهيم يقاتل على أكثر من جبهة، فهو كأحد أنصار الحزب الوطني عليه أن يقاوم الحكومة التي يديرها الاستعماري القارح لورد كرومر، ومن بعده الدون جورست.. أما في الريف وعندما تكون من الأعيان ـ أصحاب الطين ـ فإن عداوتك للحكومة تكلفك كثيراً. وكان على الرجل الوطني، الملتزم حزبياً ان يساهم في تمويل الحركة الوطنية التي اعتمدت في تمويلها أساساً على أمثاله من المساتير ـ البرجوازية الزراعية والتجارية ـ أيضاً على «الحاج قطب» ان يناضل لاسترجاع أرض العائلة التي بددها والده الحاج ابراهيم قبل رحيله، وبطريقة تؤكد انه كان مصراً على ترك اولاده وأحفاده يتسولون اللقمة.

كل هذه الضغـوط والمعـارك، والثبات العنيد للأب الصعيدي الذي يتـراجـع ولا ينحني، شكلت الخـطوط الأسـاسيـة في شخصية ولده الهادىء، المتوقد الذكاء، الذي تخفي رقته الظاهرية معدناً فولاذياً.

في العام ١٩١٨، أنهى سيد قطب دراسته الابتدائية بالقرية، وأصبح من الضروري ان ينتقل الى أسيوط أو القاهرة، ليكمل دراسته.. واختار الحاج قطب ان يرسله الى العاصمة كي يكون في رعاية خاله الذي يعيش هناك.

أيضاً، هذا الخال لم يكن مجرد واحد، بل كان ينتمي الى خط جديد في الوطنية المصرية، كان عضواً نشطاً في لجان «حزب الوفد»، الذي بدأ يتشكل، ويهيمن على وجدان الشارع المصري، أما مهنته، فهي «صحفي وفدي»، يخوض بقلمه في معركة المطالبة بالاستقلال.

عندما وصل سيد قطب ليعيش في كنف هذا الخال النشط سياسياً، كان عمـره لا يتجـاوز الثانية عشرة، والقاهرة تغلي بالأحداث، فالحرب العالمية الأولى انتهت في ذاك العام، ومصر دفعت الثمن غالياً في معاركها، جاع الناس ليأكل الجيش الانجليزي، وصودرت الجمال والبغال والخيل لصالح المجهود الحربي، وجند مليونا مصري ليخدموا في حملة «اللنبي» على فلسطين، فمات معظمهم من مشقة العمل والاذلال والغربة، وفوق كل:

ذلك «الكوليرا».. حتى انفطر الوجدان الشعبي الحساس حزناً صميمياً عبرت عنه الأغنية التي رافقت الحملة: «آه.. يا عزيز عيني، ياما نفسي أروّح بلدي.. بلدي يا بلدي.. والسلطة أخذت ولدي»..

كانت مصر كلها تتوقع من بريطانيا التي خرجت من الحرب منتصرة، أن ترد الجميل لمصر التي وقفت معها طوال سنوات الحرب الأربع، وأن تعيد لها سيادتها واستقلالها، ولكن الانجليز رفضوا مجرد سفر وفد مصري ليعرض قضيته أمام مؤتمر السلام الدولي الذي عُقد بعد الحرب بناء على مبادىء الرئيس ويلسون الأربعة عشر، والتي تؤكد حق جميع شعوب الأرض في تقرير مصيرها، فقال الانجليز: إلا مصر...

القاهرة عندما وصلها الفتى سيد قطب، كانت تعاني مخاض ثورة على الانجليز، ناكري الجميل، وكان خاله الصحفي الوفدي أحد الذين يصنعون هذا الحدث العظيم. وهكذا انتقل الفتى من البيئة السياسية القروية التي تشوبها البلادة، والتكرار الممل ـ ما نبات فيه، نصبح فيه ـ ليجد نفسه في أعاصير سياسية عاتية لعاصمة حبلى بثورة على وشك الانفجار.

وبالفعل شب الحريق الكبير، في العام التالي لوصوله ١٩١٩، وخرجت الجماهير تواجه الاستعمار، وتفرض إرادتها على التاريخ ـ ويصبح «الوفد» وزعيمه سعد زغلول مركز الأحداث، وعقل الأمة وقلبها. ولا شك ان الخال الوفدي الصحفي كان في قلب الدوامة الثورية، ولا شك ان ابن اخته الذي انحبس في العاصمة بعد انقطاع المواصلات، قد تأثر بعمق، بالعنف الثوري والايمان الذي يتحدى الموت.. وهو يرى ذلك ويعيشه أحداثاً يومية على مدار الساعة، وسنجده وقد سيطرت على فكره وكتاباته، عقيدة القدرة المطلقة للجماهير، وحقها في الثورة، ودفع ثمنها للنهاية.

ومنذ انفجار الثورة عام ١٩١٩، وحتى أنهى دراسة الكفاءة، وقدم أوراقه لمدرسة المعلمين المتوسطة عام ١٩٢٥، سنجد ان هذه السنوات الأربع الثورية، مساحة بيضاء في سيرة «قطب»، ليس لكونها خالية من الأحداث، ولكن لأن أحداً لم يكتب عنها، ولا حتى صاحبها، والذي يقرأ مؤلفاته بعمق، سيحس بسخونة النفس الثوري الهجومي فيها، وهذا

يرجـع للتجـربـة العنيفة التي أحدقت به في بيت خاله في أثناء الثورة وبعـدها. يتخرج من مدرسة المعلمين عام ١٩٢٩، ويلتحق بالدراسات التمهيدية لـ «دار العلوم»، وهي معهد عال أنشأته الدولة عام ١٨٧٢ لتخـريـج مدرسـين علمانيين كي يغطوا النقص الذي تعاني الجامعة الأزهرية منه، حيث تقتصر الدراسة فيها على المناهج الدينية فقط، ولا مكان للعلوم الحديثة.

وستعاني الحركة الاسلامية في مصر من مشاعر الغيرة والتحاسد بين «الازهـري» الذي يرى نفسـه جمـاع الدين والفقة، ويرى غيره قليل البضـاعة، كبير الادعاء.. وبين «الدرعمي» خريج «دار العلوم»، الذي يرفض إحتكار «الأزهري» للدين، فلا كهنوت في الاسلام، ويرى معهده الحديث هو جماع الدين والدنيا، وصلاح الاثنين معاً.

وأكبـر الحمـلات على الشهيـد حسن البنـا وجماعته من الاخوان المسلمين، صدرت من الأزهر وعن أزهريين، أزعجهم ان يتصدر «درعمي» أقـوى الحـركـات الاسـلامية، وأعلاها صوتاً.. وكان (رحمه الله) من خريجي «دار العلوم»، وصديقاً لدوداً لرجال الأزهر، يسميهم «الاسلام الرسمي»، ولا يتورع عن غمزهم:

«إذا لم يكونوا راغبين في العمل لوجه الله، فليدافعوا عن لقمة العيش التي يأكلونها.. فلو حدث ـ لا قدر الله ـ مكروه لهذا الدين، فمن أين سيحصلون على أرزاقهم؟»

«كـل ذلك لا ينفي الدور الخطير الذي قام به «الازهريون» في بناء «كوادر» الدعوة ونشرها».

ما يهم هنا هو انتظام سيد قطب في صفوف طلبة دار العلوم، وذلك في عام ١٩٣٠، ليقضي فيهـا ثلاثـة اعـوام، يتخرج بعدها «درعمياً» عام ١٩٣٣؛ أي بعد تخرج حسن البنا من المعهد نفسه بسبع سنوات.

حتى الآن، وقد بلغ السابعة والعشرين، وفيما عدا حفظه المبكر للقرآن الكريم، فإن موقفه من الفكر الاسلامي والحركة الاسلامية، كان يتسم بالحياد، في الوقت نفسه الذي كان فيه حسن البنا الذي ولد معه في العام ١٩٠٦ ذاتـه، وتخـرج من المعهـد نفسه، يخوض في وحول مصر، من

الاسكنـدريـة الى الشلال، مبشراً بحركة جديدة، قادرة على بعث روح جديدة في الأمة والعقيدة، موجهاً الناس الى درب جديد ووحيد للخلاص.

أصبـح سيـد قطب مدرساً بوزارة الأشغال العامة، وظل يتنقل بين الأقاليم المختلفة، حتى نُقل الى حلوان فاستقر بها مع والدته، وشقيقتيه وأخيه محمد، وسيظل موظفاً بالوزارة طوال السنوات الست عشر التالية، وسيرتقي ليصبح مفتشاً.

حياته العقلية كانت إنعكاساً لأوضاع جيل الثلاثينات والاربعينات، جيل اللعنة والقلق، والتبضع الفكري من «فتارين» الغرب والشرق.

كانت ثورة ١٩١٩، التي مثلت العنفوان الوطني، قد توارت، وتحولت في النهـاية الى معاهدة صداقة مع الغاصبين، وتحول الكفاح الدموي للحصول على الاستقلال الى اسلوب «المفاوضات» المزمنة التي ما أن تبدأ حتى تفشل لتبدأ من جديد، والانجليز قاعدون على قلبها ، والوفد يترنح تحت ضربات الملك فؤاد ومؤامرات السفير البريطاني الرهيب القابع في «قصر الدوباره»، والمثقفون تركوا المسألة الوطنية، وفتحوا فروعاً لتسويق المـوضـات الأجنبيـة من الفلسفـات والآداب والمدارس النقدية، فهذا «وجودي»، وهذا «ماركسي»، وذاك «تأثيري».

وفي الحركات السياسية عرفت مصر المنظمات الفاشية تيمناً بانتصار موسـوليني في ايـطاليـا، وهتلر في ألمـانيا.. فظهرت كتائب «القمصان السوداء»، التابعة لـ «مصر الفتاة»، ومنظمة «القمصان الزرقاء»، التي شكلها «الوفد».. وبدأ الاخوان يشكلون «الجوالة». وخلال هذا التيه، كان الحـل الاسـلامي جنيناً في رحم الغيب، وانفصل الشعب المسلم اجمـالاً وتفصيلاً عن مجموعات المثقفين الذين تفاخروا علناً بعداوتهم للاسـلام، وجعلوا الحرب عليه مفضلة على الحرب ضد الانجليز، على أسـاس ان عدواً عاقـلاً خير من صديق جاهـل، والانجليـز هم العدو العاقل.. طبعاً.

القاهرة في الثلاثينات، كانت كمريض بالذهان، يمشي وهو يكلم نفسه، لا هو نائم ولا هو صاح، ولا عارف أين وجهته، وما هو هدفه.. ماشي فقط والسلام.. وضع عقله في رجليه، وتاريخه خلف ظهره، واكتفى بالـهمهمة

التي لا هي سؤال، ولا هي جواب.

صاحبنا عاش تلك الحقبة العبثية، وفي غياب الهدف العام، خلق لنفسه هدفه الخاص ـ إصلاح نظام التعليم في مصر ـ متأثراً في ذلك بفكر محمد عبده وبحكم مهنته كمدرس، فكتب عشرات التقارير ورفعها الى الدكتور طه حسين الرجل الذي أصبح مسؤولا عن مناهج التعليم في البلد، واستمر فيه للنهاية، رغم تقلب العهود والوزارات، فربط التلميذ المصري بالثقافة اللاتينية والمنهج العلماني اللاديني.

أُلقيت أبحاث سيد قطب في سلة الزبالة، فالمقرر مرسوم سلفاً، وخطة التخريب قائمة على قدم وساق، وعميدها لا يحيد عنها إلا بالموت.

وكانت صدمة للمفكر الشاب، جعلته يبني على مهل موقفاً عدائياً من طه حسين وكل ما يمثله من تبعية مطلقة للفكر الغربي، وبالذات فرعه الماسوني والاستشراقي.

النقلة الهامة التالية كانت اتصاله بمجلس عباس محمود العقاد، الرجل الذي كان «نسيج وحده»، فهو الذي لم يحصل على مؤهل علمي بعد الشهادة الابتدائية، وثقف نفسه من خلال قراءة حرة متعمقة لأكثر من ستين ألف كتاب ومرجع علمي.

كان «العقاد» ثقلاً معادلاً ـ سبع مرات ـ للدكتور طه حسين لأنه يمثل نقيضه في كل شيء. سياسياً، نجد الدكتور يبدأ معادياً لـ «الوفد» عندما كان سعد زغلول يحارب القصر والانجليز معتمداً على قوة الشعب، فتطوع طه حسين، لشتمه هو والشعب معاً، وبأسلوب «حوارتي» شديد البذاءة لحساب «الأحرار الدستوريين»، وبفلوسهم، وعلى أعمدة صحفهم، فقاطعته الجماهير ليصبح صفراً، وليصبح «العقاد» بطل الساحة، خاصة عندما يدخل السجن ستة أشهر دفاعاً عن الدستور. وعندما يموت سعد، ويتحول «الوفد» من الثورية الى الشرعية بقيادة النحاس، يثور العقاد، ويهاجم السياسة الجديدة والزعامة الجديدة، فيُفصل من الحزب للأبد، ليقفز طه حسين الى المقعد الذي أصبح شاغراً، خالعاً جلده القديم، معلناً عن «وفديةٍ» مصلحية، ترفعه الى «عمادة الأدب»، و«عمادة الجامعة»، فـ «وزارة المعارف».

أما من الناحية الثقافية، فان العقاد رغم تعدد مصادر ثقافته، فهو مفكر إسلامي عملاق، يرى أن العقيدة الاسلامية هي القمة في المنهج وفي التطبيق، وسلسلة «العبقريات» التي أنجزها حجزت له مكاناً متقدماً في ميدان الفكر الاسلامي المعاصر.. بينما اختار طه حسين موقف الرفض الكامل للعقيدة، وتبنى موقف أساتذته المستشرقين، وشكك في صحة القرآن، وطالب المصريين بتبني حضارة الغرب، خيرها وشرها.

مفكرنا سيد قطب دخل مدرسة العقاد التي تميزت بالعناد الفكري والكبرياء المسلكي والتعبير الهجومي، وقبل كل ذلك الصرامة في التوجه الاسلامي. هنا وجد نفسه، وتحسس دوره، ووقف على الأرضية التي انطلق منها ليتجاوز أستاذه. نعم يتجاوزه بالعمق، فاذا كان العقاد محيطاً يضم الأسماك واللآلىء والزلط والحشائش، فان سيد قطب منجم لا يضم سوى عرق من الذهب.. ولا شيء آخر. لم يضع نفسه في جيب العقاد، ودار حوله مبهوراً، مضحياً بعظمته الذاتية، مكتفياً بأن يكون حوارياً للمعلم، فينتهي في الظل، كما حدث للكثيرين من تلاميذ الأستاذ، الذين ماتوا بموته وقبل موته.. بل خلع قطب نفسه من جاذبية الشمس الكبيرة، وسلك درباً مختلفاً، وشديد الخصوصية.

صحبة عقل في حجم العقاد لا تمر بلا تأثير، فسنجد في كتابات سيد قطب ذلك البناء المنطقي المحكم، الشامخ، والقدرة على جمع كل المعلومات في الصلب والتفاصيل لخدمة الهدف النهائي، وأيضاً تلك الطاقة الهجومية الرهيبة التي لا تكتفي بالانتصار على الخصم، بل لا ترضى بأقل من تدميره وإزالته، وهذه النزعة الهجومية الخطرة ليست نابعة من فطرة شريرة حاقدة، بل من إيمان مطلق بالقضية، واعتداد بالنفس بلا حدود.. كل هذه بصمات «عقادية»، شديدة الوضوح في أعمال المفكر الشهيد. أيضاً علينا ألا ننسى ان العقاد هو الذي لمح وقيم أصالة الجوهرة الجديدة، ففتح أمام سيد قطب باب الكتابة في الصحافة، ومهد له الطريق بالمدفعية الثقيلة، فقدم للاسلام خدمة لن يجزيه عنها سوى الله وحده.

مبكراً اكتشف العقاد أصالة معدن تلميذه الصعيدي الصامت سيد قطب، وعرف ان وراء هذا الصمت فكراً متفجراً، وروحاً شفافة. وكان من

عادة رواد ندوة العقاد ان يقرأوا نتاجهم الأدبي والثقافي ليناقشه الحضور والاستاذ طبعاً، ولا شك ان سيد قطب قرأ بدايات انتاجه في وسط هذه البوتقة الفكرية الشديدة الحرارة، والتي تصهر المعادن، فتفرز الثمين من الغث، ولا شك ان الأسلوب الجاد والفكر الحار للكتابات القطبية، أرضى العقاد الذي لا يعجبه العجب، خاصة إذا كان المضمون هو الدفاع عن الاسلام، والهجوم على سفير الثقافة اللاتينية في مصر طه حسين، وسنجد العقاد يدفع بالكاتب الذي لم يبلغ السادسة عشرة من عمره، لينشر أعمدته في النقد الأدبي على صفحات الجرائد الوفدية الواسعة الانتشار، وكنا ما زلنا في العام ١٩٢١، ولم تمض سنتان على إنكفاء الثورة.

إذن، دخل صاحبنا الصحافة من باب الأدب، وعشق الأدب من خلال العقاد، وسنجده يتابع مسيرته النقدية مهتماً بالشعر والرواية، وسنجده لا يكتفي بنقد أعمال الآخرين، فيكتب أعمالاً أدبية، أبرزها سيرة ذاتية لطفولته، بعنوان «طفل من القرية» نهج فيها نهج طه حسين في «الأيام»، مع اهتمامٍ واضح بالخلفيات الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية، ثم صدر له كتابٌ «الأطياف الأربعة»، وهو تجربة غريبة في الأدب العربي إذ اشرك فيه بطلنا، أخوه «محمد» وأختاه «حميدة» و«أمينة».. والعمل تجربة شعورية، شديدة العذوبة، تقدم بوضوح أسرة كاملة من الموهوبين بالجملة.. أما نتاجه المرير حقاً، فهو رواية تراجيدية بعنوان «أشواك»، تحكي قصة حب عميق خائب، عصف بروح البطل، وسمم وجوده.

العمل يشع بألم الكاتب الذي ينزف على الورق، ولكن في تماسك لا رخص فيه، ويبدو ان هذه المعاناة التي عاشها مفكرنا في الواقع مرمرت حياته، وجعلته يفضل الوحدة والعزوبية على النمط العقادي ـ أي كما فعل العقاد ـ، ولكن بألمٍ أكثر نبلاً، فلم يهاجم المرأة، نثراً أو شعراً، بالنكتة أو التشنيعة، كما فعل أستاذه، بل انطوى على جرحه الدامي، يبحث له عن علاج أو تخفيف، ولكن بلا جدوى.. حتى هداه الله في لحظة كشفٍ رائعة، الى الطريق الذي وجد فيه سلامه النفسي، بل وسعادته الروحية، وهو طريق الاستشهاد في سبيل قضية، لا هي فردية ولا أرضية.

وما أن اهتدى الى هذا الدرب ـ وجاء ذلك متأخراً ـ حتى اندفع فيه متجاهلاً «أشواك» القلب وعذاب الجسد، كأنما ارتفع فوق كل ما هو بشري أو دنيوي، متصلاً بالسماء في حالة من الوجد الصوفي العجيب.

نعود الى الأرض ومرحلة القلق كي لا نسبق الحوادث:

كان العام ١٩٤٥، تاريخاً فاصلا على أكثر من صعيد، فالحرب العالمية الثانية انتهت بانتصار الحلفاء وهزيمة المحور «النازي ـ الفاشي».. والوفد مطرود من الحكم الذي وصله على حراب الانجليز في فبراير ١٩٤٢، والحكومة التي حلت محله لا تمثل أحداً، ولا تفعل شيئاً، وبانتهاء المجهود الحربي، طرد الانجليز أعداداً مهولة من المصريين العاملين في «الأورنص»، فتفشت البطالة، وتوقفت مرحلة الرواج التي صاحبت الحرب، وزحفت على البلد أزمة اقتصادية، بدا النظام أعجز من حلها، فالانجليز لن يخرجوا، والحالة «زفت»، ونفاد صبر الشعب واضح في تفشي العنف.

سيد قطب في هذا العام الحرج، اتخذ قرارين غاية في الأهمية:

القرار الأول هو ان يخرج من الوفد الذي اقترب من الخيانة فاستحق ما وقع به من الاذلال.. وهو هنا أيضاً يسير على خطى العقاد، ويتحقق من صوابية حكمه ـ متأخراً ـ ولكنه على عكس أستاذه العنيف، الذي شتم «الوفد» فوق منابر أحزاب الأقلية، ـ الألعن من الوفد ـ فوقع في التناقض عندما غسل الخطأ بالخطيئة الأكبر..

أما سيد قطب فأصدر حكماً على الأحزاب كلها، والنظام من «رأسه لأساسه» بأنه بناء تعفن ونخره السوس، ولا بد من البحث عن حلٍ جديد.

وبدأ يكتب مهاجماً النظام المتخلف، باحثاً عن البديل، مطالباً غيره من الأكفاء ان يبحثوا معه.

مثل هذا الكلام عن «تبديل النظام»، هو «روشتة» للثورة، ودعوة للانقلاب، وتنبه فاروق، الغائب عن وعيه عادة، وقرر ان يضع حداً لهذا النوع من الفكر الخطر بأن يسجن صاحبه، ولكن صداقات سيد قطب وعلاقاته القديمة بحزب الوفد وكبار القوم فيه، تنفعه في رد قبضة فاروق

عنه في اللحظة الأخيرة.. «جت سليمة».

أما القرار الثاني فجاء على الصعيد المنهجي، فهو قد قرر أن يغير نوعية كتاباته... أن يتوقف عن الكتابات الثقافية في القضايا الأدبية، والنقد الأدبي، والرواية.. قرر أن يهاجر من سماوات الفكر المجرد، والقضايا الخيالية، الى أرض الواقع ومشاكل الناس. ان يكشف العيوب، ويبحث عن حلول.

باختصار، قرر ان يبحث عن المتاعب، فوجدها بانتظاره.

السؤال الذي يلح على خاطري وأنا أكتب عن هذا المفكر الأسطورة، هو: لماذا طوال هذا الوقت لم ينتمِ للتيار الاسلامي الذي يقوده حسن البنا، ويمثله «الاخوان المسلمون»؟

لماذا وهو المؤهل أكثر من غيره، والاخوان أمامه قوة صاعدة واعدة؟

إذا جاز لي أن أسأل، وأجيب على نفسي، فانني أتصور الأسباب محصورة في الآتي:

ـ انتماؤه للوفد مبكراً، وعلى يد الجيل الثوري الذي صنع أمجاد ١٩١٩ ـ خاله والعقاد وسعد ـ جعله ومن وقت مبكر يرى الدنيا بمنظار وفدي، وقد وقف «الوفد» الحزب العلماني الليبرالي موقفاً مملوءاً بالشك، بل العداء من التيار الديني، وحتى من الأزهر، خاصة وأن القصر لعب دائماً ورقة الدين، واحتضن التيار الاخواني في بداياته.

ـ كما أن تجمع المثقفين في العشرينات والثلاثينات والأربعينات ـ وهو التجمع الذي انتمى اليه مفكرنا ـ نظر باستعلاء الى الفكر السلفي الديني، حيث كان مبهوراً بالنظريات الأوروبية البراقة التي تنقلب على نفسها وتغير جلدها وأسماءها في «كرنفال» مستمر.. مادية جدلية.. وجودية.. سوريالية.. دادية.. واقعية تاريخية... ألفاظ يمضغها قطاع المثقفين في إعجاب شديد بالنفس. أليسوا يتطورون لفظياً؟

ـ ثم أن موقف الاخوان نفسه اتسم بالغموض بالنسبة للقضايا الاجتماعية والسياسية، كما أن معظم مواقفهم بدت إما مؤيدة للقصر وعملائه، وإما تصب في حسابهم.

هكذا طال التيه والاغتراب، وتعمقت الفرقة بين أوسع تيار اسلامي،

وأهم مفكر مرشح لبلورة خطة عمل واضحة ومقروءة له.

في طريقه الى نيويورك عام ١٩٤٨، في بعثة السنوات الثلاث، حدثت لمفكرنا سيد قطب على ظهر المركب واقعة كان لها إنعكاسها على موقفه من البلد الحر المنتصر الذي سيتعلم منه وفيه ما يساعده على الخروج بوطنه من الظلمات الى النور.. بل على موقفه من الحضارة الغربية وكل قواميسها ومفرداتها.

في السنوات الأخيرة ـ قبيل سفره ـ بدأ يفكر ويكتب في الاتجاه الاسلامي، ويقيم موقفه من الاسلام والحياة. هو ـ حقاً ـ رجلٌ عميقُ الايمان بالله. لم يكن يساوره أي شك في صحة المعتقد، ولكن موقفه الديني اتسم بالتراخي وعدم الالتزام الذي كان «موضة» بين طبقته من المثقفين ـ المسلمين بالاسم ـ المتعاطفين، بدافع الشهامة أو المجاملة مع الاسلام، ولكنهم يحلون أنفسهم من كل التكاليف. وكانت هذه ظاهرة واضحة في الحلقة المحيطة بالعقاد، وهي المجموعة التي دافعت عن الدين كميراث فكري أو «بيت العيلة» لا أكثر ولا أقل.

شعر سيد قطب بأن الاسلام أخطر من ذلك، ويجب أن يؤخذ بجدية، وكحلٍ ممكن للأزمة الكبيرة التي يشعر بها.. الخواء الروحي واليأس الخانق الذي أصابه من معاقرة الأدب والثقافة الغربية.

المرارة والوحشة اللتان مني بهما، وهو يبحث عن السعادة في الحب وفق المفاهيم الأوروبية الشائعة في الفيلم والرواية.. النفاق والازدواجية في المؤسسات السياسية المنقولة له حرفياً من باريس ولندن. هل الاسلام حقاً يستطيع أن يقدم البديل الذي يريح القلب، ويشبع الروح، ويخرج البلد الحائر من أزمته السياسية والاقتصادية.. ويقيم نظاماً يحقق السعادة للفرد والعدالة للمجموع؟

بصراحة، كان مدوخاً في تلك المرحلة من العذاب التي تضني المفكرين قبل الوصول الى اليقين. لم يكن صغيراً في السن، فهو في الثانية والأربعين، بلا حب ولا زواج ولا أطفال ـ فاقد الأمل في الحصول على السعادة، عاقد العزم على عدم تكرار التجربة العاطفية ـ مسلم وليس بمسلم، ولا هو يصلح كـ «خواجه».. مشبع بثقافة الغرب وحضارته،

ولكنــه ضاق بهــا، يتمنى خلعها كأي صعيدي من أسيوط شلحوه من «الزعبوط»، وحشروه في بنطلون ضيِّق عليه عيشته.

باختصــار، كان قانـطاً، مكـروباً، مخلوعاً من الوطن، في طريقه الى معانقة حضارة، يعاديها سلفاً، ويحمِّلها وزر ما يعانيه من عذابات.

الليل ساكن على ظهر المركب، فيما عدا طنين المحرك ودوي الأفكار. فجأة تقتحم عليه عالمه سكرانة، اختلطت فيها رائحة الكحول والبارفان بعطن العرق البدني وزفارة رطوبة البحر.. عارية، أو شبه عارية.. جلدها شحم أبيض، خُيـل اليه بأنه لحم بقرة مسلوخة. إنها جثة تبحث عن مدفن، أو هي «زومبي» خرج من قبر. بدت مقززة ومرعبة وهي تطلب منه في رطانة سكرانة أن يصحبها للفراش.

لا رومانسية، ولا حب يولد في ضوء القمر كزنبقة، وحاجة الروح تنبثق من أعمق الأعماق ليأتي التعبير الجسدي تتويجاً طبيعياً رائعاً وسامياً وليس حسياً. هذه الجاموسة البيضاء المشلوحة الجلد هي التعبير الحي عن امتهان الحضارة الغربية للحب.. هذه هي النتيجة لتغليب الحيوان فينا، وتحويل الانسان الى ماكينة شغل، وماكينة جنس بذيئة.

مفكـرنـا كان، وسيـظل، حتى في أعنف حالاتــه الثــوريــة، سيظل «رومانسياً» يكره القبح وامتهان القيم المثالية، من أعمق أعماقه. لقد فر من البقرة الملتاعة وهو يكاد يتقيأ. ومنذ تلك اللحظة، وحتى يعلق على حبل الظلم، قرر أن يحتمي من قبـاحات العالم في ظلال القرآن ـ لا يفارقه المصحف ـ لا يفـوتــه فرض، عبداً ربانياً لا يقيس الأمور إلا بمقياس العقيدة. باختصار، أصبح مسلماً ملتزماً. وعليه ان يبحث عن جماعة المسلمين حتى يحقق معهم ايمانه، فالاسلام ليس فكرة فردية.

يصــل الى امريكا، أرض المعجزات والأحلام والفرص الكبار، ولكن ليراها على ضوء جديد باهر، غمره بقناعة يقينية: انه ليس متسولاً فقيراً متخلفاً، جاء يشحذ زاداً فكرياً من السيد الغني الفائق العلم والأخلاق.. بالعكس، وصل الى نيويورك وهو يشعر أن مخه ليس وسخاً يحتاج الى غسيل، بل هو الممتلىء بالنور، جاء الى منبع الوساخة. هذا الاحساس المطلق بالتعملق هو خاصية غريبة في العقيدة الاسلامية، جعلت بدوياً

جافاً مهلهل اللباس، مثل المغيرة بنْ شعبة يدخل على قائد الفرس رستم، فلا يكترث بالحرس المزنر بالحديد والسلاح، ولا بالأفيال العملاقة، ولا بالأبهة المحيطة بالعرش المحمل بالجواهر والذهب والفضة، بل يطوي البساط تحت أقدامه، ويربط فرسه بسرير رستم، ويبلغه باختصار بالانذار الثلاثي المعتاد: «الاسلام، أو الجزية، أو القتال».

هذا الكبرياء هو المصل الواقي ضد الصدمة التي تنتج عن مواجهة التفوق المادي.. عزة الاسلام تعطي للمسلم رصيداً من التفوق الروحي يشعره أنه الأعلى.. إنه السيد المكلف بملء الأرض نوراً وعدلاً.

لم ينبهر سيد قطب بما رآه في بلاد «العم سام». وبالعكس. رأى فيها الانحلال الحضاري في أضخم صوره، رأى فيها ظلم فارس وبيزنطة مجتمعين، ومضروبين في مليون. إن هذا المجتمع الذي يبيع الوهم لجماهيره، حيث الفرصة مفتوحة لكل امريكي ليصبح «روكفلر» أو «فورد»، فيجعلهم عبيداً للطموح المادي، يأكلون وهم يركضون.. ينامون بالأقراص، وينشطون بها.. كل متعتهم يمارسونها «عالواقف».. ورغم ذلك فعدد أصحاب الملايين في امريكا لا يتجاوز ٥٪، وباقي الـ ٩٥٪ يعانون العذاب، ويحلمون بفرصة يستحيل أن تتحقق، بل إن وراء الواجهة الغنية جداً، تختفي أكبر كمية من الشقاء في العالم، وفقراء امريكا يعيشون تعاسة مضاعفة لأن القيم السائدة تؤكد أن العيب ليس في النظام الوحشي، بل العيب فيهم، فهم مصدر فقرهم، وهم وصمة في وجه المجتمع الناجح.

وكذلك العدل الامريكي، ليس إلا ظلماً في أفدح صورة، فهو لا يأتي لك بحق، بل يطالبك بالقتال لتحصيله، ويتيح لك الفرصة لمعركة متكافئة، وفي النهاية يصفق لمن ينتصر، سواء كان الحق معه أو عليه. هذا ليس مجتمعاً، بل مجتلد روماني، يوضع فيه الأسد بمواجهة العبد، على أساس أن هذا هو العدل.

هذا الكلام، وأشنع منه، قاله سيد قطب. ونشره بعد عودته ـ ١٩٥١ ـ في أعنف حملة على امريكا السياسة، وأمريكا القانون، وأمريكا الجنس الذي تحول الى اهانة لكرامة الانسان، ولدور المرأة، ورسالة الأسرة. كان

هجوماً مخيفاً أدى الى فصله من وظيفته في وزارة الأشغال الامريكية..
آسف.. أقصد المصرية.

كنت في الخامسة عشر من العمر عندما أعطاني سالم الزهوي كتاب «العدالة الاجتماعية في الاسلام» كي أقرأه وألخصه للاخوان في السهرة التالية للكتيبة.

كانت أول مرة أقرأ كتاباً جاداً ينسف كل ما قرأت سابقاً ويفتح أمامي عالماً بدا لي جديداً بمعلوماته ومفرداته، وأيضاً ببساطته المستحيلة. وعندي حق فأنا تعودت أن أنهل معارفي من مجلة «البعكوكة» وزميلتها «المسلة» التي تفخر بكونها «لا جريدة ولا مجلة». أما ثقافتي الأدبية فمعظمها من روايات «أرسين لوبين» و«روايات الجيب».. واذا تعاظمت قرأت الروايات الاسلامية كما طبخها الماسوني جورجي زيدان. أما هذا الصنف من الكتابة المحشوة بالديناميت، فلم يرد علي قبل ذلك، ولذا كان كتاب «العدالة الاجتماعية في الاسلام» المفصل الأول فيما أتناوله من قراءات. وبدلاً من تلخيصه وجدتني أنقله بالحرف، وأقرأه على الاخوان على أربع حلقات، فقد وجدت حراماً أن أختصر منه حرفاً واحداً يخل بالمعنى المتكامل المربوط، والمستعصي على أي اختصار.

وأذكر أنني سألت الأخ عبد البديع صقر عن الأخ سيد قطب، فأخبرني انه كاتب اسلامي، ولكنه ليس من الاخوان.

ودهشت جداً، وسألت: وهل يوجد كاتب اسلامي ليس من الاخوان؟

فرد: «يوهوووه» العقاد ليس من الاخوان، وهو عملاق يفكر جيداً، ويتصرف بمنتهى السوء.. ومحمد حسين هيكل يكتب عن محمد ويشتم أتباعه.. وطه حسين يكتب عن الاسلام كلاماً كالعسل، ولكنه لا ينسى حشوه بالسموم، الاسلام بحر واسع. الكل يغرف منه، بعضهم لوجه الله، وأكثرهم لوجه الأبالسة.

ـ ولوجهِ من يكتب سيد قطب؟

ـ هذا رجل يكتب لوجه الله، والله أعلم بما تخفي القلوب.

وبحثت عن كتب أخرى للرجل، فوجدت له رواية شديدة الحزن سماها «أشواك»، وهي عمل رومانسي، أقرب لأعمال أحمد عبد الحليم

عبد الله، مع مسحة صدقٍ ذاتية أخاذة.. هذه الرواية بهدلتني في سن مبكر، فهي فجيعة عاطفية لشخص حالم، يتصور العالم عدة مُسلَمات، فالسعادة أمر محتوم، وتحقق الأحلام مرهون بمشيئتنا وتحت أيدينا، ولكن هذه البراءة شبه العذرية، تصطدم بأن المجتمع الجديد المتمدين والذي يبشر بالحب الجميل هو في الواقع وحش يخنق الأحلام والمُثل التي يبشر بها، وانــه حوَّل العواطف الى بضاعة، وحول الذين صدقوه الى ضحـايـا، وأن المدنية الحديثة لم تحل المشكلة الحميمة للانسان، بل قضت عليه بالتعاسة في الحب، وبالعبودية والتضليل في السياسة، فهي بهذا حضارة خاوية كل شعاراتها أكاذيب، وكل هياكلها فارغة أو مسكونة بشيـاطين المصلحــة والغـرض، وان الانســان فيها أبعد ما يكون عن السعادة والحرية.

ولما كان الرجل هو كلامه، لا يتعامل مع الحياة بازدواجية، فانه خرج بقرارين كبيرين:

القرار الأول: لن يدخل في علاقة حب أبداً ما دامت عوامل التزييف الاجتمــاعي ستقضي على هذه العاطفة وتغلها بالقيم المزيفة والمعادلات المادية، وما دام لن يحب فلن يتزوج.

القرار الثاني: فانه كما طلق الزواج القائم على التزييف، طلق الحزبية التي قامت على الادعاء والانتهازية، والتسلق على أكتاف الجماهير، ثم التخلي عنها وعن المبدأ عند أول منعطف.

وأنت عنـدمـا تريـد الاقتصاص من المجتمع ومعاقبته على خطاياه ضدك، فأنت لا تقتص إلا من نفسك، ولا توقع العقوبة الا عليها، وهكذا يتضاعف عذابك الخاص وتمزقك الشخصي.. وحلني حتى يشعر أحد بمحنتك الذاتية.. وخبرني متى تحرك ضمير المجتمع من أجل عذاب أو مأساة فرد.

البوذيون الذين أحرقوا أنفسهم وهم جلوس على قارعة الشوارع في سايجـون، والمســاجين الذين صاموا حتى الموت في ايرلندا الشمالية، ونســاء «غـرين كومون» اللواتي قضين سنوات في العراء، يحاصرون قواعد الصواريخ النووية.. كلهم تحولوا الى فرجة مسلية في تلفزيونات

العالم، يثيرون الدهشة و«الدروشة» كالحاوي الذي نصفق لعجائبه، ولا نبالي بمعرفة قضيته.

الفترة ما بين ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ قضاها سيد قطب يعذب نفسه بقراراته كفقير هندي لا يأكل سوى الزجاج، ولا ينام إلا على سرير من المسامير، ولكنه لم يكن مستسلماً.. كان يبحث عن حل، ليس لمأساة «الحب الفاشل».. كأفلام فريد الأطرش، ولكن كحلٍ شامل لمأساة التعاسة الانسانية التي ضلت. ويا له من درب رهيب، ذلك الذي دخله، وسار فيه مسلحاً بعذابه.. درب تاه فيه الفلاسفة، وأطار لب المتصوفة، ولكن صاحبنا كان موقناً بأنه يقترب، وأن الضوء الذي يهديه محفوظ في صدره منذ طفولته. بدأ يتعرف على القرآن، ويطرح عليه أسئلته.. ودائماً كان يجد الاجابة ـ تركت فيكم، ما إن اهتديتم به، فلن تضلوا أبداً ـ وكان صاحبنا مؤمناً في الأساس. وهذا هو المهم.

خلال ذلك كان يكتب، ويكتب بقسوة. قلمه مبضع حاد في يدِ جراحٍ ماهر، وقد رأينا الى أي حد أغضب «فاروق»، فاقترب من الزنزانة. وتحين الفرصة للنظام كي يتخلص منه بطريقة أظرف.. بعثه لأمريكا، يدرس فيها أساليب التعليم، والأهم من ذلك ان يتعلم هو، أن ينبهر بقلعة الحضارة الغربية المادية فينسحق أمامها... يغسل مخه من الأفكار الخطرة المعششة فيه عن الاسلام، وعن العدالة الاجتماعية، عن مادية الغرب التي أفلست، ولم تقدم سوى الاملاق الروحي.. التعاسة. سيجد في امريكا عكس كلامه، سيجد الازدهار والدولار، وأرض الفرص الواسعة، والشعب الشبعان لحمة، والمرتوي «كوكا كولا».. وحيث الحب مباح تحت الكباري، وفوق الأشجار، وعلى المقاعد الخلفية لـ «الكاديلاك»، و«الباكار». كل رجال أمريكا كلارك جابل، وكل نسوانها هيدي لامار.

كانت الموضة بعد الحرب هي «أمريكا» الفتية المنتصرة، والحرة التي تكره الاستعمار. ألم تكن هي الأخرى مُستعمرة عانت النهب والمهانة على يد الانجليز، وشربت من الكأس نفسها التي شربت منها مصر؟

وانهالت الدعوات والبعثات البريئة على الصحفيين والمثقفين المصريين

بسخاء مشبوه، وقُبلت بحسن نية، فلم تكن لأمريكا طموحات معروفة، ولم تكن بعد قد أفصحت عن مخططاتها للمنطقة.

وكـان من ضمن الذين دُعوا، وسافروا، وانبهروا فكتبوا، مصطفى أمين الذي بشر بالعصر الامريكي العادل والسعيد.

سيد قطب تلقى دعوة أخرى، وسافر ليعود بأحكام أخرى، وليقول كلاماً آخر.

ممتعة بلا حدود، قراءة هجائيات سيد قطب التي كتبها عن أمريكا عام ١٩٥١، بعد بعثة السنوات الثلاث التي قضاها في مجتمع الكاوبوي، المجتمع الذي جعل أفضل فضلائه هو الأسرع في اطلاق النار على قلب خصمه، وأفضل فاضلاته المرأة الأسرع في خلع ملابسها لأي عابر سبيل إلا زوجها الذي يمارس الرياضة نفسها وهو يمضغ اللبان، وحيث السود والكـلاب في مرتبـة واحـدة، وحيث القضاء مغامرة يخوضها محامون مضاربون، لا يهمهم أين يوجد العدل، كل همهم الحصول على نسبة الأسـد من التعويض، فالقاضي ملاكم، والقضاء حلقة صراع تحكمها المضاربة، أما العدل فغير مسموح له بالدخول، فهو أخو الفقر، والفقر والفقراء مكروهون في امريكا كراهية العمى والجذام.

يمكن الاستـدلال على مبلغ النفوذ الأميركي الذي يتسلل خافتاً في مصر قبيل الثورة في منح مفكرنا بعثة في امريكا كي يعود داعية للاحتلال الجديد ومعارفه. وعندما لا يفعل ما توقعوه طردوه من وظيفته، فقد عاد ليكتب ليس على غرار مصطفى أمين مدائح في حضارة الأزرار والأقراص، بل كتب ليقول إن امريكا هي صورة الافلاس الكامل لحضارة الغرب.

فقدان الوظيفة في مصر هو أكبر عقوبة لمصري، لأنه الدليل الكامل على خيبة الأمل والصياعة وإنعدام القيمة.

كان هذا صدامه الأول مع النظام السائد، أو هزيمته الأولى بتعبير أدق، لكن كتـابته هذه بالضبط التي شرَّح فيها النظام الرأسمالي على اليمين، وأدان بها المعسكر الشيوعي على الشمال، معلناً ضرورة عودة الاسـلام وأمته الوسط كحل لمشكلة مصر الحائرة، ومشكلة الانسانية اللاهثـة في الغـرب، والسجينة في الشرق.. لفتت إليه نظر دعاة التيار

الاســلامي، فاتصــل به صالح عشمــاوي يدعــوه للانضمام للاخوان المسلمين، فأقبل عليه بشوق: «إنني ولدت من جديد، عام ١٩٥١».

هكذا يقول عن احساسه عندما أصبح أخاً ملتزماً، وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

لقد اكتشف الاسلام في أثناء رحلته لأمريكا، وها هو ينتمي لجماعة المسلمين عقب عودته، فتحول قلقه الروحي الى اشتعال لا يخبو. لديه الفكـر والايمان، وأمامه الساحة والجماهير. لقد اجتمعت كل الخمائر المطلوبة لتحقيق التغيير المطلوب.

مصر يومها كانت تتجهز أيضاً للتغيير، ولكن في الطريق المضاد. كان الانقلاب العسكري يندفع من تحت بقوة غريبة كي يقطع كل الطرق التي بدأت تتفتـح لاحداث التغيير الحقيقي والطبيعي. وفي عام ١٩٥٢ يتم اختيار سيد قطب لعضوية «مكتب الارشاد» وهو الهيئة القيادية العليا للجماعة، والتي يترأسها المرشد العام حسن الهضيبي في ذلك الوقت، وفي العام نفسه، يصبح مسؤولا عن جهاز «نشر الدعوة» الذي يتولى تربية كوادر من الدعاة وإصدار منشورات ومطبوعات إسلامية.

ويــأتي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالجيش الى الحكم، ويتولى محمد نجيب منصب رئيس الدولة، ويتفــاءل «الاخــوان المسلمون» بالعهد الجديد، فجميــع الضباط الأحرار هم أساساً من «الاخوان»، أو كانوا يوماً من «الاخوان».. والاتصالات مستمرة بين «مكتب الارشاد» و«مجلس قيادة الثورة»، والتفاهمات قائمة حول تطبيق أغلى الأهداف ـ الحكم بالقرآن ـ والاجـراءات تتخذ لاعادة فتح التحقيق في جريمة اغتيال حسن البنا. وفتحت ملفات قضايا تعذيب الاخوان في المعتقلات. باختصار تصرفت الثــورة كأنهــا تحقيق جميل للحلم الاخواني الطويل ـ هل كان مجرد خداع؟ وتصرف الاخوان على أن الثورة تخصهم.. هل كان حسن نية مفـرطاً؟ ـ وفي تلك الفتــرة إلتقى سيد قطب الذي أصبح أبرز مفكري الحــركــة الاســلامية وأكبر منظريها مع «البكباشي جمال عبد الناصر» بصفته القائد الفعلي لتنظيم الضباط الأحرار، وصانع الأحداث من وراء الستار.

ويقال ان إعجاباً صامتاً شب بين الرجلين، فكلاهما صعيدي تقطع رقبته ولا يقول «آه». وكلاهما متحفظ، وغير مؤمن ولا راضٍ عن القيم «الهلس» الخليعة، الواردة من الغرب. أيضاً عبد الناصر رأى في صاحبه نموذج المفكر العميق الذي ينقصه، والذي تمنى ان يكونه، كما رأى سيد قطب في عبد الناصر الشخصية القيادية الحديدية الارادة، ورجل التنظيم، وهذا ما لم يتوفر له. أيضاً جمع بينهما أن كليهما نموذج متطهر «بيوريتاني» غير قابل للافساد. وقد ظهر هذا الاعجاب المتبادل والود العميق معبراً عن نفسه علناً، عندما قام عبد الناصر يهنىء ويحيي سيد قطب في المؤتمر الذي تولى الأخير تنظيمه ورئاسته، وكان يدور حول موضوع «التحرر الثقافي والوجداني في الاسلام». هنا نجد أنفسنا أمام شخصين جديرين، كلاهما يعجب بصاحبه بل يكمله، كما أن اسلام عبد الناصر كإسلام قطب، عميق الجذور، بل وبالغ الهيمنة على تكوينهما النفسي وتصرفاتهما، فلماذا أخذت الاحداث مجرى معاكساً تماماً، ليصطدم ممثل القوة بممثل الفكر بهذه القسوة؟

لماذا لم تتواصل المسيرة في مجراها الطبيعي وتتكامل الشخصيات في إطار واحد ـ الحاكم والحكيم ـ بدلاً من ـ القاتل والقتيل ـ والمصير المرعب الذي وصلنا اليه؟

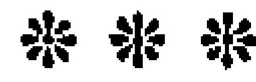
هنا تتضارب الأجوبة، وتتناقض التفاسير: شهوة السلطة.. ظروف البلد.. بطانة الحاكم.. سوء حظ الرجلين، وسوء حظ مصر... إلخ..

غير مقتنعٍ أنا بكل هذه الأطروحات، ولكني أرى خيطاً يلح على وجداني، سأشده من وسط النسيج الملعبك، وليكن ما يكون:

لقد قدمت أمريكا هدية للمفكر الصاعد سيد قطب: ثلاث سنوات علم وفسحة، ونسوان تعرض نفسها عليه لتحل عُقده، وتنتزع أشواكه بالطريقة الحضارية اللذيذة، ولكن الصعيدي المسلم «زرجن»، ورفض، وعاد الى مصر مخاصماً الذين استرضوه وحاولوا ترويضه، وأوغل في خصومته لحد العداء، فأرادوا أن يلقنوه درساً ليعرف مقداره ومقدارهم، ففصلوه من الوظيفة فصلاً مسبباً ـ قلة أدبه مع العم سام ـ فاذا هو يصبح أكثر خطورة عندما ينضم الى «الاخوان»، ويسيطر وحده على

جهازهم العقلي، فيفسدهم على أمريكا. ويقفز مرة أخرى، ويكاد يصبح عقل الثورة ـ وهذا ما لا تطيقه أمريكا ـ ان يتحالف الصعيدي المسيطر مع الصعيدي المفكر، على أرضية إسلامية ضدها. هذا كابوس..

هنا يتسحَّب محمد حسنين هيكل ليدخل على عبد الناصر، ليس كمفكر ـ فهذا ليس حجمه ـ بل مجرد «ترزي»، وصوت سيده ـ له أكثر من سيد ـ لقد قدمت امريكا البديل، وأصدرت حكمها بقتل الأصيل. كلام ثقيل على القلب، ولا يستند الى أدلة... مجرد «تأول» فسامحوني.



حتى الآن لم يفسر لنا أحد عجائبيات ذلك العام ١٩٥٤.. كيف أن حركة عسكرية تربى كل قادتها ومعظم ضباطها في حضن الاخوان، تنقلب لتفتك بهؤلاء الاخوان. لا يمكن أن تكون العلاقة العقائدية ورفقة السلاح في حرب فلسطين ١٩٤٨ ومعركة القناة ١٩٥٠ مجرد عمليات نصب وضحك على الذقون، ويستحيل أن يكون تنظيم الضباط الأحرار جاء بنية الغدر المبيتة ضد الذين أقسم لهم على الولاء حتى النصر أو الشهادة، أو يكون الوفاء للبدلة والكاب أعمق من الايمان بالعقيدة.

ان القطيعة بين الجناحين، والتي تطورت الى مذبحة للاخوان على يد العسكر، إنما تمت بفعل فاعل، وهو فاعل لم يكشف عنه الستار ـ ربما لأنه ما زال يلعب من خلفه ـ المهم تفجر الموقف، وانتهى شهر العسل بين الطرفين، وانقسم الاخوان داخلياً مع الهضيبي وضده، أو بشكل أدق، أعلن الخلاف الذي بدأ مخفياً منذ اللحظة الأولى لاختيار المرشد الثاني في تسوية مع النظام القديم.

أنضم سيد قطب الى الشرعية، وأيد الهضيبي، فعينه رئيساً لتحرير صحيفة «الاخوان المسلمون» فيصدر منها اثني عشر عدداً، لتوقفها الكارثة.

في ٢٠ اكتوبر ١٩٥٤، يطلق محمود عبد اللطيف الرصاص على جمال عبد الناصر وهو يخطب في ميدان «المنشية» بالاسكندرية.. ويقبض عليه،

ويعترف أنه من الاخوان وعضو في «التنظيم السري»، وان هناك مؤامرة انقلابية ارهابية ستغرق البلد في الدم... الخ.

هل كانت هناك مؤامرة فعلا؟

هل الموضوع كله من تلفيق النظام للتخلص من آخر خصومه وأقواهم؟

لا أحد يستطيع تقديم إجابة قاطعة، وسيختلف الاخوان والناصريون، اختلاف «بكر» و «ذبيان»، ولن نصل معهم الى نتيجة.

عموماً، هناك شواهد حدثت في تلك الفترة، لا يمكن اغفالها:

ـ في أزمة مارس، لفق النظام الاضرابات العمالية برشوة «صاوي أحمد صاوي» رئيس نقابات عمال النقل ـ الذي أصبح وزيراً ـ وهو حادث أجمع عليه الرواة، وأقرّ به عبد الناصر نفسه في حواره مع أكرم الحوراني حول دور الشعب وقدسية رأيه: «متقوليش رأي الشعب.. أنا بعشرين ألف جنيه غيرت رأي الشعب في أزمة مارس».

ـ الذين عاصروا وشاهدوا حادث حرق الاخوان لجامعة القاهرة عام ١٩٥٤، وأنا منهم، يعلمون ان الذي أطلق الرصاص في الهواء، وجرى خارجاً مخترقاً البوابة بعربة الجيب يقلبها ويشعل فيها النار هو ضابط المخابرات كمال يعقوب يساعده طلبة «منظمات الشباب» في كلية الهندسة، يتزعمهم شعراوي عميل الصاغ وحيد رمضان.

لهذا فان قيام النظام بتلفيق التهم وافتعال الأحداث، مسألة كانت ماشية، ومعركته مع الاخوان كانت معركة حياة أو موت، فما الذي يجعله يعفّ عن ممارسة التلفيق ضدهم؟

عموماً، تلك نقطة فرعية، المهم أن أجهزة «بيريا محيي الدين» انقضت على الجماعة بأقصى شراستها، وتشكلت محكمة تفتيش برئاسة قائد الجناح جمال سالم المشهور باختلاله العقلي والعصبي، وعضوية القائمقام محمد أنور السادات، وسميت على سبيل الفكاهة «محكمة الشعب»، فان ما دار في جلساتها من مهازل يدخل في باب «الكوميديا السوداء»، خاصة عندما يحاكم السفيه الفاسق قيادات الحركة المؤمنة، ويعايرهم بقلة اسلامهم، ويقارنهم بنفسه ـ أي والله ـ وانتهت المهزلة

بشنق سبعة من كبار الاخوان، وسجن ٨٦٧، يضاف لهم ٢٥٤ حوكموا أمام كذا دائرة عسكرية.

في هذه المهزلة العلنية، حوكم مفكرنا سيد قطب، وأدين طبعاً. وفي ١٣ يوليو ١٩٥٥ صدر الحكم بسجنه خمس وعشرين سنة مع الأشغال الشاقة. وهكذا بدأت رحلته مع العذاب الرهيب في «ليمان طره».

العقدة انك لا تستطيع ان تسجن مفكراً، فأنت تحدد إقامته الجسدية فقط. أما عقله فيندفع أشد عنفاً وانعتاقاً. أيضاً لا تستطيع أن تقتل مفكراً، فدمه يروي ويخصب بذور أفكاره، فتنمو وتتسع وترتفع، وكلما حاولت اجتثاثها تشبثت وتجذرت في أركان الأرض، وظهرت في أكثر من صورة، بأكثر من مكان، وسيد قطب هو تحقيق معاصر لهذه النظرية القديمة، فكلما قلبت حجراً في الشارع الاسلامي، وجدت تحته عشباً من فكر الرجل العجيب والخطر معاً.

في زنزانته، هو مريض معظم الوقت، يفكر طوال الوقت، يكتب أو يملي بعض الوقت. على هذا الحال كتب عدة أعمالٍ، لعل كتابه «في ظلال القرآن»، أكثرها تعبيراً عن حالة الصفاء العقلي الحاد، والسمو الروحي الذي يعلو على الألم البدني، والذي يمكن الصوفي من المشي فوق النار وتجاوز قوانين الطبيعة، لا يمكن أن يكون حالة مادية بأية صورةٍ من الصور.. وبدءاً من العام ١٩٦٢، ستخرج المسودات الأولى لكتاب «معالم في الطريق» من الزنزانة نفسها لتجمع الشتات، وتقود ثورة على ضوء جديد تماماً، والنهاية بعد ذلك معروفة، وكأنها سجلت سلفاً.. سيشنق الفكر، ويبقى المفكر.

لكن ما هو هذا الفكر؟

ولماذا اتخذ صورة الانفجار النووي الذي تتسع قمته كلما ابتعدت عن مصدره؟

«معالم في الطريق»، كان الكتاب الأخير في سلسلة مؤلفات شغلت حياة فكرية هادرة، بدأت مبكراً جداً، وتواصلت لفترة طويلة، وهي بعيدة جداً عن الخط الاسلامي تماماً، مجرد تهويمات ذاتية تعبر عن ذاتها في أدبيات من النوع الدارج، وقلق ثقافي ظهر على شكل مقالات نقدية،

اتسمت بالعنف المهيـج والصـادق معـاً.. وسننتظر طويلاً، من مطالع العشرينـات وحتى ابـريـل عام ١٩٤٥، ليطل علينا سيد قطب الكاتب والمفكـر الاسلامـي في مؤلفه الجميل «التصوير الفني في القرآن». وهو عمل أدبي لا علاقة له بالنظرية، ولكنه كان علامة الميلاد، انقطع بعدها ليعـود الى ممـارساته النقدية لفترة استمرت أربع سنوات، وفي ابريل ١٩٤٨، يصدر كتابه «العدالة الاجتماعية في الاسلام»، وهو نقد سياسي اقتصـادي للنـظام الرأسمالي والنظام الشيوعي، وتقديم خلاب لنظرة الاسلام في توزيع الثروة داخل المجتمع. كان هذا الكتاب كشفاً جديداً بالنسبـة لجيـل الاسـلاميين الجدد، زودهم بالأدوات اللازمة جداً في الصراع الدائر حول المستقبل، والذي ملأه ماركسيو الأربعينات بالجعير حول الحتميـة التـاريخيـة لانتصار «البروليتاريا»، و«التفسير المادي للتاريخ». لقد رفع الاسلاميون قامتهم وصوتهم بالعدالة الاجتماعية في الاسلام.

٢

"مجتمع المسلمين"

حلف الجوع والتدين

أترك سيد قطب معلقاً في حبله، وبسمته الغريبة ترفرف في الذاكرة منذ لحظة إعدامه عام ١٩٦٦، لأنتقل عشر سنوات كاملة الى عام ١٩٧٧ متابعاً أحداث الفكر، وليس الفكر نفسه.

لماذا؟

ربما لأن المكان لا يسمح ولا يستوعب... ربما لأن الوقت غير مناسب.. ربما لأنني غير مستعد لمناقشة فكر ما زال في حالة شغل، وأنا لم أستطع، حتى اللحظة، تحديد موقفي منه، أو الفصل بين الخيط العاطفي والخط الموضوعي.. حيث عقلي يناقش قلبي، وقلبي يقود قلمي - وأنا لا حيلة لي.. ربما عدت ذات يوم أكون أكثر هدوءاً.. أما الآن فدعونا نقفز مع الأحداث ونربطها بالفكر الذي هيمن عليها.

أفتح النوتة على عام ١٩٧٧، فأجدني أسكن «عزبة سواريخ» في بيت بلا ماء، ولا مجاري له، ويضاء بكهرباء مسروقة، ومحاط بغيطان الذرة ومهربي الحشيش والغرز المتخصصين في لف «صواريخ المزاج» والتي أعطت المكان اسمه المسخرة «سواريخ».

أركب يومياً مترو حلوان مع مئات الألوف من عمال مصانع الحديد والصلب والسيارات والاسمنت والاسبستس والحرير.. و.. و.. وهكذا قُدر لي أن أشاهد وأشارك غصباً عني في «انتفاضة الحرامية» في ١٨ و١٩ ينـاير ١٩٧٧، والتي فجرها ركاب هذا القطار في أشهر محطاته «باب اللوق»، فعمت مصر من الاسكندرية الى أسوان. حيث حاصرت الرئيس،

وأخرجت الجيش من الثكنات، ليؤدب الشعب الذي جاع فصرخ.

١٩٧٧، سافرت الى لندن للمشاركة في إصدار صحيفة «العرب».

٤ يوليو ١٩٧٧، تصلنا، على الوكالات، أخبار تنظيم «التكفير والهجرة» الذي قام بخطف الشيخ محمد الذهبي وزير الأوقاف المصري السابق، كرهينة ثم قتلوه فيما بعد. تعرفت على واحد من هذا التنظيم في القاهرة، ولمست من حوار مكهرب معه ان العالم تغير جداً، وأنني لم أعد أعرف شيئاً عن التيار الاسلامي الذي انتميت اليه، وتربيت على نهجه في صباي وشبابي الباكر. وأيضاً عاينت على الطبيعة الترجمة العملية لفكر سيد قطب كما يراها جناح شكري مصطفى، وتحملت أن يجردني شاب في سن ابني من نعمة الاسلام، فأنا جزء من الجاهلية المعاصرة. وهكذا فان دمي حلال، ومالي حلال، وعرضي حلال. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. الى هذا الحد انقطعت الجسور، وتعمقت الهوة. وخلال متابعتنا للقضية من لندن اكتشفنا أن المسلمين الانجليز أكثر تفهماً وتعاطفاً مع التيار الاسلامي الجديد، فوجدناهم يرسلون البيانات للصحف، ويتظاهرون أمام السفارة المصرية مطالبين بتخفيف احكام الاعدام على شكري مصطفى وجماعته.

لقد تحالف الجوع مع التدين ضد الرئيس المؤمن، ليتبدد رصيد معركة العاشر من رمضان، وليُشتم علناً في مظاهرات ميدان التحرير:

«قوم يا وحش.. شوف الجحش.. بيعمل ايه».

«يا جيهان قولي للبيه.. كيلو اللحمة بقى بجنيه»(*).

وهذا ليس هتافاً، بل عريضة لاسقاط نظام فقد الجدارة والاحترام، وكان على السادات ان يتصرف بسرعة لمواجهة المأزق الذي وضع نفسه فيه، فهو لا يضمن الجيش اذا خرج من الثكنات الى الشوارع مرة أخرى، فقد ينضم هذه المرة للجياع.. لأنه هو الآخر جاع، والجيوش تمشي على معدتها.

في نوفمبر ١٩٧٧، سافر الرئيس المصري الى القدس ليخطب في الكنيست، ويصلي عيد الأضحى في المسجد الأقصى. يومها قلت لأحد

---

* اليوم عام ١٩٨٨ وصل سعر كيلو اللحم لعشرة جنيهات!!

الزملاء بالحرف:

ـ هذا الرجل مقتول لا محالة.

ولم أكن أتنبأ. كنت أتذكر فقط ذلك الحوار بيني وبين الشاب الملتحي ذي الجلباب القصير في «بولاق الدكرور»، والذي يرى العالم من منظور مختلف.. منظور الانسان المنفي والمحقون باحساس القهر من قبل سلطة جائرة، وسلطان غشوم ـ مملكة سيد قطب الفكرية في كتابه الأخير «معالم في الطريق ـ وقد رأيت ساعتها أن الرئيس قدم لهم حيثيات قتله.

السادات، وهو حاكم ميكيافيلي، من النوع البدائي جداً، بدأ عهده بمصالحة التيار الديني القديم المتمثل في «حركة الاخوان المسلمين» بقيادة عمر التلمساني ومجموعة العجائز.. الذين طحنهم عبد الناصر. وكان الرئيس المؤمن يتصور انه بهلوان، يلعب بالبيضة والحجر، فهو سيوظفهم في استقطاب التيار الاسلامي الشاب حول مجلة «الدعوة» التي سمح بصدورها شهرية، وبذلك ينفس الميول الانقلابية الهادفة لاقامة دولة الاسلام. وهي ميول لم تختف، بل عبرت عن نفسها عملياً في «بروفة» انقلاب «الفنية العسكرية» الذي قاده حسن سريّه في ابريل ١٩٧٤، وفشل في آخر لحظة.

من ناحية أخرى تصور الرئيس ـ البهلوان انه سيلعب بالجماعات الاسلامية القوية للغاية داخل الجامعات المصرية، وسيكنس بها التجمعات الناصرية والماركسية. نسي أن خصومة ذلك التيار الناصري الماركسي هي خصومة حنجرية، مهما علت صرخاتها، فهي جعجعة بلا طحن، أما الخصومة مع التيار الاسلامي، إذا وقعت، فهي كفرٌ وتكفير، وإهدارُ دم.

ومن سوء حظ السادات في عام ١٩٧٧، أن صدامه مع جماعة «التكفير والهجرة» وقع بين فكي كماشة لحدثين، أحدهما اقتصادي ـ مظاهرات الرغيف في يناير ـ وثانيهما سياسي ـ زيارة القدس في نوفمبر ـ وأصبح على «البهلوان» أن يلعب بالبيضة والحجر وأصبع الديناميت، بالجوع والدين والخيانة.. وثبت أن هذا فوق طاقته، ويتجاوز امكانياته.

وضح ارتباك النظام وركاكة تركيبه منذ اللحظة الأولى التي طولب فيها

بمعالجة قضية شكري مصطفى وجماعته.

هل هي جريمة خطف وقتل عادية، كالتي تقع في «جرجا» و«قنا» طلباً للفدية. أم هي جريمة سياسية لها خلفيات اجتماعية واقتصادية؟

الرأي الأخير حاز القبول في البداية، خاصة وأن المتهمين واجهوا المؤسسة الحاكمة بنظرية في الحكم والسياسة والدين، لم يسبق لها ان طرحت بهذا القدر من التحدي. ورأى الجانب المستنير من النظام ان يهزمهم فكرياً، ويعريهم من الجدارة عقلياً، ويرفع عنهم المظلة الدينية التي رفعوها. حتى اذا أدينوا لم يتحولوا الى شهداء.

الجيش كان له رأي آخر.

وقد يسأل جاهل: وما دخل الجيش في قضية مدنية فقهية سياسية لا تضم في احرازها زر بدلة، ولا رباط حزمة «جيشي»؟

وعلينا أن نذكِر الجميع أن مصر يحكمها العسكر منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وأن الجيش هو الذي يواجه الجياع في الشوارع في يناير ١٩٧٤، فتسلم السلطة فعلياً وحول الرئيس الى «أراجون»، فمن الطبيعي جداً أن نجد التنظيم الديني يقف أمام محكمة عسكرية تدينه وتدين معه مشايخ الأزهر.

حوكم شكري مصطفى وأعدم، وظل حتى آخر لحظة من عمره يتحدى السادات ونظامه أن يجادله، وهذا لم يحدث مطلقاً. وهكذا بقيت الأمة لا تعرف عنه، وعن جماعته شيئاً.

والذي لا يعرف القضية، لا يحق له أن يحكم فيها، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالمعتقد، وباجتهاد مستحدث في الأحكام الفقهية.

ورغم انني إلتقيت بواحدٍ من التنظيم بالقاهرة، ودار بيننا حوار عنيف، أشبه بمشي السيارة على المطبات وهي مخفوتة الاطارات، فإنني خرجت يومها أقرب للدائخ مني للفاهم..

هنا، في لندن، أتيحت لي بعض المصادر، وأيضاً المعلومات التي ساعدتني على الفهم ـ بعض الفهم ـ وسأحاول ربط الأمور بعضها ببعض... الشخص بالظروف، الفكر بالتطبيق، أملاً في كشف الغموض.

ولد شكري مصطفى في يونيو ١٩٤٢، وجيوش روميل تطرق بوابة

مصر الغـربية، و«الوفد» يحكم بعد ان فرضه الانجليز بالدبابات التي أحاطت بقصر عابدين..

كنا يومها في أول شهر يونيو، والصعيد جهنم حمراء تذيب الشحم واللحم، وتحـول سطح الأرض الى مقـلاة يتقـافز فوقها البشر كحبات الحمص فوق النار.

القرية اسمها «أبو خروص»، تابعة لمحافظة أسيوط، وتبعد ساعتين مشيـاً عن القـرية التي ولد فيها إمامه الروحي سيد قطب الذي كان ساعتها يعاني من «الحب على الطريقة الغربية»، ويكتب مقالات نقدية يهاجم فيها طه حسين.

والده.. كان «حضرة العـمـدة» الذي يحكم «الدايـر»، ليس باسم الحكومة ولحسابها، بل باسم التقاليد الدموية التي تحكم هذه البقعة من الصعيد الأوسط.

الطبيعـة هنا متطرفة كالناس، وكموقع القرية التي تحتضنها غرباً مرتفعات الهضبة الليبية ـ الجبل ـ وهذا الجبل وحده دنيا، فهو مليء بالمغـاور التي يصعـد اليها «المطاريد» الهاربون من وجه العدالة، فلا يطالهم مخلوق، يعيشـون كالطيـور الجـارحـة، ينقضـون على القرى المجاورة يخطفون رزقهم، ليعودوا الى الأمان في حضن الجبل الرحيم.

الحكومة غير موجودة هنا، رغم الطريق العسكري الذي شقه الجيش في حضن الجبل ليسهل وصول القوات التأديبية التي ترسلها الدولة كي تثبت وجودها وتؤدب عصاتها. وفي العادة تصل الاخبارية عن التجريدة القادمة للأذى، قبل وقت كاف، فتنتقل «أبو خروص» بكامل ناسها، وما يعتد به من متاعها وأنعامها الى مغارات «جبل ليبيا»، يعتصمون به من طوفـان الشر الرسمي، ولا ينزلون الى دورهم الخالية حتى يخرج آخر عسكري مصري من أرضهم المحتلة.

هذه النفسية المتمردة على السلطة، ستكون أحد المعالم الأساسية لشكري مصطفى، وستلازم تفكيره السياسي وتقوده حتى صدامه النهائي مع النـظام السـاداتي. أيضاً يتوجب علينا معرفة أن زمام القرية من الأرض الزراعية قليل، ومياه الري شحيحة، فتحايل السكان على الرزق

بالجـرأة على القانون، فمقابر «أبو خروص» ليست خالصة لموتاها، بل يشاركهم فيها الحشيش الذي يزرع محلياً، وهو من أردأ الأصناف في الدنيا، ولكنه يصبح مقبولا بعد خلطه بالمستورد من حشيش «البقاع» في لبنان.

هناك أيضاً ستجد مع الأموات كميات كبيرة من السلاح المسروق من مخازن الجيش والبوليس، والذي يُهرب من هنا ليباع في طول مصر وعرضها.

وهكذا «أبو خروص» قرية مناكفة، حيث لا الحي مرتاح، ولا الميت مرتاح.

هنـا ولد شكـري مصـطفى في بلدٍ يعتمد في رزقـه بالخروج على القانون، وحيث الحكومة باب «لا منه ولا كفاية شره»، والخارج عليها هو البـطل الذي تُنـظم باسمـه المـواويل، والجبل مملكة الليل التي تدين لـ «السبع».. «الشارب من بز أمه».

تشبع صاحبنا بهذه المفاهيم مبكراً، وظلت تقوده رغم أنه غادر «أبو خروص» وهـو صبي صغـير، بعـدهـا هجر أبوه والدته، فصحبت تلك صغيرها لتعيش به في كنف أهلها بعاصمة المحافظة أسيوط، أكبر مدن الصعيد وأجملها.

هذه المدينة الأخيرة كانت أبداً ذات نبض طائفي وطبقي، فهي تضم أكبر تجمع مسيحي في البلد. ومنذ دخول الانجليز مصر عام ١٨٨٢، ونغمـة اختيـارهـا كعاصمة لوطن مسيحي يقام في صعيد مصر، تعلو لتختفي، كالحوت القاتل يصعد لسطح الماء ليتنفس ويغطس، ولكنه خطر في الحالين.

في مطلع القـرن الحـالي عقد فيها مؤتمر مسيحي سياسي، رد عليه المسلمون بمؤتمر عقدوه في مصر الجديدة. ولم تنته تلك الجولات التعسة بين الطرفـين إلا عنـدمـا أطلق «الورداني» وهـو أحد شباب الحركات السرية، نيران مسدسه على بطرس غالي باشا رئيس وزراء مصر فأرداه قتيلاً.

هذا عن النبض الطائفي، أما النبض الطبقي فعبر عن نفسه في عدد

من القصــور البــاذخــة التي صممها مهندسوها بكل فخفخة طرازي «البــاروك» و«الركــوكو»، واستوردوا لها الرخام من ايطاليا، والمرايا من انجلترا، والكريستال من بوهيميا.. وأغرقوها في جنات من نخيل وأعناب.

هذه القصور القلاع يملكها «بارونات» الاقطاع، مسلمون ونصارى على السواء، فكونوا طبقة متماسكة تضع مصالحها فوق الأديان.. بل حاولوا دائماً وبفجاجة وضع الدين ورجال الدين في خدمتهم.

عندما شب شكري مصطفى كانت الدنيا انقلبت، وجاء نظام جديد أخـرج «بـطارقــة» الاقطاع من حصونهم، فأصبحت القصور الغابرة مقرات للاتحاد الاشتراكي، وأقساماً للبوليس، وادارات حكومية.

دخـل فتانا المدرسة الخيرية الاسلامية، بدلاً من الكلية التبشيرية الامريكية في أسيوط ـ التي دخلها قطب ـ وتخرج من التوجيهية بمجموع متواضع لم يسمح له بالقبول إلا في كلية الزراعة، فالتحق بها. ويبدو انه تعرف بالتنظيم الاسلامي الجديد خلال تلك المرحلة بالذات، فقُبض عليه عام ١٩٦٥ وهــو يوزع منشــورات ذلك التنظيم داخل الجامعة، وقدم للمحاكمة فأدين ودخل «ليمان طرة» في البداية، ثم نقل الى «ليمان أبو زعبل»، وهو ألعن وأشد وطأة. وكانت نقمته على النظام بالغة، وقد هزته من الأعمــاق محــاكمــات وأحكام التنظيم، فتعمقت في فكره حقيقة أن المجتمع جاهلي، وأن النظام جعل من نفسه إلهاً يحيي ويميت، وأن الناس ـ وخــاصة بالصحافة ـ يؤلهونه ليل نهار، ويزينون له سوء أعماله، وأن العمل الاسلامي أصبح فريضة ملزمة يحاسب عليها من يتقاعس، أو يتخلف.. وأن طريق العمل واضح في كتاب «معالم في الطريق»، ولا عذر لأحد.

طوال ست سنـوات يكسر أحجار البازلت ويمضـغ غضبه وأفكاره.. ويتناقش مع إخوة السجن: متى.. وكيف.. ولماذا؟

وفي جو السجن تنبت الأفكار الظالمة والمنحازة، وما أسهل ان يظلم المظلوم صاحبه وشريكه في العذاب من شدة المرارة التي تطفو من داخله، لتصبغ العالم من حوله.

قال لي صديقي الطيب حسن دوح: «في السجن، يا صاحبي، خاصة

إذا طوّل مصحوباً بالعذاب والخوف.. يطفو الرعب البدائي على السطح، ويتحول الانسان الكامل الذي كرمه خالقه، وجعله على شاكلته، الى شيء أقرب للفأر في المصيدة، فهو يدور حول نفسه، وأفكاره تطحن رأسه كأنها غربان تصيح مع بعضها، ويتأجج العذاب في الداخل والخارج معاً.. ويصبح الهواء مشبعاً بالكراهية، فأنت تكره أخاك في الزنزانة لأن ملامح التعاسة المعلقة على وجهه تذكرك بالتعاسة التي مررت حلقك، هو المرآة التي تلقط معاناتك وتعيدها اليك مضافاً لها تعاسة شخص آخر.

وأنت تكره ذاتك لأنك تصورت نفسك قادراً ثم اكتشفت انك ضعيف مهان، لا تملك رد صفعة السجان، ولا «شلوت» حضرة الضابط.

وأنت تكره العالم كله الذي تآمر عليك وأسلمك لنقمة أسوأ خصومك. ولا يخرجك من هذا الجحيم إلا المصحف، وذكر الله والاحتساب إليه، فله الأمر من قبل ومن بعد».

لا شك أن الاخوان في «ليمان أبو زعبل» خاضوا في هذه الحالة من الكراهية الشاملة بعد اعتقالات ومحاكمات ١٩٦٥.

وسنجد مجموعة الاخوان الشيوخ يصابون بالفزع من الهول الذي فتحه كتاب «معالم في الطريق» باتهام المجتمع بأسره بالكفر، وبأنه يمثل «جاهلية القرن العشرين»، وتصوروا - وعندهم حق - ما سيجره هذا الفكر من صدام نهائي مع السلطة، وسيلتف الشيوخ حول حسن الهضيبي الذي وضع كتاباً بعنوان «دعاة لا قضاة»، أكد فيه على أن المهمة الرئيسية للاخوان هي هداية الانسانية بالتي هي أحسن، وليس الحكم عليها وتكفيرها، لأنه ليس من حق فرد أو جماعة أن تدعي لنفسها الحق في تكفير المسلم، فالايمان سر بين العبد وخالقه.. و«نحن لا نحاسب الناس على ضمائرهم».

كتاب الهضيبي هكذا، يتسق مع خلفيته كرجل قانون - مستشار سابق - ومع ماضيه كجزء من النظام لا يفكر إلا في الشرعية، ولا يتصور الخروج عليها، وموقعه السابق كصهر للأسرة الحاكمة..

الذين التفوا حوله، اعتبروا كلمته فاصلة، فهو إمام الجماعة، ومن لا يسلم بذلك يعتبر في حكم الخوارج الذين أتعبوا الامام علي وأدى

حماسهم المندفع الى قتل ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وانهاء حكم الخلفاء الراشدين، فطعنوا قضيتهم بخناجرهم.

جناح الشباب الذي دخل السجن لأول مرة، كان الأمر معه مختلفاً تماماً، فقضية تكفير المجتمع محسومة ولا تراجع عنها.. ولكن الخلاف بينهم تفجر عنيفاً حول المرحلة التالية ـ مرحلة المفاصلة ـ كيف سينفصلون عن المجتمع الجاهلي الذي يعيشون فيه وتحكمهم قيمه الجاهلية وقوانينه الوضعية، التي ما أنزل الله بها من سلطان؟

الجناح الهادىء منهم، قال كلاماً مختلفاً عن هذا الكلام، متفقاً معه في الوقت نفسه، معناه:

لقد اتفقنا في تحليل المجتمع على انه فعلاً جاهلية، وأن الحاكم يتصرف كإله لا راد لكلمته، وان الرعية تعبده من دون الله، وتسير وفق مشيئته، وان إسقاط هذا الطاغوت أصبح فريضة كل مسلم خلصت نيته لله.. ولكننا نعيش داخل هذا المجتمع، وفي قبضة الطغيان نفسه، والدعوة ما زالت في مرحلة الاستضعاف، ولم تبلغ مرحلة التمكن التي تكفل لها القوة الضرورية والمطلوبة لتدمير كل دولة الشيطان، وإقامة دولة الرحمن.

والحل؟

الحل أن نعيش داخل اطار هذا المجتمع ونعزله في ضمائرنا، فلا نواجهه بإعلان كفره دفعة واحدة، فنعطيه المبرر الذي يبحث عنه ليعصف بنا، فلنعش أوضاعاً أشبه بـ «التقية» التي يتبعها الشيعة في مرحلة «التكتم» حتى انهم يصلون خلف «امام» هو في مذهبهم «كافر» لا تجوز الصلاة خلفه!

إذاً فدعونا نتعامل مع الجاهلية حتى تحين ساعتها على أيدينا، ولا داعي لاعلان تكفيرنا العلني لها، ولنكتفي بالعزلة الشرعية، الثابتة في قلوبنا.

لهذا أطلقوا على أنفسهم اسم «جماعة العزلة الشرعية».

الجناح الآخر، قال إن هذا كلام لا يجوز، ويجب «تكفير» المجتمع فوراً، وممارسة «المفاصلة الكاملة»، فيهاجر مجتمع المؤمنين ليقيم بعيداً عن مجتمع الكُفر، كما هاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أصحابه من

مجتمــع «أبـو لهب» في مكة ليقيم مجتمع الايمان في يثرب.. ولا مكان لـ «التكتم» أو «التقية»، بل هي «المفاصلة الكاملة».

بالطبع، انضم «شكري مصطفى» الى الجماعة الأخيرة التي سمت نفسها «جماعة المسلمين» وسماها خصومها «التكفير والهجرة»، ليتفق الاسم مع مضمون فكرها، فالزعيم شكري هو نتاج مجتمع «أبو خروص» المنعزل والمعادي لكل ما حوله، والذي يعيش ناسه الخروج المأساوي على القانون.

قائد الجماعة الروحي، ومُنظِّر فلسفتها، كان طالباً أزهرياً شاباً اسمه «عـلي عبـدو اسمـاعيل». كان حاد المزاج واللسان، قاد بجماعته عدة تفجرات في السجن، استعملت فيها مفردات شتائم من العيار الثقيل، وأيضـا القبضات والأكواز والجرادل. وتواصلت القطيعة صعوداً حتى يصبح الاخوان وهم لا يتبادلون السلام إذا تقابلوا، بل عوضوه بالبصق المتبادل في الوجوه الكريمة!

كان الأخ علي عبدو يضيق حلقة المؤمنين، ويوسع دائرة الكفر، مما خلق له متاعب بلا حدود، حتى داخل مجموعته المتوترة أبداً.

وذات يوم متجهم كالعادة، في صيف ١٩٦٩، تقدم الأخ علي عبدو وأمَّ صلاة الجماعة. وبعد أن سلم ودعا واستغفر، إستدار نحو إخوانه، ودون أن يصافحهم أو يناقشهم إذا به يخلع جلبابه ويلقي به على الأرض، ويقف بينهم في ملابسه الداخلية قائلا: «اني أعلن أمام الله وأمامكم انني خلعت مجتمع المسلمين، كما خلعت ثوبي هذا.. وانني أعود لخط الجماعة كما حدده مرشدنا حسن الهضيبي في كتابه «دعاة لا قضاة» فمن تبعنا فهو منِا، ومن عصانا وخرج علينا، فحسابه على الله، ولا أخفي عليكم انني اجتمعت بالمرشد، وسمعت منه، واقتنعت بما قال، وغفر الله لي ولكم».

ولنا ان نتصور وقع هذه الردة المفاجئة للقائد على أفراد مجموعته الذين يقفون وحدهم ضد العالم، مؤمنين بأنهم الفئة الناجية التي تعيش للحق وتموت في طريقه، لا تفارقه، ولا يفارقها وها هو علي عبدو يخلع الحق كما يخلع جلبابه.

تشاتموا، وتضاربوا، وتبادلوا اللكمات، والتكفير، وفي النهاية لم يبق في الخندق سوى شكري مصطفى الذي أصبح إمام الجماعة، وحوله حفنة من الحواريين، قرروا وتعاهدوا أن يسيروا حتى النهاية.

وكسبت قرية «أبو خروص» جولتها.

بالنسبة لشاب مثل شكري مصطفى، تشرب قيمه الاجتماعية في قرية «أبو خروص» التي تعيش منعزلة عن الوادي في حضن الجبل بالصعيد «الوسطاني» فإن فكرة اعتزال المجتمع ثم العودة الى الهجوم عليه، تبدو فكرة طبيعية، بل مختلطة بالدم، فأبطال بلده كلهم من الخارجين على القانون الذي يطاردهم، ويسميهم الأهالي «المطاريد»، ولا يجدون لهم مأوى سوى الجبل، يصعدون إليه، فيصبحون ملوكاً لليل، يفرضون شروطهم على الأقوياء، ويساعدون الضعفاء، ويرهبون الحكومة.. أسطورة «روبن هود» الشائعة في مجتمعات البطش، والعميقة الجذور في تربة الصعيد، وفي شخصية الصعيدي.

قد يبدو هذا الكلام لا علاقة له بالاسلام والتيارات الاسلامية، ولكنه في صميم الموضوع، فالاسلام كفكر يقود الحياة، يتأثر في التطبيق بحياة أفراده وطبيعة المجتمع.. فالمسلم في نجد يختلف في تناوله للأشياء وحكمه عليها عن المسلم في تركيا. وسنجد مناطق التقشف والشدة تفضل مذهب ابن حنبل، ومناطق الرخاء والتبسط تميل أكثر لأحكام الامام مالك، وسنجد أطراف الصعيد والشرقية هي المعاقل الطبيعية لحركة الاخوان، حيث الكوادر المندفعة تاريخياً ضد الحكومة المركزية، وحيث توفر الصحراء ميادين التدريب ودروب الهروب ومخازن السلاح.

لهذا كانت قضية «التكفير والهجرة» كما تبنتها «الجماعة الاسلامية»، مطابقة تماماً لتكوين شكري مصطفى، كأنما هي نابعة من مصادر متفجرة في أعماقه. ولذلك فانه عندما خلع علي عبدو المبدأ مع الجلابية عام ١٩٦٩، متشبهاً بالأشعري عندما خلع علياً، متشبثاً بقميص عثمان، فإن شكري مصطفى تمسك بالمبدأ، وسار على النهج نفسه، شبه وحيد. انخلع الأزهري، الفقيه الأصولي، والسفسطائي، ليبقى سلاح «التكفير» بيد الصعيدي، الأقل علماً، والأشد عناداً، والوفي

لمناقبيات «مطاريد الجبل».

وأخـذت الدعـوة داخل جدران «أبو زعبل» تكتسب صفات مجتمع «المنبوذين» المحرم لمسهم في الهند.

وأصبح شكري أكثر عدائية ووحدة، حتى انضم له ابن أخته ماهر بكري، فبدأ النشاط الحركي يدب في أوصال التنظيم الذي تجمد تقريباً منذ حادث «خلع الجلابية».

كان ماهر منظماً ممتازاً، وداعية نشطاً.. وأصبح تكفير المجتمع من الآن، يأخذ طابعاً اقتصادياً، اجتماعياً، أكثر منه حكماً فقهياً، دينياً ـ الفقيـه خلع ـ أيضـاً الأزمـة الاقتصـاديـة الخـانقـة بسبب «حـرب الاستنزاف»، أمدت الجماعة بالحطب المطلوب.. فالمجتمع الذي لا يؤمن للناس طعامهم هو مجتمع كافر.

والمجتمع الذي يترك الشباب للانحراف، والبنات للعنوسة، لأنهم لا يجدون بيوتاً يتزوجون فيها، هو مجتمع يدعو الى شيوع الفحشاء، لهذا فهو مجتمع كافر... الخ.

إذاً لم تعـد الدعـوة مجرد بحث فقهي فلسفي، بل حملها الشباب ليواجهوا بها مشاكل الناس، ويكلمونهم بلغة حياتهم..

الشقة والرغيف والحرية...

راحة الدنيا وسعادة الآخرة...

مجتمع جديد نقيمه حالاً، نحقق فيه وجودنا، حتى تتاح الفرصة لقلب القديم الذي تعفن، ونحن لسنا مضطرين الى التعامل مع الكفر والعيش فيه، فتعالوا أيها المتعبون المعذبون في الأرض نبني مجتمع الفضيلة الاسلامية.

في أكتوبر ١٩٧١، يُفرج عن شكري مصطفى، ويخرج من السجن الى أسيوط، حيث ينشط في نشر الدعوة، ويتذكر أنه طالب في كلية الزراعة، وانه لم يكمل دراسته، فيكملها، ويتفرغ تماماً لمهمته الاساسية، يطوف في القرى والنجوع، يضم الشباب الى طريق جديد في الحياة ومواجهة مصاعبها بحلول اسلامية وعملية.

كان بلحيته الكثة، وشاربه الحليق، وجلبابه الأسود القصير، وعمامته

ذات الذؤابة، تطبيقاً متطرفاً للسنة المحمدية.. وأصبح مشهوراً في أسيوط وزمامها، حيث يلعب الدين والدعاة الدينيون الدور الرئيسي في حياة الناس منذ كهنة «آمون» وانقلاب «اخناتون». وتصل شهرته الى الجماعات الدينية بالعاصمة المصرية، فتثير نقاشات متضاربة، فيقرر قطب سيد حسين، وهو أزهري غيور على الاسلام، ان يركب قطار الصعيد الى أسيوط كي يعرف بنفسه ما يدور هناك.

يلتقي الشابان، وينبهر «الأزهري» بالتجربة المثيرة، حيث شباب يتركون أعمالهم ودنياهم، هاربين بدينهم الى مغارات الجبل، وهناك أقاموا مجتمعات يحكمها الاسلام، ويطبق فيها الشرع، ويأكل ناسها، ويلبسون ويتصرفون، ويتزوجون بالطريقة نفسها التي كان عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه.

ها هو الحلم الذي راود كل المفكرين الاسلاميين يبدأ في التحقق وتظهر ملامحه..

ويقرر الشيخ قطب أن هذا مجتمعه، وهنا يقوم بالافتاء، معتمداً على الأصول الشرعية، وها قد أرسله الله ساعياً على قدميه لغاية لا يعلمها إلا هو، علاّم الغيوب.

وتنجح الدعوة، ويتزايد عدد الذين انضموا الى المهاجر الجديدة في شقوق الجبال، وتستلفت الظاهرة الغريبة عيون البوليس الذي بدأ يتتبعها بدقة منذ العام ١٩٧٢، والذي سُمي «عام الحسم» في مصر. ولم يجد ممدوح سالم أن في هجرة الشباب المتهوسين الى الجبال شيئاً خطيراً.. بالعكس فهم يعتقلون أنفسهم موفرين عليه تكاليف القبض عليهم وإطعامهم... ولكنه في العام ١٩٧٣ يلقي القبض على مجموعات منهم، وهم يوزعون منشورات هجومية على «جاهلية القرن العشرين» كتبها شكري مصطفى داعياً المؤمنين للانضمام الى «جماعة المسلمين» والعيش في مجتمعات الهجرة، ومفاصلة المجتمع القائم.

رغم ذلك، فإن النظام لم يعتبرهم خطراً عليه.

وعندما تم «العبور» في ٦ اكتوبر ١٩٧٣.. أصدر السادات عفواً عاماً، فتم الافراج عن الذين قبض عليهم، وظلت الحكومة تعاملهم على أساس

انهم مجموعة من «الملاحيس» أو «المجاذيب»، يبحثون عن «خلوة» يتعبدون فيها بعيداً عن ضجيج المجتمع. ولا شك ان السادات المزهو بنصره العسكري، قد ضحك طويلاً عندما وصله خطاب من الجماعة يطلبون فيه السماح لهم بالهجرة الى اليمن ليقيموا هناك، كما فعل بعض المسلمين الأوائل من صحابة الرسول.

كانت الأبعاد الحقيقية لفكرة التنظيم وطبيعته ما زالت مختفية، ورمال المجتمع المصري تتحرك بسرعة لتبتلع أشياء كثيرة، وتطرح ثماراً مُرةً..

ولم يمضِ وقت طويل حتى حدثت الفرقعة الأولى التي دلت على وجود البركان.

نصَّب الرئيس المؤمن نفسه أميراً للمؤمنين وإماماً للمسلمين. وبعد «معركة العبور»، تصور انه طارق بن زياد أو صلاح الدين الأيوبي، وتصور ان نظامه أصبح راسخاً على أُسس من الدين والجيش معاً.. ولكن الذي حدث في العام ١٩٧٤، أذهله بل أثار جنونه، فقد لدغ من مأمنه، عندما تحرك تنظيم اسلامي ومن داخل المؤسسة العسكرية، بهدف قلب نظام حكمه ـ يعني الدين والجيش ضده ـ يا سبحان الله!

كانت المحاولة التي قام بها طلبة «الفنية العسكرية» ضد حكم السادات بمثابة تنبيه بأن الحلف الذي تصوره قائماً بينه وبين الحركة الاسلامية هو حلف من جانب واحد، أو على أكثر تقدير هو حلف بين الرئيس شخصياً وبين مجموعة «الاخوان» العجائز القاعدين في مكاتب مجلة «الدعوة».

بدأت على الفور عمليات مراقبة دقيقة للجماعات الاسلامية، وجند الاعلام، فاقد الشرف، وعديم القيمة، كل امكانياته في إقامة حفلات من «الردح» الرخيص ضد الاسلام السياسي، وضد الجماعات الدينية ـ العمال على البطال ـ مجرد شتم وتكرار لـ «الكليشيهات» الوسخة، التي صُكت في عهد النقراشي وعبد الهادي عام ١٩٤٨، واستهلكت في ضربتي «العهد الثوري» ١٩٥٤، و١٩٦٧.. ولا جديد تحت الشمس.

في مايو ١٩٧٤، سمع الناس عن جماعة شكري مصطفى عندما كتبت عنهم «الأخبار» بقلم الكهين «موسى صبري» تصفهم بأنهم أهل الكهف

ومجرد مجموعة من الشواذ جنسياً، المختلين عقلياً، يسكنون في شقوق الجبـال، ويرفضون التعامل مع المجتمع المتمدن، أو استعمال أدواته الحـديثـة، يتـركـون لحاهم مرسلة، وقد بلغ بهم التخلف انهم خلعوا البنطلونات، ولبسوا الجلاليب... تصوروا!

وتفلسف محـرر آخـر نقـل موضوعه حرْفياً عن تقرير مباحث أمن الدولة، فأطلق على التنظيم اسماً دراميا «جماعة التكفير والهجرة»، وشرح المعنى بأن «التكفير» جاءت من كونهم «يُكَفِّرون» ما عداهم من أفراد المجتمع وفئاته. أما «الهجرة»، فجاءت من هجرتهم من مجتمع الكفار الى مجتمع الاسلام، وهذا التخريج صحيح، ولكنه مبتسر من ناحية، ومن ناحية اخرى فان الاسم الحقيقي الذي اختارته الجماعة لتنظيمهم لم يكن «التكفير والهجرة»، بل «مجتمع المسلمين».

هذا الهجـوم بكل ما حواه من اهانات، أغضب الجماعة، فأرسلت بيانات للصحف، تفند وتوضح.. ولكن الصحف، صحف الحكومة.. لا تنشر إلا كلام الحكومة. وما زلت أذكر جماعات منهم تقتحم مكاتبنا تطلب الحوار والمباهلة، حتى تكون لعنة الله على الكاذبين! ولكن الجُبن والجهل وتهرب المسؤولين في تلك المؤسسات، حرمهم من حقهم في قبول كلمتهم، ونشر بياناتهم، والدفاع عن موقفهم. وهذا موقف لعين، أصابهم بالحنق والغيـظ الشـديـد، حتى أصبـح هاجسهم الأوحد هو: نشر بيانات في الصحف، وأدى هذا في النهـاية الى الحرب بينهم وبين المالكين لأقدار وأقلام هذه الصحف.

كانت الجماعة تتوسع، حتى سكن أفرادها في غرف مفروشة داخل الأحياء الفقيرة في القاهرة وغيرها من المدن، ونظموا فيما بينهم فترات يقضونها في الجبال والصحارى، ولكن تواجدهم في المدن هو الذي أدى في النهاية الى احتكاكهم، وأيضاً صدامهم مع حركات اسلامية أخرى كانت تتنافس مع بعضها على تجنيد الأنصار، وتكوين الخلايا. يومها بدت مصر الاسلامية كلها تنزل تحت الأرض، لتصفي حساباتها مع نفسها.

هل السبب هو عزل الاسلام عن موقعه في قيادة السلطة... وغربة

المسلم في غابة المجتمع الهجين، بقيمه الجاحدة للايمان؟

هل الضربات المتكررة للتيار الاسلامي أفقدته الثقة في التعامل الطبيعي مع النظام البوليسي، ونسفت الثقة بين مجموعاته المختلفة؟

كل ذلك وغيره أكثر من جائز، وأكثر من محتمل.. ولكن النزول للعمل تحت الأرض في مناخات أفسدها الشك، وضغط الرقابة المباحثية، يؤدي في النهاية الى مرض النفوس، فتتفشى «البارانويا» والرعب على سلامة النفس المرتبطة بسلامة التنظيم:

«إذا خاننا فلان، وقعنا في يد من لا يرحمنا، وضاع جهد السنين.. والمشنقة هي المصير»..

مثل هذه الحوارات الدستويفسكية سوداء ومريعة، وهي ايضاً الوجبة الرئيسية واليومية للعاملين تحت هذه الأرض.

على هذه الخلفية يمكننا أن نفهم الصرامة غير الطبيعية التي تعاملت بها التنظيمات السرية مع من يخرجون عليها.

تنظيم شكري مصطفى أو «الجيش السري الفرنسي»، وحتى «المافيا» تشترك في هذه الظاهرة، رغم اختلاف الدوافع والظروف..

لذلك فعندما تمكنت حركة منافسة من ضم اثنين ينتميان الى «مجتمع المسلمين»، اعتبر شكري مصطفى ذلك بمثابة «ردة» عقابها في شريعته القتل. وصدر الحكم وبدأت المطاردة تحت الأرض... رهيبة، صامتة، دؤوبة. وتحت ضغط الخوف والترقب، هرع المحكومان بالموت الى البوليس واعترفا بكل شيء وطلبا الحماية.

هذه فرصة لا يفلتها النظام الذي أحنقه أن ينقلب الاسلاميون عليه كي يصبحوا ألدّ أعدائه، وهو الذي اعتمد عليهم في ضرب خصومه.

وفي خريف ١٩٦٧، خرجت كل كلاب السلطة المدربة.. بعضها للصيد، وبعضها للنباح.. وقُبض على عشرات من أفراد التنظيم، وأصبح شكري مصطفى أخيراً من «المطاريد»، مطلوباً للحكومة، كغيره من رجال «المواويل» في بلدته «أبو خروص».

أما الذي أوجعه حقاً فهم «جوقة» نباحي الصحف الذين صوروه مع جماعته كزمرة من القتلة، كل همهم إرهاب الناس، وتهديد أمنهم...

«لم يقتلوا أحداً حتى تلك اللحظة!».

أفزعه هذا الكلام الذي يراه ظالماً له، ولمجتمع المسلمين الذي حلم به.. وعاد لخطئه القديم.. عاد يكتب بيانات ويرسلها للصحف.. لجميع الصحف!

ولا كلمة نشرت...

ولا سطراً واحداً رأى النور.

الأوغاد يطمسون الحق.. لا بد من عمل يجبرهم على الانصياع.

وكان العمل هو خطف وزير الأوقاف السابق الشيخ محمد الذهبي في ٣ يوليو ١٩٧٧، واحتجازه كرهينة حتى يُفرج عن الاخوان المقبوض عليهم بلا جناية.. و.. حتى نشر بيان يوضح حقيقة الجماعة في الصحف!

نعم بيان في الصحف!

ورد النظام بتكثيف المطاردة بضراوة، فنفذ «المطاريد» وعيدهم وقتلوا رهينتهم، وتحركت الأجهزة لتلقي القبض على المئات من أعضاء الجماعة. وبعد محاكمة سريعة أحيطت بالطبول وقنابل الدخان، أُعدم شكري مصطفى ومعه أربعة من القيادات من دون أن تتاح لهم الفرصة كي يشرحوا الحقيقة كما رأوها.. ومن دون أن تعرف مصر من هم ولماذا قتلوا.. ولماذا إنقتلوا.

هكذا تكلم شكري مصطفى

نوفمبر ١٩٧٧، في لندن، والدنيا برد جداً، وصحيفة «العرب» تزحف في شهورها الأولى، وأنا أدخل حلقة الأربعينات من العمر، وكل شيء غير واضح، في الشغل وفي الحياة، تقفز أخبار محاكمة تنظيم شكري مصطفى على ماكينات «التيكرز»، وتحمل لنا وكالة «الأسوشيتدبرس» صورة بالراديو للمتهمين في قفص الاتهام، نشرناها على الصفحة الأولى. وقد لفتت انتباهي تلك الحدة الثاقبة في نظرة زعيم الجماعة، فرسمته، ربما كي أقرأه أعمق.

تذكرت الوجوه العديدة من أفراد الجماعة الذين لاحقونا في الصحف، والذين صحبني بعضهم الى مجاهل «بولاق الدكرور» و«المحمدي»... هل في الصورة المهزوزة أحد أعرفه؟

كلهم متشابهون، بلحاهم وأغطية رأسهم، فلا تتعب نفسك.

وتحرك المسلمون الانجليز يدافعون عن الجماعة، ويدينون المحاكمة المكلفتة - ثلاث جلسات - ويطالبون بايقاف تنفيذ الأحكام الظالمة - إعدام خمسة وسجن مئات - وخرجت مظاهرة منهم تحمل اللافتات وتهتف أمام السفارة المصرية. وعندما وصلنا في صحيفة «العرب» بيان منهم نشرناه بحياد شديد. ورغم ذلك بقي التنظيم مجرد صورة مسخ مشوه. بالضبط كما رسمته أجهزة النظام. ولأنني مهتم، فلم أتوقف عن السؤال والبحث حتى كونت صورة مختلفة تماماً عن هذا الاختلاق المعهود... كيف؟

في محكمة أمن الدولة العليا وطوال أيام السادس والسابع والثامن من نوفمبر ١٩٧٧، وقف شكري مصطفى أمام قضاته من عسكر الجيش يشرح مفهومه عن الاسلام والدولة والمجتمع، ويقدم تعريفاته حول العزلة ومرحلة «الاستضعاف»، والهجرة، والتمكن.. يعني باختصار، يقدم ترجمته الخاصة لمفردات «معالم في الطريق» الذي مات صاحبه سيد قطب منذ احدى عشرة سنة.

أهمية شكري انه وضع المعالم أمامه، وسار أشواطاً خطرة على

الطريق.. أضاف التنفيذ العملي الى الأساس النظري، فأربك، ليس النظام وقضاته فحسب، بل أربك الحركة الاسلامية أكثر من الكل.

أول مفاهيمه هو انكاره لأي علم خارج القرآن.. «الله يعلم وأنتم لا تعلمون»، وبناء عليه، فالمفروض على المسلم ألا يبحث عن العلم إلا عن طريق الكتاب والسنة، وبذلك يخرج الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعي، ومذاهبهم الأربعة التي اعتمدت القياس العقلي ومصلحة الأمة كمصادر للشريعة بعد الكتاب والسُنة.. محتجاً بأن فتاويهم واجتهاداتهم، اكتسبت قداسة الكتاب المُنزل، وهذا شركٌ صريح، وهو يقول لقضاته:

«وأحب ان ألفت انتباهكم هنا، لأن حال المسلمين أخذت تتدهور منذ ذلك الوقت الذي توقف فيه الانسان المسلم عن استخلاص الدروس مباشرة من الكتاب والسنة، واتبعوا الفتاوى التي وضعها غيرهم، من هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم لقب «أئمة».. وهذا أمر ما أنزل الله من سلطان.. فالقرآن نزل بالعربية، ولهذا فهو جليٌ واضح، وكل المطلوب لفهمه هو معجم جيد لتفسير المصطلحات القرآنية..

فبأي منطقٍ تصبح احكام الأئمة الأربعة أكثر تطبيقاً واقناعاً من القرآن نفسه؟!

ولماذا تصبح أحكامهم بحاجة لأحكام أخرى تشرحها، فنوغل مبتعدين أكثر وأكثر عن المصدر القرآني، وعن السنة النبوية؟

ثم ما هو المبرر لاغلاق باب «الاجتهاد» بعد الأئمة الأربعة؟ فلا تتعرض أحكامهم للانتقاد.. حتى لقد أصبحوا أصناماً تُعبد من دون الله، فعدنا للوثنية المرذولة.. وهم بهذا وضعوا أنفسهم ستاراً بين العبد وربه، وبذلك أخرجوا أنفسهم من الاسلام، وأصبحوا في عداد الجاهلية.. وأُقفل باب الاجتهاد أمام الجميع.

ولكن هل أُغلق حقاً باب الاجتهاد كما ادعوا زوراً وبهتاناً؟

الواقع أن الباب بقي مفتوحاً على مصراعيه أمام أغراض جماعة العلماء الذين سخّروا الدين لخدمة الحكام الطواغيت.. يصكون لهم الفتاوى بالمقاس وحسب الطلب.. فأحلوا لهم الحرام، وحرموا الحلال،

بصرف النظر عن من هو الحاكم.. وماذا يريد.. فأجازوا الربا وتغاضوا عن الدعارة وأصبح الخمر صناعة وطنية في دولٍ اسلامية، وإذا أردتم أمثلة على ذلك، فهذا سهل وواضح لا يستطيع أن ينكره أحد:

ـ الشيخ محمود شلتوت إمام الجامع الأزهر، في أول عهد الثورة، أصدر فتواه بجواز الفوائد البنكية بالنسبة للمسلم.. بينما غالب الجمهور من الفقهاء يعتبرونها ربا.. وقد حرم الله الربا بنص قرآني.

ـ الشيخ متولي الشعراوي، الرجل المقرب من السادات، أفتى بتحليل السندات المالية التي تصدرها الدولة بفوائد ربوية، وهذا خروج على الشرع الاسلامي.

ـ الشيخ سعاد جلال، يفتي بأن شرب البيرة جائز، فهي ليست في حكم الخمر.. حتى لقد سماه الناس سخرية وهزءاً ـ الشيخ سعاد ستلا ـ على وزن اسم أشهر بيرة في مصر «بيره ستلا».. وهذا حرام.

وفي مجتمع لا يحرم الدعارة ويعتبرها جزءاً من الاقتصاد السياحي، ويحلل الربا ويجعله قاعدة التعامل مع الدولة، ويصنع الخمر في مؤسسة تملكها الدولة ـ قطاع عام ـ والقانون المدني المعمول به في المحاكم يعطل تطبيق القانون السماوي.. وحركة تحرير المرأة أهانت بناتنا وأخواتنا فأخرجتهن سافرات في الشوارع. إن ما يحدث للنساء في الأوتوبيسات والمحلات العامة، ما هو إلا الزنا مقنعاً، فالزنا قد يكون بالعين أو بالأذن أو باليد، كما ورد في الحديث الشريف.

لكل ذلك يجب ان نطهر الساحة من فقه الأئمة الأربعة ومذاهبهم، ونعيد فتح باب الاجتهاد الذي جعله العلماء قاصراً على تبرير مظالم الحكام.

وتلك هي المهمة التي أوكلني بها الله، ووضعها على عاتقي، وسأقوم بها بعونه تعالى لأصحح المسار، وأفتح الباب الذي أغلقوه، وأعيد تفسير القرآن والسُنة، مستنبطاً منها الأحكام، ولتكون وحدها مصدر التشريع»..

هذا التخريج فيه غلو كبير، ولكنه أيضاً ليس صادراً عن فراغ، وخلال متابعة محايدة للأفكار والأحكام والحلول التي وصلت اليها المجموعة،

سنلاحظ دائماً انها جاءت نتيجة لضغوط الظلم الذي ولد الانفجار. ولم ترحم أحداً، لأن أحدا لم يرحمها.. وانها نظرت الى الواقع وحللته، وأخذت تهاجمه بالأدوات النظرية التي وضعها سيد قطب في كتابه الذي هو خلاصة عذابه.

إنها مرحلة الذين تعذبوا، وعذبوا أنفسهم، ووضعونا على طريق العذاب العظيم.

إنه الصراط، أو المُطهر في جحيم دانتي، إما أن نعبره الى السعادة الأبدية وإما أن نهوي من فوقه الى الشقاء المقيم.

عندما تتصدى لهدم مجتمع بأسره لصالح مجتمع جديد تحلم به، فلا مناص من التحيز المطلق في الأفكار، والتطرف لأبعد مدى ضد أفكار المجتمع القائم.. وهذا يعني انك غير منصف، ولا يمكن أن تكون منصفاً.. ولا شك أن شكري مصطفى في قفص الاتهام أمام قضاته العسكر، لم يكن عادلا، وهو يهاجم أئمتنا الأربعة، مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، ويصفهم بأنهم تحولوا الى «أصنام في هيكل لا يمت للاسلام»، وانهم أقفلوا باب الاجتهاد، وقدموا الفتاوى التي تدعم سلطة حكام البغي. فالرجال الأربعة، كما يشهد فقههم، لم يكونوا أصناماً، بل مفكرين عظاماً، يعتمدون العقل ومصلحة الأمة، وقبل كل شيء يصدرون احكامهم عن ايمان عميق بالعقيدة، وعدم التأول، والالتزام المطلق بالكتاب والسُنة.

أيضاً لم يقفلوا باب الاجتهاد، بل أقفله السلطان العثماني سليمان القانوني عندما أمر بجمع الفقه الاسلامي في كتاب واحد منعاً للخلاف.

أما الفتاوى المصكوكة لصالح حكام البغي، فلا يتحمل إثمها الأئمة الأربعة، بل العلماء المرتزقة، وهم العملة الرديئة التي أغرقت السوق بما يلزم من الشحم لتليين التروس.

بعد أن ينتهي شكري من تصفية الماضي وإثبات عدم جدارته - جاهليته - يستدير بالمعول نفسه الى رموز الحاضر، الى المهمة الحقيقية.. الى عملية «المفاصلة الكاملة» مع المجتمع القائم، الذي يرى فيه «جاهلية القرن العشرين».. ويبدأ بالمساجد!

فوراً يصفها بأنها معابد تقدم فيها فروض الطاعة للطاغوت، فمساجد الله فقط تعمر على التقوى، ليذكر اسمه وليس تعليمات الحكومة وفقه «الأصنام الأربعة». وهو يصنف المساجد المصرية الى:

ـ مساجد حكومية... وهذه تابعة لوزارة الأوقاف، وإمامها عادة أزهري، موظف في الدولة، يقبض منها راتبه، فيؤم الناس ويعظهم حسب توجيهات أُولي الأمر، وليس أوامر الله ونواهيه، وتأتيه خطبة الجمعة أسبوعياً مكتوبة ومختومة بختم الوزارة وتوقيع الوزير.

وهذا ليس بمسجدٍ، ولا تجوز لمسلمٍ فيه صلاة.

ـ مساجد أهلية، وهذه غير تابعة لوزارة الأوقاف، ويخطب فيها أئمة غير موظفين، وتلك تجوز الصلاة فيها شرط عدم التمذهب بأحد المذاهب الأربعة.. ويقول: «والرأي عندي ان الصلاة في بيتي، أو في بيت أحد الاخوة من جماعة المسلمين، هو الحل الأنسب، في حالتنا هذه».

عموماً، فالصلاة في المسجد، أو في أي مكان خارجه، ليست قضية خلافية، حيث يجوز لأي مسلم أن يصلي في أي مكان، شرط طهارته وتوجهه القِبلة، وتوفر ما يفصله عن الأرض ويحجزه عن الناس... [جرنان قديم، وجزمتك قدامك، والله أكبر....]. النقطة الخلافية التي يرفعها شكري حول صلاة الجمعة، والتي هي رمز لوحدة المسلمين وتساويهم أمام الخالق، وتحررهم من كلِ مخلوق، ومن كل قيد أرضي، عمل كان أو تجارة أو متعة، والتسليم للخالق وحده في كل الأمور.. ومثل هذه شعيرة محملة بهذا القدر من الرموز، لا تجوز إلا بالتجمع في مسجد، كما لا يجوز الحج إلا في مكة.

يواجه شكري قضاته.. يواجهنا.. قائلا:

ـ «إن صلاة الجمعة لا تجوز في مجتمع جاهلي كالمجتمع الذي نعيش فيه اليوم.. فالجمعة شعيرة لا تقام إلا ومجتمع المسلمين ظاهر، والاسلام هو الذي يحكم، وشريعته مطبقة».

وهو يرى أن هذه الشروط لا تتحقق إلا بوصول «مجتمع المسلمين» الى مرحلة القوة ـ فقهياً.. حالة التمكن ـ وهذا يكون عندما يتمكن المسلمون من استلام السلطة، ومن ثم أسلمتها بالكامل. وفي العام ١٩٧٧ كان

شكري وجماعته في ـ حالة الاستضعاف ـ وبالتالي لا تجوز لهم اقامة شعائر صلاة الجمعة، وشبه حالهم تلك بحال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، في مكة ومجتمعها الجاهلي.. فانهم لم يقيموا صلاة الجمعة، إلا بعد الهجرة الى يثرب، ومن ثم انتقالهم من «حالة الاستضعاف» الى «حالة التمكن».. هنا فقط أقاموا صلاة الجمعة.. وهو يشرح حجته قائلا:

ـ «القوة ككل الظواهر الأخرى، لها درجات وأول مراحلها يبدأ بكسر طوق الظلم، ثم الانطلاق، وبداية النصر ـ الغلبة ـ ولا شك ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) عندما هاجر مع أصحابه، كان يبدأ مرحلة القوة الأولى مع جماعته، طالما لم يعد هنا أحد بقادر على أن يفرض ارادته فوق ارادتهم».

فيسأله قاضيه:

ـ «وهل كنت وجماعتك لم تبلغوا بعد هذه المرحلة الأولى من القوة في مصر، حتى تجوز لكم صلاة الجمعة؟».

يرد عليه:

ـ «بالتأكيد لا... مطلقاً لا.. والدليل على ذلك أنه خلال خمس سنوات هي عمر حركتنا، قدمونا للمحاكمة خمس عشر مرة ـ بمعدل ثلاث قضايا في السنة ـ وعانينا من السجن والتعذيب هذه المرة، ومرات كثيرة غيرها، فأين هذه القوة؟ والمفروض ان تكون مكاني في القفص، وأنا مكانك فوق منصة القضاء».

هكذا برفضهم المسجد الحكومي، والمذهب الحكومي، وامتناعهم عن صلاة الجمعة، فإن الجماعة، كانوا يطبقون مفهومهم لمرحلة «العزلة» الكاملة عن عقيدة المجتمع الذي صنفوه جاهلياً.. وفاصلوه، وانفصلوا عنه.. يقيمون مجتمعهم الصدامي تمهيداً ليوم موعود، ينقضون فيه على الجاهلية ليزيحوها كي يقيموا المجتمع الفاضل، حيث كلمة الله هي العليا.. «يوتوبيا» حلوة لكنها العذاب. رفضوا أن يتهادنوا مع النظام وصاحبه السادات عندما كان ينظر بعين الرضا والمصلحة الى الحركة الاسلامية.. وكانوا يعملون بلا كلل ولا رهبة، على تفكيك مؤسساته لاسقاطها واحدة بعد أخرى.. وقد بدأوا بنجاح في هز المؤسسة الدينية

الوجلة لأبعد حد. لهجتهم الهجومية جعلتهم مركز استقطاب قوي للعناصر الاخوانية الشابة التي أخذت تنشق على جماعة العجائز حول التلمساني ومجلته.

يتزايد عدد التنظيم، بناء عليه، ويرتفع عدد المنتمين اليه الى ما فوق الألفين.. وتتسارع عملية تفكيك المؤسسات التي تسند النظام.. وهنا سيجدون أنفسهم حتماً بمواجهة الجيش، أي المؤسسة الحاكمة بالفعل منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. والتي تولت تصفية التيار الاسلامي وبلا رحمة، مرة وراء مرة وراء مرة.

ونحن نناقش قضية الحزن والحنق والدم الذي غرقت فيه الحركة الاسلامية في عصر السادات، ندهش للنتيجة المذهلة التي وصل اليها فكرها.. حيث رأينا شكري مصطفى يعلن أمام المحكمة انه لن يحارب «اسرائيل» تحت رايات الجيش المصري، وأن المخابرات العامة ومختلف أنواع المباحث المصرية حكمها كحكم الصهاينة بالضبط، وأن الحرب تعلنها الجماعة الاسلامية عليهما معاً.. ولكن في «مرحلة التمكن» وليس في «مرحلة الاستضعاف».

والذي يقول هذا الكلام شابٌ في العشرينات، قضى ست سنوات من عمره في «ليمان طره»، و«ليمان أبو زعبل»، وكل جريمته هي توزيع منشورات.

لقد حكم شكري على النظام من خلال ما تلقاه من ضرب وإذلال ونفي.. النظام هو الذي بدأ بتكفيره وتهجيره. باختصار، هو البضاعة التي تم تصنيعها وتعليبها على يد السلطة الغاشمة.. هو أعمالها التي سلطت عليها مخزون العنف الذي صبته على المؤمنين، فارتد الى صدرها.

وسنجد شكري يحرم على جماعته دخول الجيش الذي أصبح حرباً على المسلمين، ويحرم عليهم قبول الوظائف في مؤسسات الدولة الجاهلية، ويمنع عليهم تعليم أولادهم في معاهدها.. حيث الجهل أفضل من تعليم يحض على الكفر، ويؤدي لأكوام من الخريجين الجهلة، الذين يقبضون أسوأ الأجور، ولا يعملون شيئاً.. لا يحللون القرش الذي يقبضونه بالعرق.

هذا التحليل صحيح مئة بالمئة في ضوء الأزمة الكافرة التي تفتك بشعب توقف عن الانتاج، وبدأ حرفياً يتسول لقمة العيش، بينما الاسلام يأمر أهله: «اسعوا في مناكبها، وكلوا من زرقه»، وأن الله يحب إن عمل احدكم عملا أن يتقنه.

ما حدث للمدارس في مصر وحوَّل التعليم الى كارثة، تمثل في جعل التعليم الجامعي مفتوحاً على مصراعيه، وهذا أمر لا تطيقه مصر، ولم يحدث في العالم حيث الجامعة للفئات المتفوقة.

تكدس مئات الآلاف في المدرجات، لا يتلقون علماً، ولا تتوفر لهم المعامل الحديثة، ولا المراجع الضرورية، فانهار المستوى العلمي للخريجين، فبمجرد حفظ مذكرات الأساتذة، و«كام درس خصوصي» تحصل على ورقة ـ بكالوريوس أو ليسانس ـ تقدمها للقوى العاملة فتحصل على وظيفة «ميري» بمربوط الدرجة السادسة، وتقبض أربعين جنيهاً في الشهر، تكفي لشراء فردة جزمة، أو أربعة كيلو لحمة.. وعندما تدخل الادارة التي عينوك بها لن تجد كرسياً تجلس عليه ولا عملاً تتقنه، فالمكان مزدحم بالموظفين الذين لا يعملون شيئاً، وكلهم مثلك معينون في مراكز لا علاقة لها بالتخصص الذي درسوه، فخريج العلوم أرسلوه للأوقاف، وخريج التجارة للضمان الاجتماعي، وخريج الفلسفة لمصانع الألمنيوم... جيوش من الموظفين، يدخلون الدوائر، يفطرون ويشربون الشاي، وبعد ساعةٍ يخرجون بحثاً عن الرزق، على سيارات التاكسي، وتبديل العملة، يركضون في زواريب «الاقتصاد السياحي» وشركات الانفتاح... الخ.

إذاً فالعمل بالحكومة حرام، وقبض راتب بلا عمل حرام.. والحل الشرعي أن يعمل المؤمن كي يأكل من عرقه.. حلاله.

وهذا حلٌ ثوري لأزمة مصر التي تعاني شللا في الانتاج، وتعتمد في طعامها على قمح المعونة وصدقات المحسنين.. مصر التي لم تعد تزرع ولا تقلع ولا تصنع..

الحل الاسلامي البسيط يأمر المسلم بأن يسعى، فالمتقاعس ليس بمسلم، والرسول العظيم جاءه أخوان، أحدهما اخشوشنت كفه، فسأله:

ـ مم؟

فأجاب: من العمل يا رسول الله..

فاستدار الرسول (صلى الله عليه وسلم) للثاني، وكانت كفه ناعمة:

ـ وأنت؟

فرد عليه: انني متفرغ للصلاة يا رسول الله.

فقال عليه السلام: أخوك أفضل منك.

يقول شكري:

ـ اتركوا وظائف الدولة التي أخرجت الناس من كبرياء العمل الى ذل الوظيفة، فخربت الذمم، وخربت البلد، وعلمت الناس الجبن، فلا يعارضوها خوفاً على لقمة العيش، فسلاح الفصل كافٍ لالزام جيوش الموظفين ـ الأغلبية ـ حدود الأدب، فلم نسمع عن موظفين قادوا حركة تغيير، والمرة الوحيدة التي أضرب فيها الموظفون عن العمل كانت خلال ثورة ١٩١٩، وأُعتبر ذلك من العجائب التي لم تتكرر. أليس من المدهش أن الصحفيين الذين يفرض عليهم دورهم تحريك الجماهير، تخلوا عن شرف مهنتهم منذ تحولوا الى موظفين ـ قطاع عام ـ ومداحين للسلطان، بعد تأميم الصحافة عام ١٩٦١.. والذي يقارن بين المواقف المخنثة الممالئة للسلطة والمرتعشة منها التي وقفتها نقابة الصحفيين الطبالين، وبين المواقف المبدئية العنيدة التي اتخذتها نقابة المحامين يعجب حقاً. ولو بحثنا عن السبب، لاكتشفنا أن أغلبية المحامين يعملون لحسابهم مستقلين في رزقهم عن الحكومة، بعكس أسود الصحافة الذين روضهم «محمد الحلو» داخل اقفاص «السيرك القومي».. ولو دققنا النظر أكثر في الموقف الداخلي لقطاع المحامين، لوجدنا انقساماً نوعياً حاداً، فالمحامون في القطاع الخاص يشكلون كادر المعارضة الشرسة والصامدة ضد السادات.. أما المحامون الموظفون على الكادر في الحكومة ـ قطاع عام ـ فهم غائبون عن الوجود، فاقدو الارادة، باعوا حريتهم بالمرتب الشهري.

إذاً فموقف جماعة شكري مصطفى من التعليم، موقف جسور وسليم، فلا داعي ولا قيمة لتعليم انفصل عن الحياة، بل أصبح مضاداً للحياة نفسها، فحول الانسان المنتج الى عبء مستهلك، ومتطلب ينتظر

غيره ليحمل عنه مسؤولياته، والفلاح الأمي الذي لا يقرأ ولا يفك الخط، ولكنه يزرع من الحنطة والقطن والفول والعدس، ما يكفيه ويفيض على غيره، أفضل وألزم للحياة والناس من ألف حامل دكتوراه في فلسفة التاريخ مثل الأقرع المزور «عبد العظيم رمضان»، وأقرب لله من مليون مدمن مدعٍ متحامل على الاسلام مثل يوسف ادريس حتى ولو رشحه الصهاينة لجائزة نوبل. والأمثلة أكثر من الهم على القلب.. وكذلك الاضراب عن الوظيفة الحكومية بقدر ما هو رفض أكل لقمة حرام لم يبذل فيها المقابل من العرق، فهي سرقة من المجتمع، فانه قبل ذلك، والأهم من ذلك كله تحرير لارادة الانسان المصري من الارتباط المذل بنير الحكومة، وتكفيره بالحكمة الحقيرة «إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه».. فملعون أبو الميري الذي أذل أعناق الرجال، وحولهم الى حريم وأغوات.. فالحكومة طاغوت والمجتمع جاهلي فقدم استقالتك يابا.. والرزق على الله.

يا له من موقف شجاع، وحل عبقري!

«إن محمداً بعث نبياً، وليس «فقي» فتح كتاباً لتعليم القراءة والكتابة.. ورغم كونه أمياً، فإن ذلك لم يمنعه من تعليم البشرية وهدايتها في كل زمانٍ ومكان.. ومجتمع المسلمين ليس معمل تفريخ لخريجين جهلة، لا يصلحون لزراعة ولا صناعة، يتعلمون الكفر ويبشرون به.. العلم مطلوب ولكن على قدر حاجة المجتمع. وللمتفوقين المستعدين بطبيعتهم... أما الوظيفة الحكومية فهي حرام لأنها خدمة في مجتمع جاهلي، ومرتبها حرام حيث لا يقابله عمل حقيقي منتج، فهي أخذ بلا عطاء، وحكمه في الاسلام كالنهب والسرقة بغير حق».

كان شكري مصطفى يصرخ في المحكمة، كأنما يوقظ مصر كلها التي تغرق ببطء في حفرة المشاكل الواضحة، ورغم وضوحها أحياناً فلا يراها أحد، يلمسها متحذلقو الاقتصاد «ماركسيون» و«كينزيون» و«هراطقة ليبراليون» فلا يجرؤ منهم أحد على الاشارة للحل الصحيح. والشعار الأعمى «العلم كالماء والهواء» أدى الى تلوث الماء وإفساد الهواء... ولا علم. أدى الى ترك الأرض بلا زرّاع، وحوّل الوظيفة الى استنطاع، وعم الفقر وزاد من حدة التطلع الاستهلاكي، بعد أن أخرج الناس من الحياة

المنتجة البسيطة في القرى الى أحياء الزبالة والمجاري الطافحة ومساكنة الأمـوات في المدن. شكري وضع يده في الجراح المتقيحة، وكبس فيها الملح، وتكلم بلهجة الصعيدي الذي عانى التشرد مع والدته طفلاً، وتعذب صبياً وشاباً على يد حمزة البسيوني وأحمد رشدي في السجن الحربي، وليمـاني «طره» و«أبـو زعبـل» بلا جناية.. وقرأ ابن تيمية وأبا الأعلى المودودي وسيد قطب في الزنازين وبين حفلات الضرب الظالمة. كان يتكلم من عمق مأسـاة الشـاب المصري الذي تعـذب بايمانه، وبلغةٍ أصيلةٍ بسيطةٍ مفهومة، مفرداتها ليست مسروقة من أدبيات العبثية الغربية التي تعبـر عن ناسهـا فقـط، وتعتبـر بالنسبة الينا رطانة تغيظ الامبريالي، الكومبرادوري، الميتافيزيقي، الديالكتيكي، الفورماسيون، الرينسانس، الدوغما... الخ ـ

كان شكـري يقـول: الله، محمـد، لقمة العيش الحلال، الجاهلية، الايمـان، الكفـر، شرع الله، الهجـرة، العُزلة، الاستضعاف، التمكن، الخير، الشر، الدنيا، الآخرة... كان يفكك شرعية جاهلية القرن العشرين بعُددٍ بسيـطة، وبحماسة المتضرر الضحية. فالمسجد الحكومي هيكل وثني، والمـذاهب الأربعـة أصبحت أصنـاماً تعبد وتقف بين الانسان والقـرآن، وتبـرر حكم الطواغيت، والمـدرسـة والجامعة مَضرة ظاهرة، والوظيفة إثم.. بقيت مؤسسة الزواج.

في مصر الخصبة الحارة، تنضج البنات باكراً ـ متوسط احدى عشرة سنـة ـ ويتـأخر الشاب سنتين أو ثلاث على الأكثر.. ويصبح الزواج «ستراً» للفتاة وعصمة للشاب، والاسلام يحل هذه المشكلة بسلاسة، فهو دين الفـطرة الذي يعترف بقوانين ينظمها ولا يصطدم بها، فلا يشترط شيئاً سوى رضا الطرفين أساسا ومهر رمزي ـ ربع جنيه ـ واثنين من الشهود، وبالرفاه والبنين، وأفسحوا للطبيعة تقوم بدورها، كسُنة الله، ولن تجد لسُنة الله تبديلا.

القرية المصرية دائماً كانت خلية اسلامية صحية وبسيطة، وكانت العقيدة المحمدية متسقة مع مطالبها حتى بدت جذورها مشرشة في تربتها النفسية كأنها غريزة ثانية... فالفلاح يأكل، ويشرب، وينام، ويتنفس،

ويوحد الله، ويصلي، ويصوم، ويزكي، ويعمل، ويتزوج، كل ذلك «بسم الله الرحمن الرحيم»: فما أن تبلغ البنت، ويبلغ الفتى، حتى يقام الفرح، فالفاتحة مقروءة من زمان، والبيت غرفة من الطين هي غالباً ملحقة ببيت العائلة.. و«الشوار» صندوق خشب.. و«شوية نحاس وخلقتين، وعقد كهرمان».. وفي ظل هذه البساطة تندر الرذيلة، ولن تجد مخلوقاً بلغ العشرين وليس عنده عيال إلا نادراً..

في زمن شكري مصطفى تغيرت المعادلات، فأغلب الشباب دخلوا الجامعة. وحتى يتخرجوا سيكون الواحد كسر العشرين بسنوات، وكي يتقدم للزواج من بنت ناس، مطلوب منه توفير شقة ـ ثلاث غرف على الأقل، تكلف عشرين ألف جنيه في المتوسط، وأثاث بعشرة آلاف، وألف أخرى للفرح والمعازيم، والثلاجة والبوتاجان، والتلفزيون، والخلاط. وستكون معجزة لو أمكن ضغط التكاليف في حدود الأربعين ألف جنيه، فاذا كان متوسط راتب الخريج المحظوظ لا يزيد عن أربعين جنيهاً شهرياً، فهو محتاج الى ألف شهر، يدخر فيها مرتبه بالكامل، لا يأكل فيها ولا يشرب، حتى يوفر المطلوب منه كي يحقق سُنة الحياة المركبة فيه. أكثر من ٩٣ سنة شغل بلا زواج، وعلى ذلك فسيكون عريساً وعمره أكثر من ١١٠ أعوام.. وللأسف فان متوسط العمر في مصر هو ٤٠ سنة فقط..

وهكذا فقد حكم على شبابنا بالرهبنة. الواقع ان الرهبنة هي ابتكار مصر المسيحية، ولكنها بدأت خياراً سياسياً لمقاومة الظلم الروماني.. أما الرهبنة الجبرية الحديثة فهي دليل افلاس النظام، والمبرر الاجتماعي لتدميره، فليس طبيعياً ان يبيع كل شاب أحلى سنوات في عمره داخل معسكرات العذاب بدول النفط كي يوفر ثمن الشقة، ويعود ليبدأ حياته في الأربعينات، أي عندما يبدأ في وداع الحياة.

جماعة شكري مصطفى كان جميع أعضائها في العشرينات من عمرهم وينتمي معظمهم لأصول فلاحية مسلمة، وكان عليهم أن يحلوا تلك المشكلة بالنسبة لأنفسهم، وكمثل متقدم للمجتمع الذي بدا عاجزاً عن تخطي أمراضه التي أزمنت وأصبحت وراثية، تنتقل من العهد «الاشتراكي» الى العهد «الانفتاحي»، ومن «الانفتاحي» الى

«اللاإشتـراكي ولا إنفتاحي»، وكأن المجتمع ذبابة سقطت في «ماجور» مليء بالعجين. الحل كان سهلاً.. العودة الى الاطار الاسلامي البسيط والحل الذي قدمه لنا أصحاب الرسول عند وصول المهاجرين الى المدينة، فآخى الرسول بينهم وبين الأنصار، فتنازل كل أنصاري عن نصف داره ونصف ماله لأخيه المهاجر كي يعيش ـ المسلمون إخوة ـ هكذا فعلت جماعة شكري، فالكل يعمل للواحد، والواحد يعمل للكل، والزواج عصمة وإكمالا للدين.. والمهم هو تحقيق سُنة الله فينا، وليس المهم المبالغ. أما الموبيليا، والموكيت، والفريجيدير، والتلفزيون، والكريستال، فليست من الاسلام في شيء.. وزوجات الرسول نمن على الأرض، واشتهين الثريد، وكان بيت كل منهن غرفة.

حلت جماعة شكري مصطفى مشكلة الزواج بتطبيق التكافلية التي طبقها الرسول في المدينة عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، فتقاسموا البيت ولقمة العيش.

كما خفضت من حجم تكاليف عملية الزواج نفسها بالاستغناء عن الجانب التجاري في علاقة هي انسانية في الصميم، فحذفت جميع السلع والاضافات الاستهلاكية العالية الكلفة ـ أثاث خمس غرف، وأجهزة الكترونية، ومطبخ مودرن ـ واكتفت بالضروريات فقط، فانخفضت الكلفة من عشرات آلاف الجنيهات الى ألف أو ألفي جنيه على الأكثر.. واستأجرت الجماعة شققاً مفروشة في أطراف المدن، وأسكنت الأزواج، كل زوجين في غرفة داخل الشقة. وقُسم الدخل الجماعي على الاخوان، وأنفق الفائض على استئجار شقق جديدة، وتزويج اخوان جدد.. وعمل الجميع في الزراعة أساساً، وبالتجارة البسيطة كأصحاب دكاكين وباعة جوالين. وسائقي تاكسيات وشاحنات.. المهم انهم جميعاً تركوا الوظيفة الميري، ودخلوا غابة الحياة العصرية «طرزانات» معتمدين على عضلاتهم، وعلى ما تجود به أمنا الطبيعة في أبسط صورة.. تماماً كما باع المهاجرون الأوائل كل شيء وأداروا ظهرهم لجاهلية مكة، وكما فعل اخوان عبد العزيز بن سعود عندما ودعوا الجاهلية وباعوا رواحلهم كي يسكنوا في المهاجر، ويقيموا مجتمعهم الجديد الفاضل، كذلك فعل جماعة شكري

مصطفى. إذاً فنحن لسنا أمام بدعة جدَّت على التجربة الاسلامية، بل نحن أمام ظاهرة أصيلة لها جذورها في المعتقد الاسلامي وفي ضميره، وهي تتجدد كلما برزت تحديات جديدة تهدد الاسلام بالخطر.. انها حالة دفاع عن النفس شبه غريزية، تدفع المؤمنين للهرب من المجتمع الذي يهدد بقاءهم، الى حيث يستجمعون من القوة ما يمكنهم من تدمير الجاهلية وتصحيح العلاقة بين العقيدة الطاهرة والمجتمع المهترىء.

زادت الامكانيات المالية للجماعة الاسلامية عندما توفرت لعناصر كثيرة منها فرص للعمل في بلدان النفط العربية. ومن مداخيلهم الكبيرة التي كان معظمها يحول باسم شكري مصطفى، تم تجهيز المزيد من المساكن المفروشة، بحيث كان كل أخ يعود فيجد الزوجة الصالحة والسكن الملائم في انتظاره. كل ذلك من ترتيب الجماعة واختيارها، فالعروس لم يعرف عنها سوى صورتها، والسكن لا يعرف إلا عنوانه. ومهما تفلسفنا فإن هذا الحل السهل هو في الصميم اسلامي، وجاء ليعالج خللاً اجتماعياً لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

المواجهة مع القيم السائدة حدثت على المستوى الفردي، عندما طالب مهندس من أفراد الجماعة ـ فتحي عبد السلام ـ زوجته ان تبيع الشقة والأثاث الفاخر والثلاجة والفيديو. و... و.... وتصحبه كي تعيش مع جماعة المسلمين، أي في غرفة لا تضم إلا الضروريات، داخل شقة تشاركهم فيها أربع أسر اخرى، فرفضت.. فما كان منه إلا ان طلقها، وزوَّجه «الاخوان» زوجة منهم كي يعيش مع العشيرة المهاجرة، كانت «المفاصلة الكاملة» مع المجتمع الجاهلي تفرض فك كل الأواصر معه، بما في ذلك الزواج، وما يتطلبه أسلوب الحياة العصرية الاستهلاكية داخل البيوت.

هذا الأمر يبدو سهلاً على الشاب. أن يترك بيته، ويتزوج بغير علم أهله، وموافقتهم، وحتى طلاق المتزوج لزوجته، والخروج من بيت الزوجية لبيت آخر وزوجة اخرى، كانت مسائل عادية لا تخرج عن العرف السائد، أما بالنسبة للفتاة في مصر فانها تعتبر انفلاتاً وعاراً. ان تهرب من بيت أبيها، وتتزوج شخصاً لا تعرفه العائلة، بل لم يره أحد

منهـا، ولم يتفق على المهر، ولم يظهر عقد الشقة، ولم يوقع على قائمة العفش، ولم يقم حفل زفاف ترقص فيه فيفي عبدو ويغني فيه كتكوت الأمير.. بل ليس هناك شبكة، ولا شقة، ولا فرح.. فأي عار هذا، وأي تدين ذلك الذي يفسد البنت على أهلها، ويفرض فلسفته على المجتمع الذي أصبح أسير مظاهره، ولو أدت تلك المظاهر الى تحلل المجتمع نفسه!

الكـارثـة الكبرى تقع عندما تنضم إمرأة متزوجة الى التنظيم. هنا يتوجب عليها أن تضم زوجها للجماعة وتخرجه من الجاهلية، وإذا رفض فلا بد من الطلاق الذي يفـرضـه «الاختلاف في العقيدة»، فالمؤمنة لا ينكحها إلا مؤمن.. والايمان محصور في الجماعة الاسلامية الملتفة حول نفسها كثمرة الخرشوف.

وبدأ الاحتكاك بالأسر التي هربت بناتها الى جماعة شكري مصطفى ليتزوجن ويتحجبن، ولا يتورعن عن الصدام مع الأهل وقيم الحضارة السائدة، فلجأ الآباء الى البوليس يطلبون اعادة بناتهن «المخطوفات»، فتدخلت قوى الأمن، وبدأت أول الصدامات العنيفة مع أجهزة القمع، وتحرك الاعلام الحقير، يرسم صورة فجة للحركة الجديدة، فهم شواذ كل همـهـم إغـواء القـاصرات، وإشـبـاع هوسهم الجنسي في حفـلات «راسبـوتينية» فاجرة.. الى آخر تلك المعزوفات الرخيصة، في قضية لا تحتاج الى اطلاق سحب الدخان، بل تتطلب الفحص المجهري، فالمشكلة ضخمـة، فملايين الشبان من الجنسين معطلون محرومون من حقهم الغريزي، والمجتمع يضغط عليهم باضطراد، لا يحل لهم مشكلة البيت والزواج، ولا ينـاقش الحل الذي طرحته الجماعة ـ لا رحموا ولا تركوا رحمـة الله تنـزل على عباده المتضررين ـ وانقلب الكل ينعي الفضيلة والعفة، واحترام الوالدين، والقيم الأسرية التي أهدرت على يد المتعصبين من مدعي الايمان، المتسترين بالدين، والذين يريدون اعادة مصر التي بنت الحضارة منذ سبعة آلاف سنة الى مجتمع الغابة وقيم العصر الحجري..

نسي الجميـع ان مصر في ذلك الوقت بالذات كانت تنتحر أخلاقياً، فالشقق المفـروشة كانت تزود سكانها بالدعارة، وأنها أصبحت تجارة

عظمى ومنجم ذهب يتصارع عليه كبار رجال الحكم والقطط السمان.. وان شارع الهرم توسع كثيراً، وطور صناعة المتعة، فزاد عدد المواخير عشرات الأضعاف، ليصبح كل «كباريه» هو الواجهة التي تختفي وراءها عشرات الأوكار في الشوارع الخلفية، حيث تذبح الفضيلة المصرية، وتعرض الجواري في المزاد.. وتكاثرت شبكات الدعارة التي يقودها كبار النافذين، ونجوم الفن، من شبكة ميمي شكيب وزيزي مصطفى.. وحتى وصلنا الى عصر بليغ حمدي وماجدة الخطيب.

هذا المستنقع الآسن الذي يتوسع باستمرار تحول الى طوفان يهدد باغراق العقيدة في أعمق بلاد الله اسلاماً، فليس غريباً أن يفرز نقيضه من داخله، وليس غريباً ان يأتي هذا النقيض شديد العنف والتطهر أيضاً.

كانت الأيام الثلاثة التي استغرقتها محاكمة شكري مصطفى وجماعته أشبه بيوم محاكمة جاليلو جاليلي أمام قضاة التفتيش الذين أدانوه سلفاً وجاؤوا يتلذذون بتعذيبه.. حرقوا كتابه في الميادين العامة وتحولوا اليه يريدون حرقه شخصياً، ليلحق فكره الذي خوَّف الكنيسة، وأزعج البابا، وهز المعتقد.

جاليلو كان عالِماً، وليس مبشراً بعقيدة، ولذلك تراجع، وأقر بخطئه: «وما دمتم تقولون نيافتكم بأن الأرض هي مركز الكون، وأن الشمس تدور حول الأرض.. فليكن ما تشاؤون، وأنا آسف، سحبت كلامي.. أنا غلطان وأعتذر عن غلطي، وأقسم على أن لا أعود للذنب أبداً، وقابل لما تحكمون به علي»، فنجا جاليلو من الموت، وكفر بالحقيقة المميتة. وقد شاهدت مسرحية عن محاكمة جاليلو، فاستنقصت موقفه، وخجلت من انسحابه، فنحن جميعاً تهزنا الدراما التي تشكلها كبرياء الشهداء، بشرط ألا نكون نحن هؤلاء الشهداء. وأنجح عمليات المقاومة الانتحارية في الجنوب اللبناني هي أفلام الفيديو التي سجلوها للصبايا والشباب قبيل قيامهم بتفجير أنفسهم مع العدو..

موتهم كان يعني عزتنا، وكبرياءنا.. ولكنا لم نفعل فعلهم!

شكري مصطفى وجماعته لم يكونوا من قماشة جاليلو، بل أصحاب

فكـر، يكـونـون به أو لا يكـونـون اطلاقـاً. كانوا يحاكمون قضاتهم ومجتمعهم، ويجردون كل ما هو قائم من الشرعية ومن مبررات الوجود. وفي موقفهم الجذري من مشكلة السكن وزواج الشباب، صدموا المجتمع المتورط مع قيادته التي عمدت الى الكذب لاثارة شهية الجماهير بوعود الرخـاء الوشيـك، وتحقيق الفيللا والسيـارة لكـل مواطن، وفتـح باب الانحراف على الواسع لقلة من الطفيليين والحرامية.. بينما الجيل الذي عاش على الجبهة طوال السنوات الست لحرب الاستنزاف، ونفذ معركة رمضان، وجد نفسه في النهاية مصدوماً في وطن ينكر عليه حقه كآدمي.

جاء شكري مصطفى يدين له هذه التركيبة الوسخة كلها، مقدماً له السكن والأسرة والقيم الخلابة والمعاش الحلال، ووعداً بالجنة بعد ان يرث الأرض ومن عليها. كانت الصفعة كبيرة للمجتمع ومؤسساته المتآكلة التي لا تملك القدرة على الوفاء، ولا المنطق للرد.. ووقف الجميع يتخبطون كفئران المعامل في النواقيس الزجاجية.

في قاعة المحاكمة جيء بين الشهود بأحد الآباء الذين انضمت بناتهم للجماعة، وتزوجن دون الرجوع لأب أو أُم، متخليات عن كل البهرج الذي أصبـح من ضروريـات العصر، والذي عطل النـامـوس، ودفـع الجيل للانحراف فكراً وسلوكاً.. الرجل في الخامسة والأربعين من العمر، يعيش في الفيوم حيث يعمل في مؤسسة حلج الأقطان، وهو من الشريحة الدنيا للطبقـة المتوسطة، والتي سحقها التطلع الاجتماعي، وهكذا لم تعد قادرة على الوفاء بالتزامات الزواج لبناتها كما يقضي العُرف.. وبالتالي فلا أمل ولا حل، وسيظل شبح العنوسة بارداً مخيفاً كئيباً.

وقف الرجل أمام المحكمة قائلا:

ـ في اجازة عيد الفطر ـ العيد الصغير يعني ـ جاءت ابنتي روحية من الكلية، وطلبت مني أن أصحبها في زيارة الى القاهرة، أُم الدنيا، التي لم ترها حتى تلك اللحظة، فوجدتها فرصة مناسبة للفسحة وزيارة ابنتي الكبرى المتزوجة وتعيش هناك.. فصحبتها مع أختها الصغرى «راوية» وقمنا بالواجب. ولما حان وقت العودة، ألحت البنات على أن أتركهن مع أختهن حتى نهـايـة الاجازة على ان يعدن مع «سعيد» ابني المقيم في

العاصمة هو الآخر، فلم أجد بأساً في ذلك، وعدت للبلد، ولما سألتني زوجتي عن البنات، أخبرتها بالقصة، فقبلت ولكن على مضض.. وانتهت الاجازة، ولا حس ولا خبر من البنات، فأصاب أمهن القلق، وطلبت مني السفر الى القاهرة أشوف ايه القصة وأعود بالبنات. ولم أجد بداً، فقلب الأم ضعيف، ووصلت لبيت زوج ابنتي، «محمود» وسألته عن «سميحة و«راوية».. فأخبرني بأنهن عدن الى الفيوم بصحبة أخيهن «سعيد».. فقلت له: غير معقول، فأنا غادرت البيت من ساعات، ولم يصل أحد. فطمأنني بقوله إنني ربما غادرت البيت من هنا ووصلت البنات بعدي من هنا. قلت: يجوز..

وعدت فوراً للبلد فقابلتني أمهن تسألني عنهن. فسألتها: هم ما جوش؟ فنفت ذلك، فأخبرتها بما قاله لي محمود عن عودتهم بصحبة أخيهن.. فصرخت بوجهي تطالبني بالعودة للبحث عن البنات وارجاعهن ولو كن عند العفاريت الزرق.

فقلت: الصباح رباح، وغداً آخذ أول قطار للقاهرة.

وبتنا ليلتنا في الهم، وفي اليوم التالي كنت عند «محمود» أسأله عن البنتين.

فرد: أنا إيش عرفني، قلت لك سافرن مع سعيد.

ظل يماطلني ثلاثة أسابيع كاملة، وأنا كالمرجيحة بين الفيوم والقاهرة. تعبت، وجريت، وبكيت، أما زوجتي فلم تكف عن العويل، صاحية كانت أو نائمة.. وفي الأسبوع الرابع، رق زوج ابنتي لحالي، ومهما كان فأنا قريبه ووالد زوجته - حماه يعني - فأخبرني انني إذا كنت مصراً على رؤية بناتي فلأذهب الى «أم المصريين» في الجيزة، وهناك اسأل عن شخص اسمه «مصطفى الجمال» هو الذي يعرف سكة البنات، ويمكنه أن يدلني عليهن، وذهبت الى «أم المصريين»، وبحثت عن «مصطفى الجمال» حتى عثرت عليه بالعافية، وسألته عن «سميحة» و«راوية»..

فسألني: عايزهم ليه؟

فقلت: سبحان الله، دول بناتي يا عالم..

فقال لي: إنس، فقد تزوجت البنتان من رجال مسلمين بحق، وهاجرن

من مجتمعكم الجاهلي الى مجتمع المسلمين.

كدت أفقد عقلي.

ومن الذي زوجهن؟

قال: إحنا...

قلت: أنتم مين؟

قال: نحن مجتمع المسلمين الذين يفصلون المسلمين الحقيقيين عن مجتمع الضلالة والشرك.

وجدتني أصرخ: أي إسلام هذا الذي يجعلكم تخطفون بنات الناس، وتــزوجــون بناتي، بدون إذني، وصغراهن لم تبلغ الرابعة عشر.. وأي انسانية تلك التي تحرمني من رؤية بناتي والاطمئنان عليهن؟؟

فقال: إذا كنت تريد رؤيتهن، فاهدأ، وعد لي هنا بعد يومين.

وعدت بعد يومين، فقال: بعد أسبوع..

وعدت بعد أسبوع، ولما رآني قال: انتظر دقيقتين..

ونــادى صاحبــاً له اسمه «أبو الفضل» فجاءني هذا... حكيت له القصــة، فقــال: لا تتعب نفســك، الموضوع انتهى، وبناتك في الحفظ والصون في عصمة رجال من رجال الله.

وخرج الأب يبلغ البوليس، ويحرك الأجهزة التي كانت بانتظار الاشارة.

وفي قاعة المحكمة، صرخ ابنه «سعيد» في وجهه: ألا تخجل من نفسك يا أبي عندما تشترك في مهزلة ألفها البوليس؟

.. لقد احتد صراع الأجيال.

دوت عبارة الفتى «سعيد» في قلب المحكمة كأنها صرخة في تراجيديا اغريقية.. حيث يتصارع الأبناء مع الآباء، في صليل لا ينقطع، أو هي صورة مأساوية منسوخة من علاقة كافكا مع أبيه، ورسالته الشهيرة اليه.

كيف يصرخ شاب ريفي مصري. «ألا تخجل من نفسك يا أبي».

إذاً فقــد انهار الأساس التربوي في الأسرة والذي بُني على الطاعة الاسماعيلية المطلقة:

«يا أبت إفعل ما تؤمر، وستجدني إن شاء الله من الصابرين». لتحل محلها قاعدة أخرى فاصلة:

«فإن جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تطعهما...».

وهكذا ظهرت معالم المفاصلة الكاملة بين الجماعة، والمسجد الحكومي والدين الرسمي ونظام التعليم القائم والوظيفة الميري ومؤسسة الزواج التقليدي ونظام الأسرة الاستهلاكية وعلاقات الأبوة الطاغية مقابل البنوة الصاغرة، فالبنات خرجن عن الطوع، والأبناء رفعوا راية العصيان، والجميع خلعوا الولاء للمجتمع وأداروا له ظهورهم بجرأة لا مثيل لها، وابتدعوا للمشاكل الهائلة حلولاً بسيطة، وغير مسبوقة.

بقيت صلتهم بالحركة الاسلامية الأم ـ يعني بالاخوان المسلمين ـ بقايا «الحرس القديم» الذين تمسكوا بالدور المهادن مع النظام، كما جاء في كتاب «دعاة لا قضاة» والذي كان رداً غير مباشر على الكتاب المتفجر «معالم في الطريق» والذي أصبح دستوراً لكل التيارات الاسلامية الجديدة..

شكري مصطفى لم يتردد في ادانة القيادات القديمة بأسلوبه الهجومي القاطع كحد الموسى في حملته الشهيرة... والتي بدأها بكلمة أميل زولا المعروفة: «اني أتهم» ورفع عريضته الاتهامية قائلا:

«اني أتهم هؤلاء القادة للحركة الاسلامية الذين جروا رجالهم لحتفهم... هؤلاء القادة من الأخوان المسلمين الذين سلموا المسلمين للجلادين والمشانق، والسجون.. اتهمهم بالخيانة العظمى... لقد دمروا حياة الرجال، وتعاملوا معهم بلا اكتراث».

كان متأثراً في كلامه وموقفه، من القيادة الرخوة للمرشد العام حسن الهضيبي، والتي يتهمها الكثيرون بأنها مكنت النظام من كسر ظهر التنظيم في محنة العام ١٩٥٤، بينما كان الانقلاب العسكري ما زال يتأرجح، والاخوان في قمة قوتهم في الشارع وداخل الجيش نفسه، ولكنهم سلموا رقابهم للسلطة بسهولة عجيبة، بسبب عجز القيادة عن تحليل الموقف وادارة المعركة واستخدام كافة القوى المتاحة، مما أدى الى أحكام الشنق الجزافية وعمليات الابادة المنظمة للاخوان داخل

السجون.. واستاء الشباب الجديد في التيار الاسلامي من تحالف مجموعة العجائز مع صهر السادات عثمان أحمد عثمان الذي ظهرت عليه عوارض اخوانية متأخرة، فدعم التيار القديم، وأصبحت شركاته تمول مجلة «الدعوة» وفريق «الاسماعيلي» لكرة القدم على حدٍ سواء، كما تمكن من إقناع عمر التلمساني المحامي بما سبق وأقنع به حافظ عفيفي المرشد السابق حسن الهضيبي القاضي.. بأن يلعب من النظام لعبة السياسة، وإلتماس الشرعية بدلا من لعبة العنف التي تؤدي الى التهلكة.

وإذا كان «مكتب الارشاد» أجبر الهضيبي عام ١٩٥١ على رفض منصب الوزارة الذي عرضه عليه حافظ عفيفي.. فإن المجموعة المرابطة حول التلمساني في مجلة «الدعوة» رأت في دعم عثمان أحمد عثمان واعلانات «المقاولون العرب» وفكرة اللعب مع النظام، خيراً وبركةً، ودرعاً يحمي الجماعة من شبح المشانق، وحياة الرعب في الزنازين التي أكلت جلودهم، وانحفرت في خلايا عقلهم الباطن.

ولكن الطلائع الجديدة التي شدها تفكير سيد قطب، واختارت السير على طريقه المحدد في كتاب «معالم في الطريق»، فارقوا الخط المستأنس، وطبقوا على أنفسهم مبدأ العزلة والتزموا بأقصى متطلبات العمل السري ـ تحت الارض ـ طوال «مرحلة الاستضعاف» حتى يصلوا الى «مرحلة التمكن»، فيكروا ساعتها على المجتمع الجاهلي، يسوونه بالأرض ليقيموا مجتمع المسلمين.

وهكذا قاد شكري مصطفى جماعته بعيداً عن المجتمع، غير مستعد للمساومة على أي شيء مطلقاً، موجهاً أقصى الاحتقار للمساومين القدامى وفكرهم الذي تعبر عنه مجلة «الدعوة»، ناكراً عليهم شرف الانتماء للحركة الاسلامية كما يمثلها هو وجماعته، أو بعبارةٍ أدق، التي يحتكر تمثيلها هو وجماعته، وهو لا يداري هذا الادعاء الكبير، بل يعلنه أمام المحكمة العسكرية التي حاكمته، فيقول للقاضي:

ـ إن جماعتنا هي أول حركة اسلامية منذ قرون. أما الاخوان المسلمون فإن الله لم يمنحهم النصر، وهذا دليل سماوي على عدم شرعية ادعائهم بأنهم حركة اسلامية، ودليل على فساد معتقدهم.

وكـــان كل من الطرفـــين يرفض ان يتكلم الآخـر باسم الحـركـات الاســلامية أو يدعي تمثيلها، ورغم ذلك فان الاحتكاكات بينهما كانت خفيفــة، حيث اختــارت جمــاعــة شكري مصطفى العمل على الحواف الخــارجية للمجتمع، بينما اختار «الاخوان المسلمون» العمل والمناورة داخل المجتمع نفسه وبموازاة السلطة وبالاتفاق معها.

الصدامات العنيفة والتي تحولت دموية ، وقعت بين الجماعة وبين أجنحة اخرى في التيار الاسلامي الجديد، وتمت تحت شعار «التصفية الجسدية للعناصر المرتدة»، والتي أوضحت مدى العنف الذي دخل في تكوين الاسلاميين الجدد.

حين نناقش قضيـة العنف والحركة الاسلامية المعاصرة يشير لنا محمد حسنين هيكل الى حرب الاستنزاف الطويلة والتي حقنت الجيل الجديد بجرعة كبيرة من الجرأة على استعمال السلاح، واستسهال الحل بالقتال والعيش طويلاً في ظل الموت.. وهذا تفسير معقول، ولكنه يتضمن تبسيطاً مخلاً وربما لئيماً... لِمَ؟

لأنه يضع اللوم على الحرب ولا يشير الى مسؤولية النظام الناصري الذي تلقح الاسلاميون الجدد بجرثومة العنف والنقمة على يديه وداخل زنازينه.

وهو أيضاً لا يذكر فشل النظام في حل مشكلات المجتمع وتنمية بنيته الداخلية، فأهملت المرافق والاسكان والري والصرف والمواصلات والأمن الغذائي، فتفجرت هذه القنابل في وجه الشباب بعد ثلاثين سنة من الكذب.

وينسى ان الحكم الفـاسـد أصبـح وراثياً في طبقة العسكر الغلاظ والجهلة الذين يعادون الاسلام كما يعادون العدل بحكم المهنة، بحيث يستحيـل اقـامة دولة الاسلام الا بعد مذبحة للمماليك الجدد الذين حقنهم الناصر قلاوون في صلب مصر.

* * *

لم تكن جمـاعة «شكري مصطفى» هي أول من سلك درب العنف ضد

عهد السادات، سبقتها في ذلك جماعة صالح سرية التي قامت في عام ١٩٧٤ بانتفاضة مسلحة بهدف اغتيال الرئيس، وقلب نظام الحكم بالقوة ـ هكذا عيني عينك وبكل وضوح ـ وكانت هذه أول مرة يعلن فيها تنظيم اسلامي في مصر ان هدفه الاستيلاء على السلطة، كأن الحكم اثم ونجس لا يصح ان يقربه الاتقياء الورعون، بل كان الاخوان على زماننا يدفعون بقوة الاتهام الذي يخيفهم به الحزبيون عندما يصرخون فيهم: أنتم لستم اخواناً ولا مسلمين، ما انتم إلا طامعون في الحكم.

ـ نحن لا نطمع في الحكم ولا نريده. نحن نطالب بحكم القرآن.

ولست ادري كيف يطبق حكم القرآن من دون وصول الاسلاميين الى السلطة؟ وكيف سيصبح الاسلام ديناً ودولة بيد خصوم الاسلام؟

سيد قطب صحح الوضع نظرياً، عندما حدد الوصول الى الحكم وأسلحته كهدف اساسي للحركة الاسلامية، وأن تحقيق ذلك يتطلب شروطاً محددة، ويمر بمراحل معينة.. وجاء شكري مصطفى يطبق البرنامج الذي جاء في كتاب «معالم في الطريق» الذي وضعه سيد قطب، وهو يؤكد على حتمية الصدام بالقوة مع مجتمع «الجاهلية».

صالح سرية، الذي قاد «حركة الفنية العسكرية» التي نحن بصددها، ليس من تلاميذ سيد قطب ولا ممن يلتزمون بفكره وبرنامجه. بل ينتمي لمدرسة أخرى وحزب آخر هو: «حزب التحرير الاسلامي» الذي أسسه تقي الدين النبهاني عام ١٩٥٠ في الضفة الغربية والاردن، كرد فعل على الهزيمة العربية، وضياع فلسطين المسلمة، وغضباً لقيام أنظمة الهزيمة، باغتيال الشيخ حسن البنا قائد أكبر المنظمات الاسلامية التي جاهدت في فلسطين، واستشهد رجالها في الارض المقدسة، وعاد مقاتلوها من ميدان القتال الى سجون ابراهيم عبد الهادي وليعذبهم زبانيته.

خلال إقامتي في الكويت شاء الله ان أتعرف عن قرب ولمدة طويلة على فكر «حزب التحرير» كما ورد بياناته، وذلك عن طريق زميل بوزارة الارشاد، فلسطيني شديد الورع اسمه الذي لم أعرف غيره هو «الشيخ طاهر»، واكتشفت ان استراتيجية «النبهاني» لا تقوم كدعوة الاخوان على توعية الجماهير، وحشدها بالملايين لخلق رأي عام اسلامي يضغط على

الحكومات باتجاه تطبيق أحكام الشريعة، ولكن الرجل وحزبه يؤمنون بـ «الانقلاب» كوسيلة وحيدة وسريعة للاستيلاء على السلطة وبقوة السلطة يطبق الاسلام «ان الله ليزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن».. ولذلك ففي منشوراتهم السرية يتضح حس سياسي قوي، ولا أثر تقريبا للمعتقد الاسلامي، بل قلما وردت بها آية قرآنية، أو حديث شريف. وأبديت لصاحبي هذه الملاحظة فرد عليها بقوله:

ـ ان القرآن موجود، والاسلام معروف. المهم الآن تعريف المسلمين بما يجهلونه فعلا، وهو المخططات الاجنبية والحكام المتآمرون، وكيف يمكننا مواجهة ذلك كله. ان ايقاظ الأمة النائمة، وفتح عيونها على الخطر هو المطلوب الآن. نحن لا ندعو بل نقوم بدور النذير.

صالح سرية اذن من ذلك الحزب، بل ومولود عام ١٩٣٣ في البلدة نفسها التي ولد فيها مؤسسه وزعيمه تقي الدين النبهاني، وهي «إجزيم» بالقرب من حيفا مدينة التاريخ وصرح المقاومة. شاهد «صالح» في طفولته وصباه بأس المقاومة، ومرارة الخيانة، وذل الخروج، وعاش في الاردن، حتى كارثة «أيلول الاسود» عام ١٩٧٠، عندما قام جيش البدو بأوامر من الملك حسين بكسر ظهر المقاومة الفلسطينية في عمان وجرش، فهرب صالح سرية الى العراق، ولم يمكث طويلا حتى عاود الهروب عندما انكشف نشاطه السياسي، فقدم للقضاء غيابيا وصدر عليه الحكم في عام ١٩٧٢. يصل الى القاهرة ويعين في الادارة التعليمية بالجامعة العربية، فهو حاصل على «دكتوراه» في التدريس، ولا يتوقف نشاطه الاسلامي السياسي، ويتصل بالمرشد العام للاخوان المسلمين حسن الهضيبي قبيل وفاته عام ١٩٧٣، وينضم للحلقة المحيطة بالسيدة زينب الغزالي، ويكسب ثقة الاثنين، فهو مطلع وصاحب رأي ومحاور مقنع ومسلم نشط، ولكنه يركز نشاطه في حلقة أخرى، فقد بدأ يكوّن تنظيمه الخاص وفق المنهج «التحريري» الذي يسعى لقلب نظام الحكم في أي بلد اسلامي، واتخاذه كقاعدة للقفز منها نحو البقية، ومصر بالتأكيد هي القاعدة المثالية لحركة من هذا النوع بالنسبة لموقعها، وعمق تأثيرها.. كما انه ككل الاسلاميين يكنّ بغضاً عميقاً لنظام عبد الناصر، وبغضاً أشد

لتوجهات خليفته الذي بدأ منذ حرب رمضان ينسلخ عن القضية الفلسطينية، ويسلك درب الصلح المنفرد مع اسرائيل تحت المظلة الاميركية، كما ظهر في مفاوضات «الكيلو ١٠١» وبعدها «محادثات جنيف». كان غاضباً كمسلم وكفلسطيني، ونجح في تشكيل تنظيم يدين بالعنف والانقلاب ضد الحاكم الخائن فقط، ولكنه لا يكفر مجتمع المسلمين، ولم يعتبرهم «جاهلية» بل عاش معهم كمواطنين عاديين، فلم يلفتوا نظر كلاب الصيد، والبصاصين. معظم أعضاء التنظيم كانوا «قاهريين» و«اسكندرانية»، والمجتمع على استعداد للضربة القادمة في أول فرصة. وجاء وقتها في ١٨ ابريل ١٩٧٤.

تجمع افراد التنظيم في «الكلية الفنية العسكرية» بضاحية مصر الجديدة. وكانت الخطة تقضي بالاستيلاء على «السلاحليك»، والتزود بما فيه من رشاشات وبنادق، والخروج من المبنى لقتل السادات، واقتحام قيادة الجيش، واعلان سقوط الطغيان والخيانة من الاذاعة والتلفزيون.

الخطة بديعة على الورق، ولكن التنفيذ شيء آخر، فكان المفروض على الأقل تأمين «حرس الكلية» بالاقناع أو بأية وسيلة أخرى، فالذين استولوا على المعدات العسكرية، فوجئوا عندما نزلوا لساحة المبنى بكتيبة الحراسة لا ترفع لهم الايدي «سلام سلاح» بل تفتح عليهم النار.

وهكذا قدر للانقلاب ألا يخرج من الباب، وقبض عليهم، وحوكموا بسرعة وسرية أمام محكمة عسكرية أصدرت نطقاً بالاعدام على صالح سرية ومعاونه الأول، ونفذ الحكم، ودخل تسعة وعشرون السجن، وقضت لستين آخرين بالبراءة. ودخلت دفعة جديدة من الاسلاميين سجون السادات الذي كان يجعر بأنه أعتق «مساجين عبد الناصر».

في العام ١٩٧١، الذي وصل فيه صالح سرية الى مصر ليبشر بفكر تقي الدين النبهاني، كان شكري مصطفى يخرج من «ليمان أبو زعبل» ليشكل تنظيم «مجتمع المسلمين» متبعاً منهج سيد قطب، وكلاهما يعتبر الاستيلاء على السلطة واقامة «دار الاسلام» الهدف الرئيسي لحركته وإن اختلفت الوسائل أشد الاختلاف، وطوال السنوات الثلاث التالية ستتحرك الجماعتان، احداهما داخل المجتمع تذوب فيه تماماً بشكل

يصعب فرز أعضائها من بين أفراده، والثانية تحوم على حوافه في حالة من العداء الحذر والتمايز الشديد مظهراً ومسلكاً.

وعندما انقض النظام على مجموعة صالح سرية عقب فشل انقلاب الثانوية العسكرية، ثم اعدام القادة، وسجن الكوادر، سارعت التنظيمات الاسلامية السرية الى ضم بقايا الاعضاء سواء من دخل منهم السجن أو حصل على البراءة، فقد كانت الحركة الانقلابية المجهضة التي قاموا بها محل تقدير بالغ في اوساطهم. وهكذا انضم طلال الأنصاري الى جماعة شكري مصطفى، وهو ما زال في السجن. أما حسن الحلاوي الذي حكم له بالبراءة، فقد خرج من المحكمة ليشكل تنظيمه الخاص على نهج حزب التحرير الاسلامي الذي أدخله صالح سرية الى مصر لأول مرة. وقد تمكن «الحلاوي» من اقناع بعض العناصر العاملة في تنظيم شكري مصطفى، وهذا «عيب» بالنسبة للصعيدي القادم من «أبو خروص» وقيم عصابات المطاريد في جبالها، حيث مملكة الليل لها أصولها التي تحرم تجاوز حقوق الآخرين، وتجازي المارقين بالعقوبة المعترف بها وهي.. الموت، فالسجن لا يخيف بل هو شرف ـ السجن للجدعان ـ ايضاً فبالنسبة لـ «شكري» فان الخروج عن جماعته يعتبر «ردة» عن الاسلام والمرتد عقابه وفق الشرع هو: التعذيب أولا، ثم الموت. وزاد الطين بلة، انشقاق رفعت أبو دلال المسؤول عن التدريب العسكري في الجماعة ليكون فرعاً آخر بقيادته. كان جواً حارقاً مفعماً بالدخان، والاختناق، ونفاد الصبر، وعدم النضج، أدى في النهاية للتشرذم وضياع الهدف الحقيقي. وبدلا من الصراع ضد العدو المشترك، دخلت الزمر المتنافسة في مأزق التناحر بين بعضها البعض، فانكشفت، وأصبح رصدها سهلاً، وضربها أسهل، أو ترك الفخار يكسر بعضه بعضاً.

في نوفمبر ١٩٧٦ شعر شكري مصطفى ان وضع الجماعة بات مهدداً، وان الانشقاقات أدت بالفعل الى ضمور في حجم التنظيم، وان الشك بدأ يتسلل الى بعض النفوس في ظل الظروف المعيشية القاسية داخل التنظيم الاسبارطي، فقرر القائد القيام بعملية يستعيد بها جدارته، ويؤكد هيبة تنظيمه، وسيطرت على الجميع نفسية «المنظمة

السرية» وهوس الأمان والولاء المطلق، والأحكام المطلقة التي تسيطر على مناخ العمل تحت الأرض.

وشكلت فرق الانتقـام والتصفية البدنية، لملاحقة جماعات «الردة» وبإقدام الجماعة على تهديد ومطاردة مواطنين مصريين يحميهم القانون، فانهـا فتحت على نفسهـا ثغرة يتدخل منها البوليس كممثل للمجتمع الجاهلي، ليصطدم بالجماعة وهي ما زالت في «مرحلة الاستضعاف».

واقتحم البوليس عالم العزلة، وبدأ يطارد «مجموعة المطاردة»، وقبض على اربعـة عشرة عنصراً منهم، وصـدرت مذكـرة بالقبض على شكري مصطفى نفسه بصفته محرضاً على الاغتيال ـ حتى هذه اللحظة لم يكن هنـاك اغتيال ـ وبدأ ايقاع «السيناريو» يتسارع كأننا أمام شخوص كالقذائف العشوائية. ومن الصعب حتى بعد عشر سنوات من الاحداث، تحديد الأسباب التي دفعت شكري مصطفى الى الدخول في مواجهة هو بنفسه يقول إنه لم يكن مستعداً لها، ولكن هناك عدة احتمالات، كلها معقـولة، منهـا: أن شكري النافذ الصبر بطبعه دفع الأمور الى حافة الصدام مع نظام لم يقفل عيونه، ويسد آذانه إلا لهدف ووفق حسابات.

ـ أيضـاً هناك الدور الغامض الذي لعبه كل من «الحلاوي» و«أبو دلال» لحساب المخابرات والمباحث، وهناك ظواهر كثيرة ـ غير مؤكدة ـ تشير الى انهما لعبا دور الطعم المهيج الذي سحب شكري للفخ الذي نصبته له الدولة، التي بدأت تتربص للجماعات الاسلامية بعد محاولة «الفنية العسكرية».

عمـوماً كان التنظيم مخترقاً بعناصر تعمل مع الأجهزة الأمنية بكل فروعهـا، بل ان الرجـل الثاني في الجماعة ماهر بكري كان على صلة معـروفـة بالمخابرات العامة، حيث اتفق معهم على التغاضي عن نشاط جمـاعتـه مقـابل أن يمدهم بالمعلومات على نشاط الجماعات الأخرى، خاصة بقايا تنظيم صالح سرية الذي كانت المخابرات المصرية تعتقد أنه على صلة مع ليبيا.

كذلك فان شكري مصطفى الذي لم يتردد لحظة في دمغ المجتمع كله «جاهلية»، لم يتوقف كي يحدد للجماعة اطاراً واضحاً للتعامل مع هذا

المجتمع كأفراد ومؤسسات ـ ما يجوز ولا يجوز ـ بل سنجده يقول: «ان نظام السادات لأفضل بآلاف المرات من نظام عبد الناصر، فالسادات هو الذي سمح لنا بحرية العمل، فتصرفنا كما شئنا، ونشرنا مبادئنا علناً كما يحلو لنا».

وهذا تخريج خاطىء قياساً على منهج سيد قطب بل قياساً على كلام شكري نفسه، والذي يؤكد ان دولة الظلم واحدة، وان المسلمين غرباء حتى تقام دولة الاسلام.

أحد رفاقه رد على سؤال في المحكمة عما كان يفعله عبد الناصر بالتنظيم لو كان على قيد الحياة، بقوله:

ـ كان عبد الناصر سيهوي علينا بمطرقة من حديد، أما السادات فسيشنقنا بحبل من حرير.

وكان يتنبأ.

كان السادات الذي يرتدي حلة قيصر المنتصر بعد معركة العاشر من رمضان، الواثق بذكائه، فهو يلعب بالجميع.. الروس ضد الامريكان، والعرب المتشددين ضد العرب المعتدلين والمسلمين ضد المسيحيين والتيار الديني ضد التيار الماركسي والناصري، فوجىء تماماً بمحاولة انقلاب «الفنية العسكرية»، واعتبره حركة خيانة من الجماعات الدينية التي تصور انه وضعها في عِبه.

اهتز نفسياً أو اهتزت الصورة التي رسمها لنفسه وليس كما يراها الناس. عرف الطريق الى الطبيب النفساني، فبدأ حقنه كل ١٢ ساعة بعقار يساعده على التماسك، وقرر الانتقام من الشبح الاسلامي، وأوحى بذلك للأجهزة. وما أن قبض على الأعضاء الأربعة عشر من تنظيم شكري مصطفى الذي أصبح مطارداً، حتى قاد علي حمدي الجمال جوقة الاعلام السطحي من صحيفة «الأهرام» الوقورة عادة، فصدرت وعلى صفحتها الاولى مانشيتاً مهيجاً، لوى رقبة الخبر وحوله الى اتهام للتنظيم وقيادته بأنهم حفنة من المجرمين المتهوسين، يعيشون في الاماكن النائية كالوحوش البدائية.. وتسلم الخط موسى صبري في «الأخبار»، وأنيس منصور معه في «اكتوبر»، وبدأ دق الطبول الكبيرة. وطوال النصف الأول

من العـام ١٩٧٧، حاول شكـري مصطفى المستحيل كي يطلق سراح اخوانه الاربعة عشر الذين لم يفعلوا شيئاً بالفعل، وحاول باستماتة أن يجعل الصحافة الضارية تنشر صورة حقيقية منصفة عن جماعته التي شوهت صورتهـا في عين الرأي العام، فتلقت كل المؤسسات الصحفية ردوداً منه على ما يكتب من افتراءات ضده، وتلقت الاذاعة ايضاً بيانات توضح موقفه وما يحدث لجماعته.

لم ينشر حرف، ولم تذع كلمة واحدة. ولم تكن لدى الشاب الخام أية فكرة عن طبيعة الماكينة المصرية الحاكمة ومدى خبثها. انعدام الخبرة هذا سيدفع ثمنه غالياً مع جماعته.

أقبـل شهـر يوليو الجهنمي، ودرجة الحنق والغيظ ترتفع مع درجة حرارة الجـو، وقـرر شكـري ان هذه الحكومة تحتاج الى ضربة كبرى تزلزلها حتى تستجيب لمطالبه وتمنحه الفرصة كي يدافع عن صوابية وشرعية موقفه.. كي يعرف الناس الحق من الباطل.

وفي ٣ يوليو ١٩٧٧ توجهت زمرة من الجماعة في ملابس رجال الشرطة، وخـطفـوا الشيـخ محمود الذهبي وزير الأوقاف السابق. وفي ساعات الصبـاح البـاكـر وزعوا بياناً يعلنون فيه مسؤوليتهم عن الاختطاف، ومجموعة مطالب لا بد من تحقيقها قبل الافراج، وإلا فانهم يقتلونه حتماً.

ومـراجعـة مجموعة المطالب تبدو هامة، لأنها توضح النفسية التي وصل اليها شكري والمجموعة:

أولاً: الافراج عن المقبوض عليهم وخاصة الأخ طلال الأنصاري ـ من مجموعة الفنية العسكرية.

ثانياً: اعلان العفو عن جميع المطلوبين الذين صدرت ضدهم أحكام.

ثالثاً: تسليم مبلغ ٢٠٠ ألف جنيهاً مصرياً نقداً مستعملة وغير معلمة، ولا مسلسلة الأرقام.

رابعـاً: ان تعتـذر صحف «الأهـرام» و«الأخبـار» و«الجمهـورية»، ومجلات «اكتوبر» و«آخر ساعة» و«الأزهر» عن الأكاذيب والاتهامات التي نشرتها ضد «مجتمع المسلمين» ونشر الاعتذار على صفحاتها الأولى.

خامساً: التصريح بنشر كتابنا الأول بعنوان «الخلافة» وعدم الممانعة بنشره في الصحف.

سادساً: تشكيل لجنة من الفنيين والخبراء، تكلف بالتحقيق والتحري في مخالفات الهيئات التالية: مكتب المدعي العام لمحكمة أمن الدولة، والقضاة بها، والمخابرات العامة، ومكتب المدعي العام بالمنصورة.

سابعاً: ان يذاع هذا البيان بنصه كاملا في نشرة الساعة الثامنة والنصف مساء اليوم ٣ يوليو ١٩٧٧.

ثامناً: ينشر هذا البيان في الصحف المصرية الثلاث الصادرة يوم الاثنين ٤ يوليو، وفي صحيفة «البعث» السورية، و«النهار» اللبنانية، وكذلك في الصحف السعودية، والكويتية، والأردنية، والسودانية، والتركية، والايرانية، وأيضاً صحيفة «النيويورك تايمز» في امريكا، و«لوموند» بفرنسا، وصحيفتي «الصنداي تايمز» و«الجارديان» في انجلترا، كل صحيفة باللغة الصادرة بها.

تاسعاً: ونحن كمسلمين مرتبطين بالكلمة التي نقولها، وبالوعد الذي نقطعه، والشرط الذي نضعه، طبقاً للأصول التي حددتها الشريعة.

وفي النهاية هددوا بقتل رهينتهم إذا حاولت الشرطة البحث عنه أو قامت بالقبض على أحد منهم.

هذا البيان الذي لم ير النور، يحتاج الى تحليل علمي، نفسياً وسياسياً، فهو يمثل قمة الضغط التي يعانيها المطارد المحاصر، الذي يريد ان يفعل أي شيء كي يسمع العالم صراخه.

أيضاً هو يوضح كيف استدرجته السلطة، ولعبت به حتى أوصلته لتصرفات اليأس، ودفعته الى آخر النفق المسدود ـ ان يقتل كي تقتله ـ ونلاحظ بوضوح دور الاعلام المتواطىء والآثم. أيضا نكتشف مدى سذاجة تحليل شكري لتركيبة السلطة داخل الدولة المصرية العلية وهياكلها ودهاليزها، خاصة عندما يطالب بتشكيل «لجنة فنية» للتحقيق داخل جهازي أمن الدولة والمخابرات العامة، فهو لا شك يجهل أن هذه الأجهزة هي فوق أية لجنة، وفوق أية مساءلة، وفوق الدولة كلها. هي معمل التفريخ الذي اخترعه الحكم العسكري لتخريج الكوادر العليا في

السلطة. معظم رؤساء الوزراء وحضرات الوزراء، وأصحاب السعادة السفراء والمحافظين، ورؤساء مجالس شركات القطاع العام، والمصدرين الكبار والمستوردين الأكبر، تخرجوا من منجم العبقرية الموجودة في مبنى المخابرات العامة وبعده بقليل مبنى المباحث العامة الذي بناءً على تقاريره المعصومة، يعين القضاة وكبار المستشارين ورؤساء تحرير الصحف ورؤساء مجالس ادارتها، فهذا الجهاز هو الذي قسم شعب مصر الى نصفين كل منهما يكتب تقارير على النصف الآخر.. وغير مسموح لمن يجهل هذه «الميكانيزمات» أن يتصدى لعملية التغيير في مصر، للأحسن كان أو للأسوأ.

هذه كانت غلطة شكري مصطفى، وهي أيضاً غلطة جميع الحركات الاسلامية قبله وبعده منذ ذلك اليوم الدامي الذي أطلق فيه الامباشي أحمد حسين جاد الرصاص على الشهيد حسن البنا أمام المبنى الضخم لـ «الشبان المسلمين» وحتى فجر اليوم الأغبر الذي وقف فيه خالد الاسلامبولي أمام فرقة ضرب النار في الجبل الأحمر على بعد أمتار من المكان الذي قتل فيه السادات ودفن أيضاً.

التحليل «الجيشي» للقضية

عندما خطفت جماعة شكري مصطفى الشيخ محمود الذهبي لم يكن الرئيس المؤمن محمد أنور السادات في مصر. كان في زيارة للمغرب يعالج هماً آخر، ولم يكن مستعداً بأي حال أن يشغله «شوية العيال المهاويس دول» عن المنصة العالمية التي يستعد للقفز عليها في فصل «تراجوكموميك» سيذهل الدنيا ـ كان ممثلا في أعماقه، نشر في شبابه اعلاناً يطلب فيه دوراً في السينما ـ المهم انه ترك الموضوع التافه للأجهزة كي تتصرف، مع توجيه إلهي منه: «مش حرحم.. افرموهم». المهم لم يعد مهماً من يعيش، ومن يموت، واشتغلت «المفرمة»، ووجد شكري مصطفى ان صرخته لم تبلغ أحداً، لا اذاعة أذاعت، ولا صحف محلية ولا عربية ولا عالمية نشرت، والدولة تواصل التشهير به ليل نهار، وهو كمن يعاني الكوابيس، يصرخ ولكن صوته لا يخرج من حلقه، يرى نفسه يُمرغ في الطين وهو عاجز عن رفع يده محتجاً.

وفي يوم ١٩٧٧/٧/٧، عثرت الحكومة على جثة الشيخ الذهبي مقتولا، وكان هذا هو المطلوب بالضبط. ومن المؤكد أن المباحث العامة كانت تعرف مكان اختباء شكري ومجموعته، وكان ممكناً القبض عليه قبل أن تأخذ الأحداث في تصاعدها الجهنمي، ولكن الجماعة دفعوها بمنتهى الحنكة نحو الدم. وبسرعة رأينا البوليس يقبض على «شكري» وكامل الجماعة كأنهم في جيبه. ورغم أن القتيل كان من مشايخ الأزهر وليس لواءً في الجيش، وأن المتهمين كانوا مدنيين وليسوا عسكراً ولا حتى موظفي حكومة، فقد وجدنا سيادة الرئيس يأمر بتشكيل محكمة عسكرية لنظر القضية، أو بمعنى أصح، بهدف الارهاب، وتصفية الحساب. وبينما سمح للجيش بابداء رأيه، بل وسلطته في قضية دينية تمس العقيدة، فانه لم يسمح لشيخ الأزهر، وهو أعلى سلطة دينية في البلد، بأن يدلي برأيه في المحكمة التي لم تتورع عن التنديد بالهيئة الدينية وتتهمها بالتقصير.

وعرف الناس ساعتها اكثر من أي وقت سابق معنى ان يحكم العسكر

بصفتهم ضمير الأمة.

وهكذا رأينا اللواء مخلوف المدعي العسكري يتولى الدعاية لنفسه على صفحات «الأهرام»، وبطريقة نصابي الموالد: «الليلة الليلة، البرنامج الكبير.. بسيرك الحلو».. فيقول للمحرر المطيع إن السبب في نظر القضية أمام محكمة عسكرية هو أنها جريمة فظيعة جداً هزت الرأي العام الذي يطلب القصاص الرادع السريع جداً. وهذا ما يقدمه القضاء العسكري ـ بكل فخر ـ ثم اننا في شهر يوليو، والقضاء العادي في اجازة. ثم قال إنه اذا كان أي مواطن لديه أدنى شك في جدارة المحكمة، فعليه ان يعلم بأن جميع أعضائها ومحققيها من الحائزين على درجات و«دكتوراهات» في القانون وخلافه. ولم ينس سيادته ان يدلل على شطارته ويهنىء نفسه بأنه وجماعته قاموا بانجاز خارق، ففي أقل من ثلاثة أسابيع، انتهوا من التحقيق مع مئات المتهمين ـ مفرمة ـ وتجهيز أوارق قضية بهذا الحجم، كانت تحتاج الى سنوات أمام القضاء العادي.

ولست ادري كم دقيقة استغرقها التحقيق مع كل متهم أمام هذا القضاء «الاسكبريسو»؟

ولماذا لم يطالب سيادته بالغاء القضاء العادي لأنه «هلس»؟

ثم تناول بعد ذلك المتهمين الذين لم يصدر ضدهم حكم والمفروض انهم أبرياء حتى تثبت ادانتهم، فوصف شكري مصطفى بأنه مجرد «دجال» يتصدى لتفسير القرآن والحديث والسُنة، وهذه أمور تحتاج الى مؤهلات دينية ـ شهادات ـ لم يحصل عليها، فهو جاهل لا يفقه شيئاً في الصرف والنحو. وعندما دخل السجن عام ١٩٦٥ لم يكن يحفظ آية واحدة من القرآن، ولكنه خلال الاعتقال قرأ كتباً تحتوي على فكر منحرف ـ المقصود هنا هو مؤلفات سيد قطب وأبو الأعلى المودودي، كما ذكر ذلك صراحة في المحكمة المخبر عادل مجاهد الذي دسته المباحث على الجماعة ـ وقال الجنرال مخلوف ان «شكري» اعتمد فكرياً على فيلسوف التنظيم ماهر بكري وهذا أجهل منه، ولا تزيد معلوماته عن معلومات طالب ثانوي.. ورغم ذلك تمكنا باستعمال الأفكار المشعوذة من غواية بعض ضعاف العقول من الشباب.

ربمـا كان هذا الكلام أكبر من ان يبتلع، حتى من جانب صحفي موظف، فسأل «الحاكم العسكري»:

ـ كيف يتسنى لدجال، جاهل سقيم التفكير، أن يسيطر على تنظيم أغلب أعضائه من الأطباء والمهندسين وخريجي الجامعات؟

فرد عليه الجنرال مفهماً: إن هؤلاء الأعضاء المثقفين قد درسوا العلوم الطبيـة والهنـدسية وغيرها في الجامعات، ولكنهم لم يدرسوا شيئاً من العلوم الدينية. إنهم يعانون مما أسميه بالفراغ الديني ـ وسنلاحظ ان الاسلام بالنسبة لسيادته ليس إلا مؤهلات علمية، وشهادات مدرسية ـ وهذا هو العيب الأساسي الذي تعاني منه الشبيبة المصرية.

بعـد حديث «الأهـرام» أعـاد العبقـري العسكـري تأكيد نظرياته التربوية الدينية في الجلسة الافتتاحية للمحاكمة في ١١ اكتوبر ١٩٧٧ التي أرادهـا ادانـة للجميـع، ورفعـاً لشأنه الشخصي ولشأن جماعة العسكر ـ جماعته ـ ففي خطبة عصماء قال:

ـ إن منبع كل الشرور كامن في الفراغ الديني الذي يعاني منه الشباب المصري.

ولم ينس وصف العلاج، فقدم «الشربة العجيبة» الشافية لكل العلل، فقال:

ـ إن التـربيـة الدينية يجب أن تكون إجبارية للتلاميذ من مرحلة الحضـانـة حتى التعليم الجـامعي، على أن يكملهـا اهتمـام الكتّـاب والصحفيين فيما يقدمونه من انتاج، مما يجعل القيم الدينية محل الاحترام.

ولكن هجومه «العنتري» كان من نصيب العلماء ومشايخ الأزهر، فقال:

ـ على الهيئـات الدينيـة في الأزهـر ووزارة الأوقاف ان تهتم جدياً بمهمتها في نشر الدعوة الاسلامية، وتظهر أهدافها السامية، وتكتشف المنابع التي تروي حقول التعاليم الدينية. ولا بد من اتخاذ الاجراءات الكفيلة برفع مستوى خريجي الأزهر العاملين في ادارات الارشاد، وبذلك يمكنهم أداء رسالتهم النبيلة التي أوكلت لهم، وبالطريقة التي تكفل لهم

الوصول الى قلوب الشباب وعقولهم.

هذا التحليل الجيشي، لقضية تعتبر أخطر ما ظهر في مصر المعاصرة، حيث صاحبها دجال وجاهل، غرر بفكره المنحرف بمجموعة من البلهاء، متستراً بعباءة الدين، والسبب أنهم جميعاً يعانون مما يسميه «الفراغ الديني»، والحل هو تعليم الدين في المدارس، وأن يتحرك الأزهر المقصر، كي «يشوف شغله»!

وهكذا فان السلطة بريئة، والفراغ السياسي، والفشل الاداري، والفساد الاجتماعي، والانحلال الخلقي للقيادة.. كل تلك أمور لا علاقة لها بالقضية التي محورها «تكفير المجتمع».

* * *

لم يكن هناك موقف أتعس من موقف رجال المؤسسة الدينية في أكتوبر ١٩٧٧، عندما بدأت محاكمة جماعة شكري مصطفى، فالقتيل الشيخ محمود الذهبي وأحد كبار المشايخ، والمتهمون يهتفون ضدهم من وراء القضبان، وينعتونهم بأنهم «برادع السلطة» و«صكاكي الفتاوى» و«المسترزقين بالدين» الذين يبيعون كلام الله بثمن بخس، والمدعي العسكري ممثل السلطة الفعلية يتهمهم بالتقصير في القيام بمهمتهم، وأنهم بتقاعسهم تسببوا فيما سماه بـ «الفراغ الديني» فأوقعوا الدولة في هذا المطب.

الجميع ضدهم، وهم مكممون غير مسموح لهم برد اللكمات التي تنهال عليهم «تحت الحزام»، حتى أصبحوا «ملطشة» في آخر الزمان، وها هو عسكري «بتاع شمال يمين.. خلف دُر» يحاضرهم في مهمتهم، ويعلمهم ما يجوز وما لا يجوز، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الواقع ان شكري مصطفى لم يقع اختياره على الشيخ الذهبي عبثاً، فهناك عداوة مذهبية قديمة، بدأت بين الاثنين قبل عامين من مقتل الذهبي. بالتحديد في يوليو ١٩٧٥، عندما قام الشيخ الذي كان يومها وزيراً للأوقاف، بكتابة مقدمة لنشرة طبعتها وزارته للرد على فكر الجماعة،

وقد اتسم كلامه الوزاري السلطوي بالعنف وعدم الموضوعية، فقد ربط بين مذهبهم وبين مذاهب «الخوارج الغلاة» الذين ظهروا في عهد سيدنا علي، فأفسدوا العقيدة وأضعفوا الدولة، واستباحوا اغتيال «الامام» وفرقوا الجماعة، واستسهلوا تكفير المسلمين.. ومن ثم فقد جرم معالي الشيخ الوزير فكر «الخوارج المعاصرين»، وحذر من تصديق دعاواهم الباطلة.

وهذه الأسطوانة شديدة السطحية بدرجة لم تتح للدولة فرصة تفهم الموقف الاسلامي السياسي، والذي يتضمن في صلبه جواز الخروج على الحاكم ومشروعية اسقاطه عندما يصبح وجوده خطراً على الاسلام والمسلمين.. هذا الجانب المطموس عمداً من الفقه، ظهر بقوة في برامج التيار الاسلامي الجديد، وكانت مناقشته هامة جدا، حتى لا تتصور السلطة ان العقيدة المحمدية قامت على قاعدة «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».. هذا الفصل بين الدنيا والدين غير وارد إسلامياً بل الاسلام ما قاله أبو بكر مدشناً خلافته: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم.. فإن أصلحت فأعينوني، وان أخطأت فقوموني».. فكان الرد: «والله لئن اخطأت لقومناك بسيوفنا».

لذلك جاء رد الشيخ الذهبي مبتسراً عندما رفع اللوم عن النظام الغارق في خطاياه، ولم يكلف نفسه عناء كشف هذه الخطايا، وهل تجيز للجماعة الخروج عليه.. أم لا.

وهذا واجبه كعالم رأى منكراً، وطولب بكلمة صدق في وجه حاكم ظالم، ولذلك كان طبيعياً أن يقوم الجنرال مخلوف المدعي العسكري، باطلاق النار على المشايخ العلماء لأنهم لم يعلموا الشباب أن ينصاعوا لفرعون الذي طغى، وقال إني ربكم الأعلى.

كانت قضية غريبة حقاً أدين فيها الجميع على يد المجرم الحقيقي.

والواقع ان تقليص الدور القيادي للأزهر بدأ على يد العسكري الألباني محمد علي باشا الذي أجلسه المشايخ الأزهريون على عرش مصر، فعرف خطورتهم ـ الذي يوليك يمكنه ان يقوم بعزلك ـ ولذلك ضربهم ببعضهم، وأفسدهم بالرشاوى، فأسقطهم في عيون الرعية، ونفى

أكثرهم صلابة السيد عمر مكرم، فأصبح البقية مجرد.. «دلاديل»، ثم قضى على الأزهر «المؤسسة» عندما أنشأ المدارس الحديثة بعيدة تماماً عن مشايخه وعن التربية الدينية، وتقلص دور الأزهر التشريعي عندما بدأ أحفاد محمد علي بادخال القوانين الأوروبية لتحل محل قضاة الشرع من خريجي الأزهر، وحصرهم في «قضايا الأحوال الشخصية».

هكذا انتهى دور الأزهري الثوري، وكيل الأمة، ومحامي الغلابة، وبعبع الظلمة، والمدرس الوحيد المعتمد، والقاضي بالحق، الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، حجر الزاوية في المجتمع بالمدينة والقرية.

في الستينات ـ تحديداً عام ١٩٦١ ـ جاءت عملية تطوير الأزهر التي فرضها النظام العسكري، المتورط ضد التيار الاسلامي، لتحول الأزهر [شبه المستقل] الى دائرة إعلام موجه، مطلوب منها أن تدعو وتتحمس لمبادىء الثوار وسياستهم التي تتغير كل يوم، والتي تأتي غالباً مناقضة للاسلام كالتحالف مع الروس ـ موالاة الكفر ـ وضرب مسلمي زنزبار لصالح نيريري الانجليكاني، واعتناق ما يسمى «الاشتراكية العلمية» والحكم بالقرارات الجمهورية التي تصادر وتسجن وتسقط المواطنية، وليس الحكم بما أنزل الله.

قبل هذا «التطوير» كان المشايخ بالأزهر غير مطالبين بالتورط عند خروج الحكومة عن الحدود الشرعية، وغالباً كانوا يلتزمون الصمت ـ موقف سلبي ولكنه وقور ـ أما بعد «التطوير» فإن كبار العلماء أصبحوا مجبرين على نصب «زفة» تهلل لـ «الريس»، وللاتحاد الاشتراكي، ولمحافظ القاهرة، يهتفون فيها ويكبرون لكل قرار يتم بدءاً من مشروعية حرب اليمن وانتهاء بتحديد سعر الكوسا وتحليل أكل اللحم المجمد، ومشروعية سعر الفائدة، والثواب العظيم الذي يجنيه المسلم الذي يشتري سندات الدين الحكومي.

وكان منظرا مثيرا للشفقة، وليس السخرية، والتلفزيون يعرض صور كوكبة من مشايخنا الأفاضل محشورين في الصف الأول داخل السرداق الكبير بميدان الجمهورية يستمعون ويصفقون لخطاب سياسي بمناسبة اعلان القرارات الاشتراكية، أو جالسين في قاعة «الاتحاد الاشتراكي»

لمناقشة «الميثاق»، أو يركضون في قاعدة لاطلاق الصاروخ «القاهر» و«الظافر».

لقد أصبحت «العمامة، والجبة، والكاكولا، والقفطان» جزءاً من الديكور الضخم للدولة التي قامت على «السونكي، والسبطانة... والكاب، والجزمة الميري».

انتهى الأزهر أو أنهوه عمداً، فلم يعد قادراً على الدفاع عن نفسه، وبالتالي عاجزاً عن الدفاع المجدي عن النظام، فتحول الى زائدة دودية لا تفيد وإن كانت مزعجة.

هذا الانزلاق المتواصل لتحت في دور الأزهر لم يكن بالطبع في مصلحة الاسلام، ولم يكن أيضا في مصلحة النظام، فالناس لم يعودوا يصدقونهما معاً عندما اكتشفوا حجم الخديعة والكذب بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، وأصبح الأزهر وأحمد سعيد وجهين لاسطوانة واحدة مشروخة، ولذلك فشل الشيخ محمود الذهبي في اقناع الناس بصدقه في ادانته لمجموعة شكري مصطفى. لقد استخدمته الدولة في تلقي رصاص الغضب، كما يستخدم العسكر أكياس الرمل في ميادين ضرب النار.

لقد أصبح المشايخ مجرد اكياس رمل في ظل دولةٍ بلا عقيدة.

الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق، رجل بلدياتي صاحب مؤلفات عجب، ودكتوراه من «السوربون»، وأموال سائلة، وعزبة في «غيته» وقبر يزار.. مجموعة من المتناقضات، تحتاج لمؤرخنا العظيم عبد الرحمن الجبرتي كي يسبه ويترحم عليه، كما فعل مع مشايخ زمان: الشيخ البكري والشيخ الشرقاوي وأبو الأنوار محمد السادات.. وغيرهم كثيرون.. ورغم ذلك، ومهما كان رأيي فيه وفيما كتب، فإن موقفه الكبير في قضية الشيخ الذهبي، ورأيه المعلن المكتوب في نظام الحكم العسكري بمصر، يجعلني أحترمه وأنصبه سبعاً من سباع الشرقية مع عرابي وأدهم الشرقاوي وسليم سويلم.. وتجعلني أترنم له وأحكي عنه بالموال المحجوز عندنا للرجال:

«منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه..
شبه «المؤيد» اذا سمعوا الكلام وتالوه..

دي الحادثة اللي جرت على سبع الشرقاوي...

الاسم أدهم لكن اللقب شرقاوي..»

نعود لشيخنا المثير للجدل، فنجد أنه كان غائباً عن «المحروسة» عندما تفجرت قضية اختطاف وقتل الشيخ الذهبي إذ كان متواجداً في لندن من الثالث وحتى السابع من يوليو ١٩٧٧، وعندما وصل كانت الحملة الاعلامية ضد جماعة شكري مصطفى والتي أطلقوا عليها اسم «التكفير والهجرة»، قد بدأت تهدر بقوة ومن جميع المخارج الرسمية، ومن ضمنها الجهاز الديني المصاب في أحد أعلامه.. وهنا كانت مساهمة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر عبد الحليم محمود مطلوبة وبسرعة، فهو شخصية قوية وصوت مسموع فرض نفسه بتوجهاته وعلاقاته، على النظام الساداتي الانتهازي، فأصبح الشيخ بصورة ما قادراً على السير بموازاة السلطة، وليس خلفها.. وكتب «الامام الأكبر» رأيه في القضية، وأرسله الى علي حمدي الجمال رئيس تحرير «الأهرام» المهزوز، والذي يخاف من خياله، فوجد كلام الشيخ الذي يمثل رأس المؤسسة الدينية لا يتمشى مع رأي الجيش وهو المؤسسة الحاكمة، والتي تحاكم المتهمين، فأصيب «الجمال» بالرعشة، وسأل أولي الأمر، فأشاروا عليه بوضع المقال في «الثلاجة»، ففعل.. ولكن الشيخ نافد الصبر وعصبي، وعارف لوزنه، فألح وهدد بأنه سيذيع بيانه على العالم الاسلامي، فالقضية دينية تمس الاسلام فكراً وتطبيقاً، والضحية أحد مشايخ المسلمين وكبار العلماء، والساكت عن الحق شيطان أخرس، وشيخ الأزهر ليس بشيطان وليس بأخرس. وتحت التهديد نُشر رأي «الامام الأكبر» في عدد ١٦ يوليو من «الأهرام»، وكان قنبلة.

في المدخل الهادىء للموضوع فند الامام فكر «الجماعة» ورفض رأيهم باعتبار مجتمع المسلمين المعاصر «مجتمعاً جاهلياً»، وعدد الأسباب، ورفض من منطلق اسلامي أن تنصب جماعة نفسها وباسم الاسلام «قضاة» يحكمون بتكفير أي مسلم قال بألا إله إلا الله.. فأصبح دمه حراماً وماله حراماً وعرضه حراماً... إلخ..

هذا التنفيذ لم يخرج على كلام المرشد حسن الهضيبي في كتابه

«دعاة لا قضاة».. بل يكاد يكون مطابقاً لما كتبه الشيخ الذهبي، فأودى به لحتفه.

الخطير في الموضوع جاء عندما تعرض «الإمام الأكبر» لشرح الأسباب التي تدفع المسلم، المسالم عادة، الى اعتناق الفكر المتطرف وسلوك العنف ضد المجتمع، فقال إن السبب هو استيلاء جماعات لا تؤمن بالاسلام على السلطة في مجتمع مسلم، عقيدته وحياته وآماله مرتبطة بالاسلام.. فاذا كانت المؤسسة الحاكمة لا تسلك سلوكاً اسلامياً، ولا تحكم بما انزل الله، فانها تقدم بذلك دعوة لاستعمال العنف ضدها. إذاً فحكم الجيش هو سبب مقتل الشيخ الذهبي، والمحكمة العسكرية التي تحاكم المتهمين ليست شرعية لأنها لا تحكم بما أنزل الله.. بل والنظام يفتقد الشرعية، وعدم قناعة الشباب به تدفعهم ضده فكراً وسلوكاً. وبذلك اقترب شيخنا «السبع» من التحليل الصحيح لأزمة النظام، واصطدم به، فالمحكمة التي تشكلت من العسكر، ومثلت رأيهم، حللت القضية وفق المنظور الناصري المهترىء، على أنهم جماعة من الشواذ المنحرفين، يتسترون بعباءة الدين لاشاعة الارهاب وقلب النظام الثوري الحضاري، وللعودة الى الوراء، الى العصور المظلمة.

هذا المنطق الديماغوجي هيمن على المحاكمة، ورفض الاعتراف بأية مسؤولية للنظام العسكري الفاشي الفاشل، ورفض محاولة المتهمين لمناقشة فكر ثورة ٢٣ يوليو تحت منظور اسلامي، وتكتم على ادانتهم الجريئة لممارسات المؤسسة العسكرية الغاشمة.

كما تحاشت المحكمة باصرار محاولة محامي الدفاع استدعاء الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود للشهادة في القضية التي أصبحت محاكمة للفكر الاسلامي، وقد تضمنت المذكرة التي قدمت بتاريخ ٢٦ اكتوبر ١٩٧٧ أهمية شهادة «الامام» حتى يظهر الرأي الشرعي الفقهي فيما طرحه المتهمون من أسانيد وفتاوى، برروا بها منهجهم وأُجبر الأزهر وشيخه وهيئة كبار العلماء على الصمت حتى نشرت حيثيات الحكم في ١٢ مارس ١٩٧٨، وفيها تحامل شديد على رجال الدين، وتنديد بتقصير الأزهر في القيام برسالته وملء ما أسموه «الفراغ الديني» الذي جعل

الشباب يقبلون على الدعوات المتطرفة، وبذلك أصبحت السلطة بريئة، والشباب ضحايا، والمذنب الوحيد هو الأزهر ورجاله وعلى رأسهم «الشيخ العصبي».

من السهل جداً تخيل وقع هذا الافتراء الغبي والمتغطرس على عبد الحليم محمود، فأسرع الى قلمه يدبج رداً من نار على التقرير، وأرسله الى الصحف المصرية كافة، فلم ينشره أحد، فبعث به للصحف العربية لتنشره على صفحاتها الأولى، حيث قال في الجيش ما لم يقله مالك في الخمر، وطعن في جدارة المحكمة العسكرية التي نظرت في «قضية دينية»، وندد بنظام السادات الذي يدعي سيادة القانون وحرية الرأي، وهو يهدرهما في كل ممارساته.

وقال إن الحكومة كانت تريد من علماء الأزهر ان يجرموا فكر جماعة لم يلتقوا بهم، ولم يسمح بمناقشتهم، وهذا لا يجوز شرعاً، ولا في أية ملة ولا أي دين. واتهم المحكمة العسكرية بأنها خلطت عن جهل بين جريمة قتل الشيخ الذهبي وبين أفكار شكري مصطفى وجماعته.

كان زئير عبد الحليم محمود عالياً وغاضباً ومخيفاً، دوى خارج مصر، ولكنه خُنق داخلها. وتدعمت شكوك العسكر في المشايخ، وهي شكوك دفينة، و «تار بايت».

كانت ثورة الشيخ عبد الحليم محمود على تقرير المحكمة العسكرية التي أدانت جماعة شكري مصطفى أمراً خطيراً وله دلالته، فهو يوضح المأزق الذي وضع فيه العسكر الحكام حلفاءهم من المشايخ، فهم يقومون بارتكاب الجرائم، ويمسحون أيديهم الملطخة بالدم في ذقون رجال الدين. وفوق كل ذلك يطالبونهم بأن يبذلوا جهداً أكبر، بل وها هو الجنرال مخلوف يتهمهم بالتقصير، وبأنهم تسببوا بتقاعسهم في «الفراغ الديني» الذي اكتشفه بعبقريته، وهذا «الفراغ الديني» هو الذي دفع الشباب لاعتناق الفكر المتطرف واللجوء للعنف.

لقد لمس «الجنرال» خللاً في المؤسسة الدينية التي عمرها ألف سنة، ووقف يعلم أئمتها شغلتهم، مؤكداً ان ضباط الجيش هم الأعلم والأفهم والأقدر على كل شيء.. فعندما تسوء حال المواصلات ينزل الجيش

لينظمها. وعندما يسوّد وجه الرغيف يتدخل الجيش ليضبط المخابز، وعندما يخيب «لعيبة نادي الزمالك» يقيم لهم الجيش معسكر تأديب، وعندما يضطرب رجال الطرق الصوفية يضمها الجيش لتصبح ادارة تابعة للقائد العام. وهكذا أصبح الجيش يربي عجولاً، ويبيض فراخاً، ويصلح كل شيء، وينتصر في كل المعارك إلا المعارك العسكرية.. والآن جاء الدور على الأزهر، ولم يبق إلا أن يطالب الجنرالات بوضع هيئة كبار العلماء في معسكر تدريب وتهذيب، ومعاملة الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود كما يعامل الكابتن محمود الخطيب عندما يخسر فريق مصر الكروي مباراة مع زائر.

لقد فجرها الشيخ «علي بلاطة»، وقال لنظام البكباشية والأمباشية إن خروجكم على الاسلام، وعسفكم بالمسلمين، وعدم حكمكم بالقرآن، هو الذي دفع الشباب المسلم الى العنف.. عنفكم أساساً هو الذي ولد العنف المضاد، مصادرتكم لكل السلطة ولكل موارد المجتمع، جعلت فكرة الهجرة مقبولة ومغرية، فالشباب لا يدير ظهره لمجتمع يوسع لهم مكاناً فيه، ولا يفكر في قلب نظام يحترم انسانيتهم وارادتهم.. وأنتم استوليتم على كل شيء، وأفسدتموه، والآن تريدون من علماء الأزهر أن يقوموا بدور شهود الزور وأن يجرموا فكراً لم يناقشوا أصحابه، ولم يسمح لهم بالاطلاع على دوافعهم ومصادر أحكامهم، وجدل المخالفين من أهم أركان الحكم الشرعي، أما ما تريدونه منا، فهو دور بغيض وآثم، فحكمكم باطل، ومحكمتكم ظالمة بقدر ما هي جاهلة وغير شرعية.

هذا هو المعنى المبطن في رسالة «الامام الأكبر»، أو المعنى كما فهمه «الرئيس المؤمن» وهو يجيد قراءة ما بين السطور، ولذلك أمر بعدم النشر، وكتم الموضوع، فرد عليه شيخنا العنيد بالنشر في كل الصحف العربية، فوضعه في موقفٍ صعب أمام العالم الاسلامي، وبمعنى أصح، عراه من الشرعية، وعرى نظامه من الكفاية الأهلية، وها هو بعد ست سنوات من «ثورة التصحيح» لم يكسب أية قوة فعلية في صفه، واضطر ان يحكم بالجيش، فالثكنة العسكرية هي المؤسسة الوحيدة التي بقي ولاؤها فوق الشك، لأنها كانت تحكم لحسابها.

جماعة شكري مصطفى وضعت المؤسسة الدينية بمواجهة المؤسسة العسكرية لأول مرة منذ قيام العسكر بانقلاب ٢٣ يوليو، فوضعت الحركة الاسلامية الأم «الاخوان المسلمين» في ركن مزنوق ومكشوف، أمام الحاكم الذي يدارونه ولا يجارونه، فقد ظهر «الاخوان القدامى» أقل ثورية من الأزهر نفسه الذي أدان الجيش وحكمه اللاإسلامي والذي تسبب في القلاقل والعنف، لكن النتائج الأبعد مدى للجماعة التي شنق قادتها وسُجن أعضاؤها، تحتاج الى وقت طويل، ورصدٍ دقيق. فالفكرة الدينية التي سيطرت عليهم كان لها مردود اجتماعي وسياسي، والتجربة التي خاضوها بنجاحاتها وأخطائها، أصبحت تراثاً ثابتاً في تجارب الحركات الاسلامية التي جاءت بعدها، خاصة تنظيم «الجهاد» الذي نجح في توقيع القصاص بالسادات يوم «حادث المنصة».

دراما حياتهم اليومية داخل «كوميونات» الشقق المفروشة، وفلسفتهم في الحياة، التي تقضي بمخاصمة المجتمع المادي الاستهلاكي الذي فشل في إسعاد الناس، وفي حل مشاكل الشباب، فلسفة سنجدها تظهر مترافقة مع مراحل الفساد والظلم والتمييز الطبقي في كل مراحل التاريخ الاسلامي، فثورة الزنج والقرامطة ومجتمعات الخوارج كلها تنتمي لهذا التيار الذي هرب من مجتمع القسوة والابتعاد عن روح الاسلام، ليقيم مجتمعات يحققون فيها حلم العدل، ومجتمع الفضيلة والتطهر، وكلها ستتجه للغلو ثم للعنف.. مما يجعلها تخرج على مبادئها وفي النهاية تأكل نفسها عندما يتحول النبل الى قسوة، ويتسبب العنف الموجه لها من الخارج في فقدان الثقة بين أعضاء المجتمع الجديد.

«المجتمع الاسلامي» الذي تعرفت على احدى خلاياه في البساتين على حافة مدينة الموتى في القاهرة، كان يمثل توق الفقراء والمضروبين الى الحصول على الرضا في الدنيا والسعادة في الآخرة. لقد طلقوا كل منتجات العصر الحديث، فتخلصوا من عبودية الفيللا والسيارة، والنجف الكريستال والسجاد والفريجيدير والبوتاجاز والأثاث والأزياء المودرن، آخر موضة، فتحرروا من ذل الوظيفة، والعبودية للحاكم، ونظروا باحتقار الى كل تلك المعالم، ودمغوها بالجاهلية.. استغنوا عنها فاغتنوا.

هذه المثالية لم تكن خطأ، بل هي صفعة للقيم الجديدة التي دخلت الحياة المصرية، فأفسدتها تماماً، والتي بدأت على يد العسكر... كيف؟

في حرب اليمن تحـول الجيش بسفنه وطائراته، جنوده وقياداته الى تهـريب الكمـاليـات والسلع الاستهلاكية من عدن والحديدة الى مصر المتقشفـة، فتفتحت شهيـة الخلق للاقتنـاء والتفـاخر، متجاوزين كل امكانياتهم وامكانية البلد الذي استنزفه الجيش في حرب ملعونة تستهلك ثلاثـة ملايـين دولار يومياً، فارتشى الناس وسرقوا وتنازل الكثيرون عن كرامتهم وربما شرفهم، ليمولوا مقتنياتهم الباهرة، وليكسب ضباط المشير بالملايين.. وعندما جاء السادات بسياسة الانفتاح وأوهام الرخاء، زادت الشراهة، وانقلبت الى شراسة وصراع كافر..

جاءت جمـاعـة «شكـري» باللقـاح المضـاد.. لقاح مستخرج من الجرثومة نفسها.

٣

مجتمع الجاهلية الجديدة

الاخوان المترددون

شكري مصطفى وتجربته التي مرت خاطفة متوهجة كنيزك اخترق أحواء الأرض، فاحترق وتحول الى رماد يسمد التربة التي تنبت فيها الحركات الاسلامية، إنه رماد مشعٍ وخطر كاليورانيوم، لقد بلغوا بأفكار سيد قطب الى مداها الأقصى وإن لَم يصلوا الى الهدف.

ورثتهم فكرياً يقولون إن العجلة في الصدام مع النظام هي السبب. كان عليهم أن ينتظروا حتى تنتهي «مرحلة الاستضعاف»، ويصلوا الى «مرحلة التمكن» فيتأمن لهم النصر.. بينما البعض يؤكد ان النظام هو الذي جرهم الى الصدام «ليتغدى بهم قبل أن يتعشوا به».

«الاخوان المسلمون» القدامى، لهم رأي مخالف تماماً، وموقف معارض أصلاً لفكر سيد قطب وتحليلاته وخططه وتلاميذه، فكيف، ومتى، ولماذا... ومن هم هؤلاء القدامى؟

نبدأ بتعريف: من هم؟

هم هؤلاء الاخوة الذين لم يتمكنوا من مغادرة مصر عند محنة ١٩٥٤، وبقوا في السجن أو خارجه، ولم يتنازلوا في الوقت نفسه عن عقيدتهم، محتسبين أنفسهم عند الله.. هؤلاء إلتفوا حول المرشد العام حسن الهضيبي، وتبنوا وجهة نظره في شجب أفكار سيد قطب التي هاجمها الهضيبي هجوماً غير مباشر في كتابه «دعاة لا قضاة» الصادر في بداية عام ١٩٦٩، والذي حدد دور الجماعة في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ومناشدة الحكام كي يتكرموا بالحكم بالقرآن وتطبيق الشريعة.

هذا تفكـير يتلاءم مع طبيعة قاضٍ يحترم السلطة، بل قضى عمره يحكم بمقتضى «القانون الروماني».. و«قانون نابليون»، وليس بالشريعة الاسلامية، وليس غريباً أن يختار القاضي محامياً هو عمر التلمساني ليكـون أقرب مساعديه وبعد ذلك خليفته، وليس غريباً أيضاً أن يبدأ الهضيبي عمله كمرشد للاخوان بزيارة قصر عابدين مقدماً الولاء للملك فاروق، وأن يسرع التلمسـاني من بعـده عقب الافـراج عنه الى قصر عابـدين نفسه، ليقدم الولاء أيضاً، ولكن للرئيس أنور السـادات، كأن قصر عابدين، وهو رمز السلطة في مصر يملك جاذبية غامضة تشد اليه كل خلفاء الشهيد حسن البنا المرشد المؤسس.

هذا الجيل من الحرس القديم ذاق عنف الكرباج وذل الزنزانة وهول المشنقة، فقرر التخلي عن هدف اسقاط الدولة، وهو هدف لم يعلن صراحة في برنـامج الجماعة، ولكنه بقي بمثابة السر المضمر تسعى له ولا تبوح به. هذا الهـدف لم يعـد وارداً، وأصبـح «الاخـوان» يعملون في اطار الشرعية، تحالفوا مع «الوفد» ولهم نواب في البرلمان، وقد صرح التلمساني لمندوب صحيفة «العرب» بأنه يسعى لتشكيل الحزب الاخواني ليصبح كالحـزب الديمقـراطي المسيحي في ألمانيا الغربية وايطاليا، وغيرها من أحـزاب الغـرب التي تضع كلمة «المسيحي» ضمن اسمها على سبيل البركة والايحاء بالتقوى.

هؤلاء «الاخوان الشرعيون» توجهوا للرئيس يطلبون منه السماح لهم بالعودة الى ممارسة نشاطهم العلني، وذلك بعد أن أخرجهم من السجون عام ١٩٧١. ولم يسمح لهم طبعاً، بل مارس عليهم ضغطاً واضحاً عندما أفرج عنهم بالقطارة، ولم يصدر عفواً شاملاً عن كافة معتقليهم إلا عام ١٩٧٥.

لقد سمح لهم بالعمل للاسلام كأفراد، أما عودة التنظيم: «فلا.. يا عمر.. ألف لا..»..

وبينما كان السادات يلعب بالقدامى ـ حاوريني يا قطيطه ـ محاولاً أن يضعهم في عِبه ليناصروا سياسته، ودون أن ينجح في ذلك أبداً، كان شكري مصطفى الذي تم الافراج عنه مع دفعة ١٩٧١، يتركهم متوجهين

الى قصر عابـدين متجهـاً الى أسيـوط ليشكـل جناحاً آخر يعمل تحت الأرض، ومن منطلق مختلف تماماً.

فجأة يسمح السادات لـ «الاخوان القدامى» باعادة اصدار مجلة «الدعوة» شهرية عام ١٩٧٦، متوقعاً أن تكون الصوت الاسلامي المؤيد له في سياسته المتجهة ركضاً نحو الحضن الامريكي الصهيوني المشترك.

فوراً أصبحت «الدعـوة» المحـور الذي التف حوله «رجال الحرس القـديم» الذين غصبياً عنهم أو برضـاهم كانوا يسيرون بموازاة خط الســادات حذرين جداً ألّا يصـطدمـوا به، وأيضـاً ألّا يسمحـوا له باستغلالهم. بدأ الأمر كأن كل واحدٍ قرر أن يضحك على الآخر.. مما جعـل الشبـاب الاسلامي يشك في نوايا القدامى، ثم ينتقل من الشك الجزئي الى الادانة الكاملة على لسان شكري مصطفى في المحكمة العسكرية.

عمـومـاً، سيـاسـة المشي على «قشر البيض» مكنت «الدعـوة» من الاستمرار في الصدور المنتظم مدة خمس سنوات متوالية حتى أوقفها السادات عام ١٩٨١ في انتفاضته الأخيرة التي سَجن فيها الجميع، من معه ومن ضده.

في تلك الفترة لم تكن «الدعوة» وحدها هي التي تعبر عن التيار الديني في مصر.. برزت الى جانبها مجلة «الاعتصام»، التي حملت شعارها في اسمها المشتق من الآية الكريمة:

﴿واعتصمـوا بحبـل الله جميعا ولا تفرقوا﴾.. والتي ربطتني بأحد اصحـابها ـ الدكتور عاشور ـ زمالة مهنية وجيرة مكاتب في «مؤسسة التعاون» التي يعمل فيها كمراجع، وقد تابعت المجلة فبدت لي أكثر شباباً وحيوية من مجلة «الدعوة»، وتميزت بجرأتها في التصدي للقضايا وطرح الرأي الاســلامي فيها ولو عارض رأي الدولة.. والأهم من ذلك، انها فتحت صفحـاتهـا للأقـلام الجـديدة داخل التيار الاسلامي، وبكافة أجنحته. المجلة نفسها صدرت عام ١٩٢٦ كمنبر لجمعية خيرية اسلامية أسسهـا رجل صالح هو محمود خطاب السبكي لخدمة الاسلام وبناء

المساجد باسم «الجمعية الشرعية». ورغم ان «الاعتصام» لم تبلغ أبداً حجم «الدعوة» ولا سعة انتشارها إلا أنها كانت أكثر صدقاً في تعبيرها عن الجـوانب التي استجـدت على الفكر الاسلامي، وأكثر شجاعة في التعامل مع الواقع الاجتماعي، وأصح تحليلاً له، فرفضت انعكاسات سياسة «الباب المفتوح» وما أدت اليه من تفاوتٍ فادحٍ في الدخول، مما زاد غنى الأغنياء، وزاد فقر الفقراء.. كما رفضت فوراً عملية الصلح مع اسرائيل، وهذا ما أغضب «الرئيس المؤمن» فأوقف صدورها في سبتمبر عام ١٩٧٧، عقب عودته من زيارة القدس، وبعد خطابه في الكنيست.

هذا الحادث اتخذت منه «الدعوة» موقفاً بين بين، لا هي عين الرضا، ولا هي عين الغضب.. وبدا كلامها ككلام أغاني «فريد الاطرش»:

«مقدرشي أقول آه..

مقدرشي أقول لأ...».

«الدعوة» على الطريقة الامريكاني

عناصر كثيرة من خارج «الاخوان المسلمين» ومن داخل صفوفهم، أشاعت بأن عودة مجلة «الدعوة» تم بناء على صفقة «فاوست» باع «الاخوان» فيها أنفسهم للشيطان ـ أقصد للسادات ـ كي يدعموا العهد الفاسد المارق.

عمر التلمساني وهو محام قبل أن يكون مرشداً، ورئيساً لتحرير «الدعوة» وقف يدفع هذه التهمة بقوله إن عودة «الدعوة» مسألة لا علاقة لها بالسادات ولا بسياسة الصفقات ولا صفقات السياسة، فترخيص المجلة صدر في حقبة الأربعينات باسم صالح عشماوي وقد حافظ على الامتياز طوال عهد عبد الناصر باصدارها في صفحتين أو ثلاث في المدد القانونية حتى لا يسقط الترخيص.

كلام «أفوكاتو» لم يقنع حتى قائله، فترخيص المجلة صادر فعلاً في حقبة الأربعينات باسم صالح عشماوي وبتوجيه من المرشد المؤسس حسن البنا الذي أرادها للاخوان كما هي صحيفة «المصري» بالنسبة لحزب الوفد، أي صحيفة مستقلة، ولكنها تعبر عنه، فلا يكون رأيها ملزماً للقيادة السياسية، مما يكفل للصحيفة وللقيادة مجالاً أوسع للمناورة المأمونة، وحيث يقوم صالح عشماوي بدور أحمد أبو الفتح.

ونجحت «الدعوة» في القيام بدورها المرسوم طوال حياة المرحوم حسن البنا، وتوقفت بعد اغتياله وطوال فترة «المحنة الأولى» وحل الجماعة.. لتعود بعودة «الوفد» عام ١٩٥٠، والغاء قرار الحل.

وعندما دب الخلاف بين المرشد الثاني حسن الهضيبي وجماعة «مكتب الارشاد» إنضم العشماوي وصحيفته لجماعة الصقور الذين عارضوا الهضيبي.

في تلك الفترة استولى العسكر على السلطة، وقرر عبد الناصر أن يلعب على الخلاف الداخلي في صفوف الجماعة، فقرب اليه صالح عشماوي وجماعته، فرد الهضيبي باصدار قرار فصلهم.

اتفق عشماوي مع عبد الناصر على استمرار صدور «الدعوة» ليس

كمنبر لـ «الاخوان المسلمين» ولكن كمجلة اسلامية مستقلة، ومشروع فردي.. وهو كذلك.

عندما وقعت «المحنة الثانية» على يد عبد الناصر عام ١٩٥٤ كان عشماوي ومجلته خارج اللعبة، فلم يُحاكم «هو» ولم توقف «هي»، وحافظ على الترخيص باصدارها في صفحات قليلة، ملأها بالأحكام القانونية الصادرة بحق الاخوان غالباً.

مات الهضيبي عام ١٩٧٣ وهو غاضب على عشماوي، وأصبح التلمساني مرشداً بحكم الأمر الواقع، إذ لم ينتخب «الاخوان» مرشدهم، وهم غير مصرح لهم بالوجود القانوني حتى الآن.

يلتقي صالح عشماوي مع التلمساني واضعاً نفسه ومجلته بتصرف القيادة الجديدة، فيعاد للصف، ويحول الامتياز الى ملكية «الشركة الاسلامية للتوزيع والنشر» التي يتولى عمر التلمساني رئاسة مجلس ادارتها.

عندما كنت في القاهرة وصدر العدد الأول من «الدعوة» في ثوبها الجديد مطبوعة بالألوان والروتوغرافور سمعت لغطاً كبيراً يدور في الوسط الصحفي حول الدور الخفي الذي لعبه صهر النظام عثمان أحمد عثمان في عودة ظهور «الاخوان» الى المسرح، واصدار «الدعوة» وتمويلها. كان الجو مليئاً بالهمس المؤذي.

بعد ظهور العدد الثالث منها في سبتمبر، كان خطها قد تأكد لصالح العهد وصاحبه، يومها كان مسيلمة الأصلع عبد العظيم رمضان الذي يرى التاريخ منحرفاً ما زال في ربيعه الماركسي، قبل أن يقلب «على الصهيوني» فكتب عند الرفاق عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح حافظ في «روز اليوسف» ناعياً على «الاخوان» ومجلة «الدعوة» توجههم الرجعي السلفي، مطالباً اياهم بتفسير ثوري للاسلام حتى يقفوا مع صفوف الجماهير الكادحة التي تحتشد خلف الماركسيين والناصريين و«الله أكبر ولله الحمد»، يجب أن تندمج مع «لا إله... والحياة مادة».

كانت فترة مربكة حيث كلا التيارين يعمل مع الحكومة، أما مصر المسلمة بحق فقد غادرت الساحة، ونزلت تختبر ايمانها تحت الأرض.

لم أستطع ساعتها وأنا أتخطى الأربعين من العمر، غني نسبياً قياساً للمتوسط في مصر، قادم من مجتمع الخليج «السوبرماركت العالمي» أن أحكم أو أتخيل مشاعر شاب في العشرينات من العمر، منتم للتيار الاسلامي الذي قرأ توصيف سيد قطب لمجتمع «جاهلية القرن العشرين» وهو يتناول العدد الأول من مجلة «الدعوة» الذي حمل شعارها «صوت الحق والقوة والحرية»، والذي قالت افتتاحيته إنها تنادي بالاسلام، وتدعو بالقرآن، وتعمل لتطبيق الشريعة.

يعني داعبت المجلة كل الاحلام القديمة التي لوح بها الجيل الأول.. ولكن هذا الشاب سيفاجأ بأن «الدعوة» تحمل على صفحاتها في العدد الأول وما بعده اعلانات متزايدة لسلع استفزازية تستوردها شركات الانفتاح: ثلاجات، وسيارات، وتلفزيونات، وطباخات، وملابس، كلها صنعت في الخارج، وكلها تضطهد مشاعره، وتؤكد عجزه عن اقتنائها، وكلها تعمق الفارق الطبقي بين القادرين على الشراء ودفع كلفة النمط الاستهلاكي للحياة المستوردة وبين الأغلبية التي تعيش بالعافية تحت خط الفقر، وهو منها. وأسوأ من ذلك ان هذه السلع لا تزيد قوة المسلمين ولا تغنيهم، بل تقتل الصناعات الوطنية فتتفشى البطالة أكثر، وتضعف الاقتصاد، وتحول المجتمع الاسلامي الى كم متواكل ـ يأكل ما لا يزرع، ويعيش على ما لا يصنع ـ وهذا حرام شرعاً، فالقاعدة الشرعية توضع ـ لجلب نفع أو دفع مضرة ـ وأية مضرة أكبر من ترويج هذه السلع «الاهلاكية» وليس الاستهلاكية فقط. ووصل الأمر بالمجلة الاسلامية ان نشرت اعلاناً ملوناً على غلافها في يوليو ١٩٨١، يدعو المسلمين لتنمية أرباحهم في بنك مصر الذي فتح فرعاً على الطريقة الاسلامية.

«الدعوة» الجديدة إذن صدرت لنوع جديد من المسلمين، يعتنق نوعاً غريباً من الاسلام. انها جزء اضافي في مجتمع السادات الذي لا يعني ما يقول، ويضع لافتات الخير والايمان على بوابات الافساد وبؤر الرذيلة.

واذا اتهمنا التيارات الاسلامية الشابة بأنها تطرفت في اتجاه العنف، فيجب ان نقر بأن «الحرس القديم» حول «الدعوة» تطرف في الاتجاه المضاد.

أقـول تطرفت مجلة «الدعـوة» في تبني شعـارات وإعلانات مرحلة السـادات و«سيـاسـات الانفتـاح»، وهي سياسة واضحة الضرر على الجماعة الاسلامية، ولا تتماشى مع الأوضاع شديدة الضنك التي تعاني منها الأغلبية العظمى من شباب مصر.. وهكذا انفصلت عن مشاكلهم ومشاعرهم فدحضوها عداء مريرا، واعتبروها جزءاً من مجتمع «جاهلية القـرن العشرين» الذي يتـوجب تدمـيره، فليس معقولا ان تنشر مجلة اسـلاميـة إعلانا لشركة يملكها أخ مسلم أقامت مجمعا سكنياً يضم مسجداً، وعشرات الشقق تباع كل منها بعشرات الألوف من الجنيهات في بلد لا يزيد راتب الخريج فيه يومها عن سبعة وعشرين جنيهاً!

وتغريه المجلة نفسها في إعلان آخر بشراء سيارة يابانية بعشرة آلاف جنيه من شركة يملكها واحد آخر من الاخوان المسلمين!

فأين هو.. ومن هو، الشـاب المسلم الذي يملك عشرات الألوف كي يبعزقها على شقق «سوبر لوكس» إخوانية وسيارات يابانية تحمل شعار السيفين والمصحف مع كلمة «وأعدوا» تعني الآية التحريضية «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم» وليس هنـاك مسلم عاقل يعتبر «المازدا» و«الهوندا» و«الداتسون» من «رباط الخيل» ولو كانت قوة كل منها ألف حصان؟

الاخوان.. الذين قدموا بثرواتهم التي كوموها في الخليج إختاروا ـ سامحهم الله ـ ان يستثمروها في الاقتصاد الطفيلي الاستهلاكي الذي يستفز الفقراء، ولا يزيد الانتاج، ولا يخلق فرصا للعمل، بل يعود على أصحابه بأكبر أرباح في أقصر وقت.

وبينما «الدعوة» تروج لنمط غريب من المجتمعات القائمة على نوع سيء من الاقتصاد سماه عمر التلمساني في حديث لمجلة «المصور» عام ١٩٨١ «الطريقة الامريكاني»، كان شكري مصطفى يدعو أصحابه الى رفض العبودية للشقة والسيارة وكل السلع التي افسدت الناس، ودفعت الشبان والشابات الى الرذيلة وما يغضب الله ليأسهم من الحصول على ما يكفي للزواج على سنة الله ورسوله، ويدبر لهم العمل المستقل والمأوى البسيط والحياة المتقشفة والزواج الكريم والمجتمع الفاضل.

عاشت التجـربتـان معـا كل منهما تراقب الاخرى بعداء وإزدراء. «الدعـوة» تحصـل على تمـويلهـا السخي «على الطريقة الامريكاني» وشكري مصطفى يحصل على التمويل من زراعة البصل وبيع الخضار وإرسال الشباب للعمل في الاقطار النفطية. والمقارنة بين الاسلوبين كافية لايضاح موقع كل طرف وموقفه من واقع أغلبية الناس.

الاعـلان في «الدعـوة» حدد انتماءها ونوع جماهيرها، وحدد ايضا حلولها التلفيقية في مواجهة مشاكل جادة لا تحتمل التهريج.. كيف؟

عندما نشرت الاعلان الشهير في يوليو ١٩٨١ عن فرع إسلامي جديد في «بنك مصر» قالت في النص التوضيحي إن هذا الفرع بكامل حساباته موضـوع تحت رقـابة مجموعة من مشايخ الأزهر الذين يستوثقون في فصل أموال هذا القسم عن مجمل نشاطات البنك الاقتصادية الاخرى، وبذلك يتأكد العملاء المسلمون من خلو العمليات التي توظف فيها رؤوس أموالهم من أي شبهة ربا. وهذا تخريج أقرب للتهريج، فالمسألة البنكية التي تعتبر قاعدة الاقتصاد الربوي المعاصر ما زالت من أعقد ما يواجه الفكـر والتشريـع الاسـلامي.. وكـل المحـاولات التي إستهـدفت بناء مؤسسات مصرفية على أسس إسلامية بالكامل محل شك كبير، والجدل حولهـا يتزايد باضطراد.. وها هي «الدعوة» في صفحة غلاف مدفوعة تحلل لمؤسسة قائمة كلها على الربا فتح فرع للفلوس الحلال. إن هذا ليس إعلانا بل هو فتوى مغرضة، والعرض واضح، والأجر مدفوع.. ولا حياء في الدين، وأمام محكمة الاسلام لا يوجد كبير، فالحلال بيِّن والحرام بيِّن.

قضيـة أخـرى ثارت حول منـاقبيات الاعلان في «الدعوة» ونهجها الاخـلاقي، ونـوعية معينة من الزبائن المتعاملين معها المرتبطين بها.. واتحدث هنا عن إحدى الشركات الاقتصادية التي اقامها الاسلاميون «الاسكندرانية»، وسموها «شركة القادسية» تيمنا بإنتصار سعد ابن ابي وقاص على الفرس، وركزت الشركة نشاطها على العقارات التي وضعها عبد الناصر تحت الحراسة ثم جاء السادات وأمر برفع الحراسات ومن ثم إعـادة الممتلكـات لأصحابها، ولكن هذه الممتلكات كانت قد أوكلت

لشركات تأمين تصرفت فيها بالبيع والتأجير، كما وزعت على المحاسيب والمشاديد، فرفع الملاك الاصليون قضايا إخلاء على المغتصبين وكسبوها. لحد هنا والمسألة قانونية ـ والسادات ماشي على خط عبد الناصر.. لكن بأستيكه ـ والذين استعادوا ممتلكاتهم بحكم من القاضي، يحتاجون الى قوة تنفذ هذه الاحكام. وهنا دور البوليس، ولكنه في مصر جهاز يعمل لحسابه، ولا يقيم وزنا لقانون ولا عدل، فقانونه الازلي هو «البرطيل» وهو «الرشوة» الرسمية المقننة منذ العهد المملوكي. وهنا وجد ضحايا الحراسة الذين أنصفهم القضاء أنفسهم عاجزين عن استعادة ممتلكاتهم، غارقين لذقونهم في اشكالات بوليسية لا تنتهي، لعب فيها الابتزاز ومزايدات الرشوة واجراءات لا تنتهي.

وهنا تتقدم لهم «شركة القادسية» عارضة شراء «العين» محل النزاع، وتعرض فيها ثمناً لا يزيد عن ثلث سعره الفعلي في السوق. وغالباً ما تتم صفقة الغبن ـ المحرمة اسلاميا ـ ولا تغبنوا الناس اشياءهم ـ وتحمل الجماعات الاسلامية أوراق البيع التي تدل على انتقال الملكية لشركتهم القتالية، وتكون خطوتهم الاولى هي: اقامة زاوية للصلاة في «بير السلم» أو على السطح، ويعسكر في المدخل فريق من حاملي المصاحف ومطاوي «قرن الغزال» ويفهم الاذكياء أنهم مخيرون بين الرحيل السلمي الى الدنيا الواسعة أو الرحيل الحربي للدار الآخرة على يد أبطال «القادسية» فيفرون بجلودهم ويتم الاخلاء المستعجل. وحالا تصدر «الدعوة» حاملة اعلانا جديداً عن عقار استثماري ممتاز يصلح لكافة الاغراض.. وللاستعلام يرجى الاتصال «بشركة القادسية الاسلامية»! «الدعوة» ومن فيها يعلمون بالتفصيل حقيقة الشركة وطبيعة نشاطها «على الطريقة الامريكاني» على اعتبار ان المافيا ووسائلها جزء من «الطريقة الامريكاني».

يعز على النفس أن يرى الانسان منا تراجع التيار الذي شكل احلام صباه ومثاليات شبابه، وهو ينحسر وينحسر حتى يكاد نهره يجف. إن الخط الجديد الذي نهجته مجلة «الدعوة» ومجموعة «الحرس القديم» ثبت انه عقيم في مواجهة الأزمة التي تعصف بمصر وشباب مصر. لقد

اختاروا طريق التصالح مع النظام العسكري الذي فشل في إدارة البلد بعدل وتجرد، فأوصلها الى الافلاس، وفشل في إدارة الصراع مع العدو فانتهى الى الاستسلام.. هذا التصالح جعلهم شركاء في الكارثة المصرية، وأبعدهم كثيراً عن الهدف الاساسي وإقامة المجتمع الاسلامي العزيز والفاضل.. بل ورأيناهم ينتمون بالمنفعة والاستنفاع والمصلحة للشريحة الطفيلية البالغة الشراهة التي تنهب مصر لحساب الاستيراد المجنون لسلع استفزازية، وهي الطبقة التي يمثلها ويدافع عنها «الوفد الجديد». ولهذا فالحلف بينهما ليس مجرد حركة سياسية «وتكتيك» مؤقت، بل إلتئام جبهة تسندها مصالح كبيرة وخلفية اقتصادية قائمة.

ان الاسلام في صميمه تعادل عادل ونادر بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، يبيح للمسلم ان يسعى ويكسب قدر طاقته، ولكنه يشترط عدم اضرار جماعة المسلمين ـ فلا حاجة لمسلم إذ إحتاج الاسلام ـ وايضا ـ لا ضرر، ولا ضرار ـ وسياسة «الانفتاح» التي ساهموا فيها بحماس لا تنتمي للشريعة الاسلامية والاقتصاد الاسلامي، فهي مصدر اضرار فادح لجماعة المسلمين لأنها نزف لمورد بلا مردود، وهي غرس لقيم وممارسات غريبة على البيت المسلم والمجتمع المسلم وابتعاد به عن الاعتدال والقيم الاسلامية.

وهي تزيد الفارق بين المسلم الغني والمسلم الفقير، فيحل الحقد محل التراحم.

وهي تغليب للجانب الدنيوي المادي في حياة المسلم بينما هو مطالب بأن يعمل لدنياه كأنه يعيش ابداً، ويعمل لآخرته كأنه سيموت غداً.

لقد أغمضت «الدعوة» وممولوها عيونهم عن الجانب الاجتماعي في رسالة محمد حبيب الفقراء ونصير المستضعفين ـ اللهم أعشني مسكينا، وأمتني مسكينا، وأحشرني في زمرة المساكين ـ والذي أحب «ياسر» و«سمية» وحارب «أبو سفيان» و«هند».

هذا الامعان في البعد عن الواقع المصري جعل «الدعوة» تشن معاركها في الخلاء الواسع الذي يفقد مصداقيته إذا لم يرتبط بحياة الناس ـ اللقمة والهدمة والصحة والستر ـ هذه هي دعوة المصري المؤمن التي

يرفعها مع صلواته الخمس كل يوم.

«الدعوة» أهملت هذه الاركان الاربعة عمداً، وركزت على الطواغيت الاربعة ـ الصهيونية، والشيوعية، والصليبية، والعلمانية ـ.

ولا خلاف على أن معركة الاسلام الكبرى ضد هاتيك الشرور الاربعة شرسة ومستمرة، ولكن تجاهل المطالب اليومية للانسان المسلم مسألة مرفوضة من الاساس، واذا قصر المجتمع فيها، منحازا لفئة ضد فئة، كما تحيزت قريش لأغنيائها ضد المستضعفين فيها فإن توصيف سيد قطب للمجتمع بأنه «جاهلية جديدة» يصبح جديرا بالاحترام، خاصة في أوساط المحرومين من الشبان.

أزمة «الدعوة» وصلت الى ذروتها عندما طعنها النظام في أعز ما تملك، وبدأ يتفاوض مع أخطر «الطواغيت الاربعة» التي جعلتهم المجلة اكبر المحرمات، وبنت مجدها العقائدي والبلاغي على حربها المقدسة ضدها!

فجـأة سافـر الســادات الى القـدس، وصــافـح قيـادات الطاغوت الصـهيوني، وبدأ يتفاوض معهم، ويستقبلهم في بيته، وفلسطين ما زالت محتلة، والقدس تنادي.

مجلة «الاعتصام» تهورت فأُغلقت، و«الدعوة» لا تستطيع تجاهل ما يدور. وخلال المفاوضات المحتدمة بين السادات وبيجن عام ١٩٧٨ كتب التلمساني افتتاحية قال فيها:

ـ إن «اسرائيل» ليست إلا «دار حرب» وان المسلمين الذين يتقاعسون عن إعلان الجهاد لاستردادها عندما يكونون قادرين، يعتبرون آثمين، وان التاريخ لن يرحمهم حكاما أو محكومين..

لقد تجاوز «الشيخ» الخط الأحمر، وطعن في شرعية النظام «المؤمن» الذي منحه الفرصة ليكون صاحب مجلة.

ـ الله ايه ده؟ هو عمر حيلعب بذيلو؟ كلموا يا عثمان..

كان السادات في تلك اللحظة مكشوفاً يحتاج الى غطاء إسلامي خاصة وان الفتوى التي أصدرها الأزهر بتوقيع الشيخ عبد الرحيم بيصار قد ألحقتها المعارضة الاسلامية بنشر فتوى اخرى صادرة عن الأزهر نفسه عام ١٩٧١ تجزم بأن كل من يتصالح مع إسرائيل، إنما هو خارج عن

الاسلام، عقابه القتل.

وهكذا لم تفد بلاغة الشيخ بيصار وقياسه الفاسد الذي شبه صلح السادات بصلح النبي (صلى الله عليه وسلم) مع قريش ـ صلح الحديبية ـ وبصلحه مع قبائل «غطفان» واستند الى الآية الكريمة ﴿وان جنحوا للسلم فاجنح لها﴾..

هكذا كانت مسألة كسب جماعة التلمساني في صف الصلح قضية هامة، فأجَّل السادات قرار الضرب وسلك درب الضغط والمطالبة بتسديد فواتير الاخراج من السجن، وفتح باب العودة «للهربانين» ومنحهم حصة محترمة في «السوق الانفتاحي»، واخيراً السماح لهم بإصدار «الدعوة» وشتم عبد الناصر.

كانت الرسالة مختصرة وشديدة البلاغة: «اما ان تتعدلوا، أو نعدلكم».. فدار إبن لقمان على عهدها.. والقيد باقٍ والطواشي صبيح..

واعتدلت اللهجة لتصبح أقرب لنهج الشيخ عبدٍ الرحيم بيصار، فكتب التلمساني يقول إن السلام هدف عظيم، وان الجميع يحلمون بالسلام ويعملون للسلام.

فالعيب ليس عيب السلام، ولكنه عيب «اسرائيل» التي لا تريد السلام.

هذا التراجع اللين، كان خطيراً على «الدعوة» ومن فيها إذ وضعهم مع شيخ الازهر والمؤسسة الدينية الرسمية في كفة واحدة، وفي خندق الحكومة التي أجازت لنفسها التفاوض مع عدو اغتصب أرضاً من «دار السلام» فأصبحت بذلك خارجة على الدين، ولا تمثل جماعة المسلمين.

وكان هذا بمثابة حكم بالاعدام على المجلة وعلى الجماعة، وخسارة للدنيا والدين، فتراجعوا ركضاً!

الاخوان الدستوريون

لا نستطيع إصدار الأحكام على مصداقية أو جدوى عملية تحويل « الإخـوان المسلمـين » من طاقـة تغيـير إسلامية إلى حزب دستوري إسـلامي يلعب لعبـة الانتخـاب والأحـزاب، ويسعى لتحقيق أهدافه بالحصول على أغلبية النواب.. والمشوار «الملعبك» ما زال في أوله، وسكة السياسة كلها مقالب.. وقد عاصرنا كيف هللت مجلة « الدعوة » عندما أعلن صوفي أبو طالب، التلميذ الأمين للسوربون والشديد الولاء للقانون الفـرنسي، بأنـه سيعمـل من خلال رئاسته لمجلس الشعب على تطبيق الشريعة الإسلامية ، لتحل محل القوانين المستوردة !

إعتبر « الإخوان » كلام هذا اللص المرتشي الذي اشتهر بأنه كبير منافقي العهد ، بأنه بداية العصر الإسلامي السعيد.. ليكتشفوا سريعاً بأنهم كانـوا يضحكـون على أنفسهم وعلى الناس ، فسرعان ما صرح « صوفي الصفيق » عندما سئل عن موعد تطبيق القوانين القرآنية فردّ :

«إن المسـألة ليست بالسهولة التي تتخيلونها ، فالقوانين التي تم وضعها خلال ـ ميت سنة ـ تحتاج ـ لميت سنة ـ أخرى لتغييرها.. عموما الأمر معروض على لجنة في المجلس ».

وهذه إجابة لئيمة لأن هناك قاعدة شهيرة في علم « البيروقراطولجي » تقول: « إذا أردت دفن أي موضوع في مصر ، فحوّله إلى لجنة ».

عموما « الإخوان الدستوريون » أصبحوا جزءاً من التاريخ الماضي ، يتحرك في الحاضر كشبح عزيز ، ولكنه ككل الأشباح قد يمر من خلال الجـدران ، ولكنـه لا يترك أثراً على الأرض. يظهر في المنام ، ولكنه لا يستطيع أن يغيّر معالم الواقع.

التيار الإسلامي الحقيقي ، بحث لنفسه عن تعبيرات أخرى ، واحد من أشهرها « الجماعات الإسلامية في الجامعات » والتي حرّكت الشارع في مصر ، وغيّرت ملامحه ، فالحجاب أصبح طابعاً لبنات مصر ونسائها.. والشـبـاب المثقف الملتحي.. وعودة الكتاب الإسـلامي، والفكـر الإسلامي.. امتلاء المساجد بالفتية بعد أن كانت قاصرة على العواجيز ،

ثم تحويلها الى مراكز تعليمية ليست مقفلة على علوم الدين ، بل تقدم فيها الدروس الخصوصية في الكيمياء والرياضيات مجانا لفقراء التلاميذ . ليس هذا فقط ، فهذه الجماعات ساهمت بشكل غير مباشر في توقيع القصاص بالرئيس المؤمن !

خالد الاسلامبولي اتخذ قراره النهائي بقتل السادات عندما قبض على شقيقه محمد الاسلامبولي أمير الجماعات الاسلامية ، في جامعة أسيوط ، وذلك خلال حركة الاعتقالات الهوجائية التي أمر بها « الريّس » في سبتمبر ١٩٨١ أي قبل تصفيته بشهر واحد .

الحركة الطلابية في مصر افلتت من مدار النظام عقب هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ عندما اكتشف الشباب أن الهزيمة كانت نتيجة مباشرة لفساد الجيش الذي انصرف للسلطة وحولها الى تسلط ونهب ، ونسي مهمته ومهنته الاصلية ، بينما الشعب مبعد ومكذوب عليه .

وسجّل التاريخ أول تحرّك طلابي احتجاجا على الأحكام التافهة التي أصدرتها المحكمة العسكرية ضد قادة سلاح الطيران الذين تسببوا في كارثة « يونيو » فأعيدت المحاكمة ولكن الشباب لم يعد مقتنعاً بالنظام كله. وفي ظل القلق والحيرة والفراغ السياسي لم تجد القلوب المرتاعة من تلجأ له طالبة الغوث والراحة سوى « الله الذي نسيناه فأنسانا أنفسنا ».

وعندما ثارت جامعة الاسكندرية مطالبة بالتغيير ، ظهر النبض الإسلامي في الجامعات لأول مرة منذ ١٩٥٤ ، وعبر عن نفسه في الهتافات وصحف الحائط. يومها شعر عبد الناصر الحساس أن المارد الذي تصوّر أنه أدخله في القمقم للأبد قد عاد مرة أخرى مطالباً بالثأر. فسارع بطرح ورقة مارس ١٩٦٨ ، واعداً بإفساح مكان للشباب كي يشارك في السلطة وإعادة تشكيل « الاتحاد الاشتراكي » بالانتخاب من القاعدة للقمة ، وشكّل « الجهاز السري » ليكون حزبه داخل الحزب ، ويده وأذنه وعينه، داخل المؤسسات وخاصة داخل الجامعات ، التي بدأ طلبتها يتركون المدرجات ليؤدوا الصلوات في أوقاتها .

يرحل عبد الناصر عن عالمنا ليقفز السادات إلى الكرسي الشاغر

وحيداً ، لا الجيش معه ولا البوليس ولا الإعلام ولا الحزب ولا التنظيم السري المخيف .

تدبر « المنوفي » أمره بسرعة ، وأطاح بالرؤوس الكبيرة في حركة مباغتة ، فدانت له المؤسسات الحكومية التي تنقل ولاءها ببساطة لمن يصل للحكم أيا كان ومهما كان ، تطبيقاً للحكم القاسي والصحيح على مصر - أرضها ذهب ونيلها عجب ، ونساؤها لعب ، ورجالها لمن غلب - والمثل هنا يقصد رجال الدولة وموظفيها بالتأكيد وليس الشعب .

الشيء الوحيد الذي لا يملكه السادات ولا يستطيع خلقه هو الحزب القوي الذي يخوض به معاركه ضد خصومه الأقوياء في الشارع السياسي .

الشيوعيون يكرهونه لأنه كان دائماً الرجل الذي يميل نحو اليمين، ويتولّى مسؤوليات «المؤتمر الإسلامي»، ولأنه صفّى علي صبري ورجال موسكو في أجهزة الدولة.

الناصريون ضده لأنه خدعهم وخانهم ، بل وصفّى سلطتهم وهو يركع أمام تمثال عبد الناصر ، ويقسم على الولاء .

الأمر الذي زاد من توتره هو انفلات الجامعات ضده في أكبر سلسلة من التظاهرات والاعتصامات وصحف الحائط الشرسة والنكات الكريهة وشعارات اللوم والتنديد، خاصة بعد انتهاء « عام الحسم » بلا حسم .

ويمكننا أن نتخيل مدى الغيظ الذي يمكن أن يبلغه شخص معقد مثل السادات يعاني طول عمره من انعدام القيمة وضياع الهيبة، وبالذات في تلك الفترة الأولى من حكمه حيث لم يكن قادراً على استعمال « المفرمة » لعدة أسباب :

أولاً : لأنه لم يُحْكِمْ قبضته على الأجهزة بعد ، وليس هناك ما يضمن أنه لو أفلتها على خصومه فلن تنتهز الفرصة لتنقلب عليه.

ثانياً : لأنه كان ساعتها يلعب ورقة الديمقراطية والحريات التي لم يكن يملك غيرها ، يسند بها شرعية عهده ويهاجم بها عهد سلفه .

ثالثاً: لم يكن مقبولاً بأن ينادي بسياسة القانون ودولة المؤسسات ويبطش بأولاده في الجامعات.

إذاً فما هو الحل ؟

لم يكن الأمر صعباً على المتآمر القديم القارح ، فبدأ يتصل بالجماعات الإسلامية التي تراقب الوضع من بعيد .

ظهرت النغمة الإيمانية في معزوفاته المطولة ، وتكاثرت الآيات القرآنية على لسانه. ودقّ طبول « دولة العلم والإيمان » وبغتةً أصبح اسمه « محمد أنور السادات » وليس « أنور السادات » حاف .

وتتابعت لقاءاته مع أبنائه الطلبة وخاصة أمراء الجماعات الدينية الذين تسرّعوا بالحكم على نيّات العهد وصاحبه ، واعتبروها إسلامية أو على الأقل متعاطفة مع الخط الإسلامي .

بالتدريج سحبهم النظام إلى فخين:

ـ الخروج من العمل تحت الأرض.

ـ تبنّي وجهات نظر الرئيس والعمل في خندقه ضد خصومه. وليس أسهل ولا أحب على قلب شباب التيار الإسلامي من خوض المعارك ضد كل من قال : عبد الناصر ، أو نادى بعقيدة كارل ماركس ، فالأول دفنهم في المعتقلات وأغرقهم في بحار من العذاب والدم ، والثاني يمثّل أكبر وأخطر أعداء الله والدين الإسلامي.

كان ذلك من حسن حظ الرئيس المؤمن الذي لم يتورع عن توظيف هذه الشحنة الغاضبة لصالحه ولمساندة نظامه وكسب الرعية لعهده المعلق بشعرة.

شتاء العام ١٩٦٨ في مصر لم يكن عاديا بأي حال ، فالبرد يقطم المسمار ، والغضب براكين مكظومة ، فالصهاينة داخل أرض المحروسة ، يسبحون في مياه قناة السويس ، لا يأبهون لزمهرير الجو ، ولا للنار المشتعلة في قلوب أهل مصر . فأي ذل ، وأي هوان ...

وأين الحل ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

المؤسسة العسكرية المهزومة والمتلفعة بغبائها وعارها ما زالت تحكم رغم كل ما حدث . وعندما نصبت محكمة عسكرية سرية ـ لتحاكم المسؤولين عن كارثة ٥ يونيو ـ لم تكن محكمة بل جاءت مسخرة ، فكبار المقصرين والخونة في سلاح الطيران « الذي لم يطر » صدرت ضدهم

أحكـام مـخفضـة بالسـجن، أما الرتب الصـغيرة والموظفون المدنيون في السلاح فصدرت ضدهم أحكام المؤبد ، والأشغال الشاقة لمدد طويلة !

إذاً لا شيء تغيّر ، ولا أحد تعلّم ، وجيش برلنتي عبد الحميد ومها صبري ما زال سادراً في عالمه الخاص ، محتمياً في قانونه الخاص ـ بيـدلّع نفسـه وسـايب الناس تتحرق ـ يجامل صدقي محمود وباقي عصـابتـه في الطيران ، وعـلى حسـاب مصر وأمنها ومستقبلها وأرواح شهدائها . فكيف سيحارب هؤلاء العسكر ليستردّوا بالقوة ما أضاعوه بالجبانة ؟

كان عمّال مصانع الحديد والصلب في حلوان هم أول من خرج الى الشوارع يوم ٢١ فبراير ١٩٦٨ عقب صدور أحكام الطيران.. المهزلة .

بوغت عبد الناصر بخروج العمال الذين يمن عليهم بنسبة الخمسين في المائة والمكاسب الاشتراكية في مظاهرات تهتف بسقوط « الخونة الكبار ».

ـ يقصدوا مين ؟

انتهت مظاهرات اليوم الأول التي لم تكن إلا « بروفة » للثوب الجديد الذي سيلبسه الشارع المصري من الآن فصاعداً. ففي اليوم الثاني عاد عمال حلوان للتظاهر بأعداد أكبر وبنغمة أوضح وأعنف ، فتصدت لهم الدبابات الباقية بعد الهزيمة، وسجّلت عليهم نصراً خالداً عندما سقط سبعون عاملاً أصيبوا بجراح خطيرة .

يوم ٢٤ فبراير خرج الطلبة ليستولوا على الشارع نهائياً ، وينزلوا وسـط البلد بهتـافـات أربكت أصحـاب النـظام « تسقـط المحاكمات السرية ».. « الموت للخونة ».. « لا عدالة بلا حرية ».

يوم ٢٥ فبـرايـر تحـولت المظاهرات الى شغب ، وكبح النظام الميل لاستعمال القوة حتى لا تغرق البلد في بحر من الدماء ، ولم تهدأ حدة الغضبة الطلابية إلا بعد أن أعلنت الحكومة عن إعادة المحاكمات التي سببت الهياج .

لقد تراجع النظام لأول مرة منذ أزمة مارس ١٩٥٤ عندما أعلن حل مجلس قيادة الثورة وعودة الديمقراطية ، ثم عاد يومها ليسحب تعهداته

ويسحق خصومه .

هذه المرة كان خصومه من صلبه ، وكان مضروباً في الساحة العسكرية ، ولا يتحمل ضربة أخرى في الساحة الداخلية .

أيضاً كانت هذه أول مرة منذ عام ١٩٥٤ تخرج مظاهرات لم تسيرها الحكومة ولم تصغ لها هتافاتها ! مظاهرات لا تبايع العهد « بالروح.. بالدم.. » بل تطالب بالثأر منه ، ومحاسبة صاحب الجلالة الجيش الذي يحكم ولا يسأل - يودّي البلد في داهيه ، ويريد أن يهرب من الحساب - كانت هذه المظاهرات خروجاً على كل المسلّمات ، وكسراً لحاجز الخوف من بعبع السلطة ، وتدميراً للشرعية الواهية التي تستند اليها بصفتها الممثل لقوى التحالف المزعوم، فها هم العمال والطلبة أبرز القوى الشعبية تتحدى السلطة المسلحة ، وتنزل لها في الشوارع ، وتجبرها على العودة الى أصلها الهمجي - الى الدبابة والرشاش .

في هذا الشتاء الملتهب تأكدت فاعلية الحركة الطلابية كقوة سياسية فرضت نفسها كقوة معارضة للنظام الذي ألّه ذاته وجعلها معصومة من الخطأ ، بل جعل الطلبة أنفسهم سلطة رقابة على سلوك المؤسسات في الدولة ، واقتحموا دور الصحف يحاسبون كبار « كتبة السلطان » على ما اقترفته أقلامهم من معصيات ، وشاعت في الأوساط الشعبية عبارة « كلاب السلطة » كلقب لسكان « شارع الصحافة المؤممة ».

في تلك المرحلة خرج « هيكل » عطّار العهد ، ومتعهّد « تحويجاته » يبكي علناً و « بصراحة » في « الأهرام » مطالباً بدور للشباب في الثورة - ثورتهم - حتى يمنحوها من شبابهم ، بقدر ما أسبغت عليهم من أفضالها. وحذر مع غيره من « الكورس » في الصحف الأخرى بأن هناك « عناصر تخريب » تعمل على استغلال براءة الحركة الطلابية ، وتنحرف بها عن أهدافها المطلقة النبل ! وأن التنظيمات الشيوعية ، والإخوان المسلمين بدأوا يظهرون مجدداً ، وبالذات « الإخوان » الذين نجحوا في تشكيل نواة صلبة داخل الأوساط الطلابية ، رغم الضربة العنيفة التي تلقوها عام ١٩٦٦ - كانوا يشيرون لإعدام سيد قطب واعتقالات الإخوان الواسعة - وهذه الإشارة كانت تلويحاً واضحاً باستعمال القوة مجدداً .

ولم يكن النظام واهماً، فالإخوان فعلاً بدأوا يجتذبون الشباب الذي صدمته الهزيمة وفشل التطبيق الاشتراكي ، وفساد المؤسسة العسكرية الحاكمة . نجح شباب الإخوان في السيطرة على « منظمة الشبيبة » داخل « الاتحاد الاشتراكي » بالمنصورة ، فقامت الحكومة بحلها لأنها سلكت نهجاً يمينياً متطرفاً معادياً للخط الاشتراكي التقدمي وتحالف قوى الشعب العامل .

في ٢١ فبراير ١٩٦٨ أفصح الاسلاميون عن أنفسهم صراحة عندما خرجت كلية أصول الدين بفرع الجامعة الأزهرية في المنصورة بمظاهرة بالغة العنف ضد الحكومة التي قررت ضغط عدد الطلاب الجامعيين لتخفيف عبء الخريجين . وأمام هتافات « الله أكبر ولله الحمد » أمر شعراوي جمعة بإطلاق النار.. وفي المليان ، وسقط أربعة من القتلى وعشرات من الجرحى .

غضبت مصر كلها وثارت جامعة الاسكندرية واستولى عليها الطلبة واعتصموا داخلها لمدة أربعة أيام ، وتحولت كلية الهندسة الى مصنع حربي ينتج قنابل مولوتوف. داخله انضم له شقيقي الوحيد « الحاج مصطفى » الذي خرج من المعمعة ، جريح الجسم والنفس .

استمرت المناوشات بين الحركة الطلابية والنظام الذي ناور بما سمي «ورقة مارس »، وحاول أن يضرب الحركة من داخلها بخلق « الجهاز السري». ولكن لوحظ ومنذ أحداث المنصورة أن التيار الإسلامي داخل الجامعات بدأ يكسب أرضاً على حساب جميع التيارات الأخرى ، وبالذات « التنظيم الطليعي » التابع لوزير الداخلية شخصياً . ومن خلال صراع عنيف مع عيون شعراوي جمعة اكتسب الإسلاميون في الجامعات قدرة على المناورة والاختفاء ، فوسعوا قاعدتهم ، ودعموا وجودهم وخدماتهم ، حتى أنه بعد وفاة عبد الناصر في خريف ١٩٧٠ كانت الجماعات الإسلامية هي العامل المحرك المرهوب الجانب داخل الحركة الطلابية .

وعندما أصدر « شعراوي جمعة » أوامره للتنظيم الطليعي في الجامعة كي يتحرك في أزمة مايو ١٩٧١ ضد السادات لم يتحرك أحد..

لسبب بسيط، لأنه لم يكن هناك تنظيم طليعي .

كان هناك تنظيم آخر، تنظيم حقيقي.

تنظيم تحركه أحلام أخرى ، وأهداف أخرى ، بعيدة عن أصابع « شويكار طوب صقال » .

اللعب بالورقة الخطرة

حركة ١٥ مايو ١٩٧١ التي استهلكت أطناناً من الورق ، وبحاراً من الحبر ، لا تستحق أي اعتبار ، فهي مجرد أحد انقلابات القصر قام به السلطان الجديد ، السادات ، ليتخلص به من أغوات السلطان السابق حتى لا يدسون له السم في لقمة ، أو يخنقوه بالمخدة في مخدعه ، أو ضرباً في القباقيب في الحمام .

لم يتكلف الرجل أية مشقة في إسقاطهم من فوق شجرة الحكم لأنهم كانوا مجرد ديدان شبعت من سف « التوكسافين »، فالشعب يكرههم لأنهم سبب الكارثة ـ السادات كان مبعداً لا له في الطور ولا في الطحين ـ والجيش يمقتهم لأنهم شكّلوا من أنفسهم سلطة فوق سلطتـه التي لا يجب أن تعلوها سلطة أخرى ، سواء باسم التحالف أو باسم « مكتب الرياسة ». الجيش الجريح يريد كبش فداء يحمله وزر كارثته ليحكم بعد ذلك مباشرة ولحسابه ، بلا شعارات ولا تنظيمات ولا نصب وضحك على الذقون .

« التنظيم الطليعي » الذي اعتمدوا عليه لتحريك الجماهير لم يكن سوى مجموعة من « المخبرين » ما أن سقط وزير الداخلية حتى وقفوا بانتظار تعليمات الوزير الجديد. « يسقط شعراوي جمعة.. يحيا ممدوح سالم ». الدولة المصرية لها تقاليد راسخة، عمرها أربعة آلاف سنة مبنية على حسـابـات الغواني. تعطي جسدها لأي سيد، ولكن إخلاصها لا يعـطى لأحـد. إخلاصها محصور لنفسها.. لدوامها.. للراتب والعلاوة والترقية ، ولهذا فشلت أية محاولة لإخراجها عن هذا الخط أو القيام بمهمة غير هذه المهمة .

بنفخة واحدة طار علي صبري ومحمد فوزي وسامي شرف وشعراوي جمعـة. وكلهم أصبحـوا أصهارا في حجر السلطة ، ويصبح السلطان الجديد ولا شريك له في الملك ـ وأستغفر الله لي ولكم ـ وكان عليه أن يقوم بالشيء الوحيد الذي يطلبه الناس قبل لقمة العيش والحرية وهو تحرير القناة التي أصبحت حمام سباحة للإسرائيليات العاريات ، واسترجاع

الأرض والكرامة .

ولم يكن الرجل يستطيع القيام بهذه المغامرة التي ستطيح به وبحكمه قبل أن يستمتع « بالمريسة » وبأبهة قصر عابدين العامر .

وشعر الشعب بأن الرجل يكثر من الحديث و « الحركات القرعة » كحرق الأشرطة التي سجلتها المخابرات للمواطنين ، والتركيز على « سيادة القانون » ودولة المؤسسات..الخ.. يعني كل شيء إلا المعركة ، بينما الناس مستعدون للتنازل عن كل شيء.. إلّا المعركة .

أصبح الشعب بكل فئاته من « الصقور » ، والرئيس هو الحمامة الوحيدة في مصر ، واشتد هجوم اليساريين عليه بالذات لأنهم رأوا في ضرب جماعة موسكو ـ علي صبري وشركاه ـ انحرافاً عن الخط القومي ودول المجموعة الاشتراكية ، وكان تحليلهم صحيحاً .

ازاء هذه اليقظة العاصفة للروح الوطنية في مصر ، وتحرك الأغلبية الصامتة تندد بتجميد الوضع العسكري ، وتوتر مليون شاب مصري في الخنادق على الجبهة يعيشون تحت القصف الاسرائيلي في معارك الاستنزاف التي طالت عليهم لسنوات ، لا هم يحاربون فيرتاحوا ولو بالاستشهاد ، ولا هم قادرون على العودة لبيوتهم وحبيباتهم ليعيشوا حياتهم العادية .

مصر كلها تتململ ، وأصبح لا بد أن يتحرك الرئيس ، فبدأ سلسلة من الوعود حدد في كل منها تاريخاً تقع خلاله المعركة ، وأخلّ بها جميعاً حتى استحق اللقب الذي أطلقه عليه شعبه وجنوده... « أبو لمعة الحربي » على وزن « أبو لمعة الأصلي » أكبر فشّار في مصر .

وفقد الرجل كل اعتبار عندما أعلن أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم . وانتظر الناس على مضض حتى انتهى « عام الحسم »، فخرج عليهم يقول ان «الضباب» منعه من بدء المعركة لاستعادة الشرف والكرامة ، وهو ضباب سياسي عالمي غطّى منطقة القناة بسبب الحرب الهندية الباكستانية التي خاضها السوفييت الى جانب الهنود ، واعترف بأنه استمزج رأي «موسكو» فلم تعطه الضوء الأخضر .

ألقى الرئيس هذا الخطاب في ١٣ يناير ١٩٧٢ ، فتحوّل الشارع

المصري إلى قدْر مكتوم. شعر الناس أن الرئيس إمّا أنه لا يعي ما يقول ـ بيخرف يعني ـ وإما أنه يستخف بعقولهم.. وخرج طلبة الجامعة الى الشوارع يحتلونها ، ويصطدمون مع البوليس يومي ٢٤ و ٢٥ يناير ، وأسقطوا اتحادات الجامعة التي كانت تضم عناصر اختارتها المباحث والمخابرات ، وشكلوا « لجنة التنسيق الطلابية » من العناصر التي قادت معارك الشوارع .

العناصر الإسلامية كانت موجودة ، ولكنها تتحسس خطواتها بحذر على طريق بدا لها محفوفاً بأشد الأخطار ، وقد علّمتها التجارب أن مجرد ظهورها يعني : « اضرب في المليان يا عسكري يا ابن الكلب » ، ولذلك فضلت أن تسير خلف الآخرين بخطوة ، وعند اتخاذ القرارات داخل « لجنة التنسيق » اكتفوا بالموافقة على القرارات مع إضافة لمسة إسلامية لها مثل المطالبة باحترام الذين يستشهدون يومياً في معارك الاستنزاف ، وإغلاق الملاهي وبؤر الرذيلة في شارع الهرم ، أو بتسمية الحرب مع اسرائيل : « جهاد في سبيل الله، لتحرير دار الإسلام » بدلا من التسمية الماركسية « معركة التحرير الوطنية والصراع ضد الامبريالية العالمية وشرطيها المسلح في المنطقة العربية ».

لم يكن ثمة خلاف على الهدف الرئيسي ، وما عداه يدخل في نطاق التفاصيل ، فبينما احتل اليساريون نشاطات الشعر والمسرح ، اتجه الاسلاميون لانشاء جماعات القرآن ، والدراسات الإسلامية ، وهي الأماكن التي فرخت كوادر التنظيمات المتطرفة فيما بعد .

الأمور اتخذت مساراً معاكساً في ديسمبر ١٩٧٢ ، فالنظام الذي بلا قواعد لا في الجامعة ولا في الشارع ، اتجه بإيحاء من عثمان أحمد عثمان للتحالف مع « الإخوان القدامى » ضد الشيوعيين والناصريين . والإخوان القدامى قادوا الجماعات الإسلامية في الجامعات للخروج على الحلف الذي أقاموه مع كل من الناصريين والشيوعيين . وتاريخ الإخوان كله يؤكد عداوتهم للدخول في جبهات مع أية قوى أخرى ، وقد جاء الوقت كي ينقل القدامى تراثهم للجدد .

في منتصف ديسمبر ، قُدِّم ثلاثة من طلبة الطب بجامعة القاهرة الى

مجلس تأديب بتهمة تعليق مجلات حائط تحتوي مسبات بذيئة ، وخارجة ضد النظام ورموزه . وحتى ذلك التاريخ كان هذا النوع من صحف الحائط دارجاً ، بل ومن أبرز معالم المعارضة الطلابية . ولذلك رأى الطلبة في هذه الحركة بداية لممارسة قمعية داخل الجامعة ، تتوجب مواجهتها من أولها . وخرجت مظاهرة صاخبة تندد بمحاكمة الطلاب الثلاثة ، وتهتف ضد التدخل البوليسي في الحياة الجامعية ، وتعير النظام بتقاعسه أمام العدو .

الاسلاميون لم يشتركوا – لأول مرة – في المظاهرة ، ليس هذا فقط ، بل خرجوا في مظاهرة مضادة أكبر عدداً ، وأعلى صوتاً ، تهتف :« الله أكبر ولله الحمد ».

ووقف المراقبون مشدوهين أمام عملية قلب الموائد .

من المؤكد أن « السادات » كان يلعب بورقة « الإيمان » ويريد توظيف الجماعات الإسلامية في الجامعات لكسر ظهر الشيوعيين والناصريين .

كان يتصوّر أنه أذكى خلق الله ، وأنه القادر على أن يخدع كل الناس كل الوقت ، ولكنه لم يكن يدرك خطورة لعبة « الخداع الديني » والتعامل الملتوي مع صنف من البشر باع الدنيا بالآخرة .

ظروف إقامة الحلف بين الجماعات الإسلامية والنظام ، والتي تحققت في منتصف ديسمبر ١٩٧٢ ، ما زال يلفها غموض كبير ، ولكن هناك مؤشرات واضحة على أدوار رئيسية لعبها عثمان أحمد عثمان و عمر التلمساني و محمد عثمان إسماعيل ، أدّت إلى خروج الطلبة الإسلاميين من الجبهة الوطنية التي تشكلت في الجامعات لقيادة معارضة نشطة ضد عهد السادات .

محمد عثمان اسماعيل بالذات لعبها على المكشوف ، سواء باتصالاته العلنية بأمراء الجماعات الإسلامية ، وتحريضاته المباشرة ضد الشيوعيين و الناصريين كأعداء الله والإسلام وليس كمعارضين للنظام الذي عينه محامياً عنه !

هو بالفعل محام بالمهنة وقد وقف إلى جانب السادات وساعده بحماس

في حركة ١٥ مايو في التخلّص من مجموعة علي صبري. وقد لعب دور «عرّاب» الحركات الإسلامية حتى آخر يوم في حياة «الرئيس المؤمن».

هذا الرجل تولّى منصب محافظ أسيوط منذ العام ١٩٧٣ ، وبقي فيه حتى عزله حسني مبارك عام ١٩٨٢ ، ضارباً الرقم القياسي لبقاء أي محافظ في محافظة واحدة ، وخلال هذه السنوات التسع ، مارس « العراب » دوره بوضوح في دفع الجماعات الإسلامية والحركات السرية للتوسع والتمكن حتى بدت في لحظة ما أكبر من النظام نفسه ، كما قام بأسوأ دور يقوم به مسلم في مصر وهو تحريك الفتنة الطائفية لتصل إلى حافة الحرب الأهلية .

كان الجميع على استعداد للمراهنات الخطرة ، والسياسات القصيرة النظر في ساحة مزروعة بالألغام القديمة ، والتي أصبحت جاهزة للتفجير بمضي المدة ، ومن دون حاجة الى من يلمسها .

الجامعة نفسها التي اختيرت كميدان للصراع بين النظام وحلفائه الجدد وبين خصومه كانت تعاني من مشاكل بلا حل ، مشاكل أرهقت الدولة ، وأرهقت طلبتها أكثر ، فمجانية التعليم وضرورة خلق مكان بالجامعة لكل طالب حصل على الثانوية العامة في بلد فقير لا يملك إمكانيات الإنفاق على تعليم جامعي حقيقي ، أدى الى كارثة مثلثة الوجوه ـ اقتصادية ، وادارية ، وثقافية ـ فالجامعات الثلاث : القاهرة، وعين شمس، والاسكندرية ، لم تقبل أكثر من عشرة آلاف طالب سنوياً في الخمسينات ، فإذا بالرقم يرتفع إلى ٢٠٠ ألف عام ١٩٧٢ زاد إلى نصف المليون عام ١٩٧٧ ، وتكاثر عدد الجامعات فأصبح في كل محافظة جامعة ـ تقريباً ـ أو عدة معاهد عليا على الأقل ، فظهرت مشكلة التكدس ، فالمدرج المعد لاستيعاب خمسماية طالب أصبح صندوقاً ينحشر فيه خمسة آلاف فتى وفتاة لا يكادون يرون الاستاذ المحاضر ، ولا ما يكتبه بالطباشير على السبورة ، ولا حتى يسمعون ما يقوله ، فالميكروفون إما يصفر أو يخشخش وغالبا معطل ، وإما الكهرباء مقطوعة ، والجو مكتوم ورائحة العرق وغيرها من الروائح البشرية كفيلة باستنفاد أي تحمل .

الحال في المعامل ألعن ، فهي إن وجدت ضيقة ، ومتخلّفة نصف قرن

عن العصر ، وعدم توفر الميزانيات جعل من المستحيل القيام بعمليات التجديد أو الحصول على المعدات والخامات المطلوبة لإجراء التجارب والأبحاث والتي من دونها لا تكون المعامل معامل ، ولا الجامعة جامعة .

الأساتذة الجيدون هربوا من الزحام والأجور المخجلة للعمل في جامعات الخليج حيث الرواتب الخيالية والامتيازات الخرافية ـ ولم يبق على المزاود المصرية إلا شر البقر ـ وأصبحت نسبة الأساتذة لعدد الطلبة واحداً لكل ألف ، والمفروض واحداً لكل عشرة ، حتى تقام علاقة علمية مرتاحة بين الأستاذ وحوارييه ، وأصبح النجاح مرهوناً بتلقي الدروس الخصوصية « غير القانونية » عند الأساتذة الذين أصيبوا بالشراهة المتفشية كقيمة أخلاقية في المجتمع الإنفتاحي ـ الراتب ملاليم وعايزين يعيشوا ـ فإذا أضفنا ثمن الكتب والملازم الى كلفة الدروس الخصوصية ، لعرفنا أن مجانية التعليم أصبحت شعاراً أجوف ومجرد كلام فارغ .

أيضاً تحولت حرية الاختيار في التعليم الى نكتة مبكية ، فمن أولها ينسف مكتب التنسيق للقبول بالجامعات، أي طموحات مشروعة في اختيار الشاب لمهنته ـ مستقبله ـ فيتم التوزيع بالجامعات والكليات حسب المجموع ، فيدرس الطب صاحب المجموع الأعلى ولو كان عبقريا في الأدب أو نابغة في القانون . وكان المرحوم حسين فهمي أستاذنا في الهندسة يقول : « لو أن المخترع توماس أديسون تقدم لمكتب التنسيق لألحقه بكلية الزراعة ، ولكان العالم ما زال حتى اليوم يضاء بقناديل الزيت ولمبات الكاز ».

أصبحت الجامعة مكاناً غير سعيد يتجمع فيه شقاء شباب مصر وقلقه ، ورعبه من المستقبل المعتم ، بعد أن يحصل على شهادة لا تؤهله لشيء ، ليتلقفه « مكتب تنسيق » آخر هو « مكتب توزيع القوى العاملة » الذي ينسف البقية المتبقية من إنسانيته ، حيث يوظف خريج الفنون في مصلحة المجاري ، وخريج اللغة العربية في مصنع البطاريات ، وبعد كل هذه البهدلة يقبض الخريج راتبا لا يكفي ثمن الدخان ، فيضطر الى العمل بعد الظهر سائق تاكسي ، وهو لا يجيد السواقة ولا يعرف

الطرقـات ، أو سبـاكـاً وهـو لا يفرق بين « جلدة الحنفية » و « جلدة الجـزمـة » . ويتوه الطلاب في هذه الدوامة العبثية التي ارتجلها نظام عابث ركبت مفـاصله مجمـوعـة من « العسكـر » لا يفهمون في إدارة الأوطان ، ولا في الاقتصاد السياسي ، خلقوا المشكلة ، ووقفوا يتفرجون عليها برعب وهي تطفح لهم سنويا نصف مليون خريج يطلبون عدداً من الوظائف العليا والخدمات تعجز أمريكا وروسيا واليابان عن توفيرها .

النجاح في هذه الجامعات لا يعتمد على التفكير والربط والاستنتاج ـ أي الاكتشاف والتطور ـ كما هو مفترض في أي نظام جامعي ، ولكن العمليـة التعليميـة تدهـورت الى الوضـع «الكتـاتيبي»: مجـرد صم «ملازم الاستاذ» وتقيؤها على ورقة الإجابة في الامتحان ، دون أن تترك أثراً في التكوين الفكري أو الشخصية . فهو يدرس الطب أو الهندسة أو الرياضة البحتة كأشياء يمر بها في الامتحان وأكل عيش ولكنه يبقى كما هو : مجرد فلاح غيّر ملابسه ، ومهنة أجداده ، ولم يغير طريقة تفكيره ، لم يهتم مطلقاً باكتساب العقلية العلمية .

شهر عسل قصير جداً

سيطرت الجماعات الإسلامية على الجامعة من مارس ١٩٧٦ فصاعداً ، وكان ذلك برضى النظام . واذا قلنا « صفقة سياسية » تمت فإن الحقل السياسي قائم أساسا على الصفقات والمساومات ، والتلمساني تصرف دائما وحتى مات كسياسي، وهو أمر ينكره البعض، ولكن الرجل كان واضحاً مع نفسه وفي كل تصرفاته وكتاباته وتحالفاته . كان سياسياً من النوع الوسط . ورغم أنه لا يعترف بوجود صفقة مع الشيطان فإن قرائن الصفقة واضحة وثابتة بالدليل المادي . وإلا فكيف نفسر أنه بعد المسيرة الشهيرة التي سلم فيها «الطلبة الإسلاميون» عريضتهم التي أيدوا فيها السادات وطالبوه بتطبيق الشريعة ، لم تمر ثلاثة أشهر إلا وكان النظام قد صرح لمجلة « الدعوة » بالصدور في يوليو ١٩٧٦ ، فكانت أول مطبوعة حزبية غير حكومية تصدر منذ حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

أيضاً صدر القرار الجمهوري رقم ٣٣٥ لعام ١٩٧٦ الخاص بتأكيد سلطة واستقلالية الاتحاد العام لطلبة الجامعة ، وهو متضمن فقرة جديدة تنص على تعميق العقيدة الدينية لدى الطلاب بالجامعة . أيضاً أصبحت تنظيمات الاتحاد مؤسسة من مؤسسات السيادة في الدولة غير خاضعة لغيرها من السلطات، ممّا مكّن القيادة الجديدة، وكلها نابعة من الجماعات الإسلامية، من إصدار قرار بإنشاء لجنة العقيدة والمجتمع، ومنحتها صلاحيات كاملة وإمكانيات ضخمة . وعندما أقول ضخمة فان ذلك ليس مبالغة لفظية ، فعندما كنا في الجامعة والاتحادات الطلابية على مستوى الكليات لم تكن ميزانياتها تزيد عن بضع مئات من الجنيهات كلها من الرسوم القليلة التي يدفعها الطلاب ضمن المصاريف السنوية.. أما الاتحاد الجديد فكانت تدخله رسوم الطلبة على مستوى الجمهورية ، مضافاً اليها دعم الدولة الكبير . هكذا نجد أنفسنا نتكلم عن ميزانية بمئات الآلاف من الجنيهات . وسنجد أنه في العام ١٩٧٥ عندما تمكن الإسلاميون من السيطرة على لجنة الإعلام فقط ، فإنهم قلبوا الدنيا ،

فأصــدروا نشرة «صــوت الحق» ـ وهو شعار مجلة «الدعوة» فيما بعد وركزوا فيها على هدف « الدولة الإسلامية » ونشروا فقرات كاملة من كتاب « معالم في الطريق » الذي كان ممنوعاً من النشر حتى ذلك الوقت في مصر، ضمن قرار الحـظر الذي صدر ضد مؤلفات سيد قطب، كما طبعوا الكثير من المؤلفات الإسلامية لكبار المفكرين الإسلاميين المعاصرين .

اليوم في عام ١٩٧٦ وقد أصبحت كل ميزانيات الاتحاد وجميع لجانه بأيــديهم فان امكــانياتهم اصبحت تمكنهم من تمويل كل مخططاتهم الطموحة ليس في مجال الإعلام فقط بل لمواجهة مشكلات الحياة للطالب الجامعي المصري .

طبعوا المذكرات الجامعية ووزعوها بسعر الكلفة وأحيانا بالمجان على فقراء الطلاب الذين يمثلون الأغلبية ويسروا المواصلات للطالبات وعمموا الحجاب المعتدل السعر بينهن .. ورتبوا حلقات المراجعة العلمية في المساجد .

أخطر ما حققوه هو أنهم عزلوا الاتحاد عن الإفساد الحكومي ، فلم يعد كما كان سابقاً مجرد إدارة تابعة للمباحث العامة في وزارة الداخلية ، بل أصبــح قوة سياسية لها ملامحها وتفكيرها ، غير مناقضة للحكومة ـ حتى ذلك الوقت ـ ولكنهــا لم تبــع للدولة ولاءهــا.. بل عمدت دائماً للتلويح بقوتها علناً في اشارات لها مغزاها ، ففي كل عام وبمناسبة عيد الفـطر والعيد الأضحى كان شباب الجماعات يتجهون بمئات الآلاف الى ميدان عابدين في جلاليبهم البيضاء القصيرة وعماماتهم ذات العزبة ليـؤدوا صلاة العيد ، محولين الساحة التي ترمز للسلطة في مصر الى منصــة ضاغـطة تطالب بحكم القـرآن ، وتظهر حجم التأييد الشعبي لأهدافهم . ففي ساعات الفجر الأولى ، يتقاطر الإخوان من كافة أركان القطر ، يهزجون بتسابيح العيد ، ونصر الله : « الله أكبر ولله الحمد ، الحمد لله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » وكان قدامى الإخوان في بلدان الخليج حريصين على حضور هاتين المناسبتين فتزدحم بهم الطائرات الى القاهرة التي تتعجل نصر الله ، وعادة ما كان

يخطب فيهم الشيخ محمد الغزالي القادم من السعودية أو الشيخ يوسف القرضاوي القادم من قطر . الذين حضروا هذه الصلوات يستحيل أن تغـادرهم مشاعرها ، فالإسلام في حركته السياسية بين جماهيره يبدو مهيبـاً وشـامـلاً وقادراً على نسف كل الارتباطات الدنيوية والموازنات الحسابية مسيطراً على زمام النفوس ، فتسترخص كل تضحية بما في ذلك الحيـاة نفسهـا . الميدان الفسيح اكتسى سواد قلبه ببياض الجلاليب والعمائم ، والنظام دقيق وصارم يشرف عليه الشباب بإشارات مهذبة من أطراف عصيهم الرفيعـة ، وعـلى مداخل الميدان تقف مجموعات منهم يمنعون أي مداخلات غير مرغوب فيها ، ومجموعات أخرى تبيع الكتيبات الإسلامية والمصليات والعطور والسواك ، وتجمع التبرعات في حصالات من الصفيح .

الخطب والأحاديث التي تدور في هذه التظاهرات الدينية ، كانت لا تتنـاول النـظام بأي نقـد ، رغم أن كثيراً من المساجد أصبحت منابر علنيـة، تتفجـر فيهـا صرخات الغضب والنقد والتحريض ضد العهد وصاحبه، مما يرجح وجود الصفقة المشار إليها.. ولكن وجود تنظيم بهذا الحجم، وعـلى هذه الدرجة من الدقة والفاعلية فان عدم الولاء لم يكن بالأمـر المطمئن للأجهزة التي تربّت على الشك والقمع، خاصة وأن عدوى الصلاة في الميادين العامة بدأت تنتشر في كافة المحافظات والمدن الكبرى من الاسكندرية حتى أسوان . فالذي يدعو شعب مصر اليوم للصلاة ، قد يدعوه غداً للثورة .

لكن الســادات الذي كان يرتب المسرح لحـركتـه القادمة ، والذي استنفد كل الدفع الذي حصل عليه بعد حرب العاشر من رمضان ، كان يطمـع في ترويض الشـارع الإسلامي كي يضمن تأييده في الساعات الحرجة التي يعلم أنها وشيكة . وبناء على ذلك قضى العام ١٩٧٦ ومعظم ١٩٧٧ ، وهو يحاول إقامة الجسور مع الإسلاميين من القيادة وحتى القـواعد ، وسنجد أن الطرفين كانا يتصرفان ضد طبيعتهما ، فالنظام يغـار ويكره أية قوة تبرز الى جانبه كشريك في السلطة أو تشكل عامل ضغط على السلطة ، والاسلاميون عندما يعمدون للمهادنات والمساومات

واللعب بالسياسة لحساب الدين أحيانا ، وعلى حسابه في معظم الأحيان ، فانهم يصبحون مثل خصومهم - مجرد ساسة - لا يفضلونهم إلا بالسبحة والسجادة ، والصلاة على الرصيف .

تسديد الفواتير علناً

في يوليـو ١٩٧٦ صدرت مجلة « الدعـوة » وفي بدايـة العام نفسه سيطرت الجماعات الإسلامية على الجامعات وعلى الاتحاد العام للطلبة ، فأخرسوا المعارضة التي مررت اللقمة في فم الرئيس ، فتوقفت المظاهرات المضـادة وانتـزعت صحف الحائط السامة من فوق الجدران ، وضرب الحلف الذي بدأ يتوثق بين طلبة الجامعة وعمال حلوان ، وهدأت الجبهة الداخلية ، وارتاح « رأس الرئيس » ، ولكن العام ١٩٧٧ جاء بالشؤم للجميع . ففي ١٨ و ١٩ يناير انفجرت مظاهرات الجوع ، والتي أسقطت شرعيـة العهـد ، وأنـزلت الجيش إلى الشوارع ليحكم مباشرة وليثبت للجميع أنه السلطة الوحيدة في البلد .

كانت الضربة قاسية على الرئيس الذي كان يشتي في شمس أسوان على طريقـة آغاخان ، فاضطر إلى الهرب بطائرته الخاصة ، والهتافات الغاضبة تمزق طبلة أذنه .

بعدها بشهور ظهرت جماعة شكري مصطفى كي تؤكد للسادات أن حلفه مع التلمساني لم يلزم كافة الأجنحة الإسلامية بل ان الأجنحة التي لم تجنح للسلم مع العهد ، هي الأكثر خطراً ، والأقدر على العمل . وبينمـا كان هجـومـه قاصراً على الماركسيين والناصريين الذين حملهم وحـدهم مسـؤوليـة « انتفـاضة الحرامية » بدأ « يلسِّن » على التيار الإسلامي الذي يتستر على أهدافه الإجرامية بعباءة الدين .

شعر جماعة « الدعوة » بأنهم وقعوا في مطب لن يخرجوا منه سالمين . فإن تعـاطفـوا مع المجمـوعـة الإسـلامية التي تحاكم عسكرياً فإنهم خاسرون كل ما كسبوه من أرض ، وسينقلب عليهم حليفهم الذي بدأ يطالبهم علنـاً بتسـديـد الفواتير. وإن سكتوا فإن تواطؤهم مع النظام سيـدمـر مصـداقيتهم أمـام جمـاهـيرهم وسيصنفون ضمن « بطانة السلطان » و « كلاب السلطة » وسيـوصفون بالتخاذل قياساً بموقف الإمـام الأكبـر شيخ الجامع الأزهر عبد الحليم محمود الذي طعن في شرعية المحكمة العسكرية وأهليتها للنظر في قضية هي من صميم الفقه

الإسلامي ، ورفض إدانة المتهمين لأنه لم يواجههم ولم يناقشهم ولم يسمح له برؤيتهم. أيضاً عزّى الانقلاب العسكري من الشرعية، وحمّله مسؤولية غضب الشباب الإسلامي ، ولجوئه للعنف ، لأنهم يحكمون بغير الشرع الإلهي في بلد مسلم . وأي كلام سيقوله التلمساني لا يجب أن يقل جرأة ووضوحاً عن كلام شيخ الأزهر ، وهو موظف حكومي يدين في منصبه ، ويتقاضى مرتبه من الحكومة التي يهاجمها .

كحل للورطة أوعز للجماعات الإسلامية في الجامعة والتي ترتبط به وبمجلة « الدعوة » كي يدلوا بتصريحات تستنكر فكر وتصرفات مجموعة شكري مصطفى ، ونشرت هذه الأقوال على شكل سلسلة من اللقاءات نشرها علي حمدي الجمال في « صحيفة الأهرام » تحت عنوان شهير : « شباب الجماعات الإسلامية يرفضون فكر جماعة التكفير والهجرة » وقالوا فيها أنهم عارضوا منهج « شكري » من البداية لأن الذين يريدون نشر الدعوة يجب أن يعيشوا بين الناس ولا يصح أن يعتزلوا المجتمع الذي يريدون تغييره .

وهذا كلام منطقي وعقلاني ، عيبه أنه يصب لحساب الحكومة التي تعطل الشرع وتحكم بقانون الطوارىء ، وأن الحكومة التي تسامحت في صدور «الدعوة» رغم القانون وتدعمها بالإعلانات الحكومية التي تمول صندوق اتحاد الطلبة بمئات الآلاف . هذا هو الواقع الذي يحكم اللعبة .

« الدعـوة » التي كانت تحتفل بدخولها العام الثاني من صدورها الجديد، كان مطلوباً منها أكثر من الصمت بالنسبة بصدد الموضوع الشائك ، فنشرت مقالاً كتبه عصام الدين العريان ، وهو أبرز الزعامات الفكرية في الجماعات الإسلامية والذي يدرس الطب البشري ، قال فيه إن تكفير كل المجتمع المصري هو كفر بحد ذاته ، فمن كفر مسلماً فقد كفر ، فالشعب المصري مسلم إجمالاً ، وهو يجاهد لإعادة العزة للإسلام ، واعتبار مصر بمثابة دار حرب يجب أن يعلن الجهاد ضدها إنما هو ادعاء باطل يصب لصالح أعداء الإسلام .

هكذا تمكنت « الدعوة » من أن تحافظ على صدورها ومصادرها ،

وتحافظ الجماعات الإسلامية على مواقعها الحاكمة في اتحاد الطلبة وميزانيته الحكومية السخية سنة أخرى .

الغريب أن آراء شكري مصطفى الصريحة ، وشجاعته في اتهام الحكومة وإدانة المجتمع، أثارت اعجاب بعض اعضاء الجماعات الإسلامية ، ولكنها لم تحدث داخل الحركة انشقاقاً عقائدياً ، فتجميع الأنصار داخل الكليات جاء على أسس عامة ومنافع مادية أيضاً ، ولم يخضع فيه المنتسبون لفحص مركز ، وتشدد في الالتزام العقائدي ، كما هو الحال في جماعة شكري مصطفى .

انقشعت سحب الأزمة ولكنها أوضحت للجماعة كم هو العهد ناعم وظالم معاً . كانت « بروفة » للصدام الذي يقترب ، والذي سيؤدي الى المفاصلة الكاملة بين النظام وبين المسلمين كافة في مشارق الأرض ومغاربها .

وحدث ذلك في نوفمبر من عام ١٩٧٧ نفسه عندما طار السادات من مطار القاهرة الدولي ليحط في مطار بن غوريون ويصافح مناحيم بيغن وموشي دايان وغولدا مائير في حركة مباغتة أذهلت العدو والصديق .

إذاً، ثبت صحة تحليل سيد قطب بأن المجتمع جاهلي، وصدقت صرخة شكري مصطفى في المحكمة بأن حكم «النظام المصري والجيش المصري» كالحكم على «النظام الاسرائيلي والجيش الاسرائيلي» كلاهما على الدرجة نفسها من العداء للإسلام.. وانتهت الهدنة وبدأت الحرب فور رجوع المغدور السادات من «رحلة العار والخيانة». وهذه الأوصاف ليست من عندي، بل منتزعة من قاموس الحركات الإسلامية المستعمل حالياً.

عرف الرجل أن حلفاء الأمس هم الخطر الحقيقي والوحيد ضد عهده، فقرر ان ينتزع اسنانهم في معقلهم الجامعي الذي تمترسوا فيه، ومن أولها ظهر أن الحكومة تنوي تغيير الطاقم الاسلامي المسيطر على «الاتحاد» فبدأت مجلة «الدعوة» تطرح بالصوت الحياني، محذرة من العناصر العميلة والدمى السياسية التي تحركها الاصابع الخفية من خارج الجامعة بهدف إسقاط «القيادات الاسلامية»، وتدفع الطلبة

للتكتل دفاعاً عن المكاسب التي تحققت لهم على يد «الاتحاد» القائم، ولكن الحكومة تعمدت إحراج الاتحاد، تمهيداً لإخراجه ثانياً، فرفضت دفع الشيكات الصادرة عنه والموقعة من قياداته، فأصابتها بالشلل..

عندما إنتهى الوداد بين السادات والجماعات الاسلامية وبدأت المعركة معهم بسبب زيارته للقدس، كان ذلك خيرا وبركة على الجماعة، إذ تحرروا من وزر دعم نظام فاسد، وعهد موصوم ورئيس مبتذل.. وعندما بدأت السلطة حربها ضدهم، لجأوا الى حضن الشعب الذي منحهم الدعم والحب على أساس أنهم شهداء الدفاع عن الاسلام.. عن الحق، وأصبحوا القوة الضاربة ضد السياسة الجديدة منذ الرحلة المشؤومة لمصالحة العدو عام ١٩٧٧، وطوال فترة التفاوض التي إستمرت عامين وانتهت بتوقيع صلح الكامب في العام ١٩٧٩.

اشتدت حملة التضييق على نشاطاتهم داخل الجامعة، وصدرت الأوامر باغلاق المعسكرات الصيفية في القاهرة والاسكندرية والزقازيق، فاحتلتها قوات الأمن المركزي، وأقيم معسكر المنيا، ولكن الحكومة امتنعت عن دفع الفواتير، وامتلأت الجامعات بالمخبرين وبلطجية حزب الحكومة، فخرج الاسلاميون بنشاطهم من الجامعات الى الجوامع، والاحياء المسكونة بالفقراء يخطبون وينظمون ويعملون ضد الحكم، وضد «الكامب». وكان تأثيرهم على هذه الجبهة هائلا، فارتفعت حرارة الغضب وعبر عن نفسه في تفجيرات متلاحقة، جعلت النظام يعيش على أعصابه أو على أعصاب رئيسه الذي يتزايد هياجه يوماً بعد يوم وبصورة ملحوظة..

في الصيف التالي، أقام الطلبة معسكرهم القاهري الصيفي في مسجد صلاح الدين المواجه لكوبري الجامعة بمنيل الروضة، وأقاموا معسكرهم الاسكندراني في مسجد في أبو قير.

باختصار حققوا مبدأ الحرب الشعبية التي قال عنها ماوتسي تونغ بأنها تفرض على المناضلين أن يذوبوا في الشعب ويعيشوا خلاله كما تعيش الاسماك في مياه البحار.. ولذلك فعندما إنقض السادات على كل القوى المعارضة كان على النبوي إسماعيل أن يبحث عن الأسماك

الاسلامية ليس في الجامعة بل في الحواري والقرى، داخل مدن الصفيح وأكواخ «الطوب النيء».

عاد السادات من رحلته الامريكية عام ١٩٧٩ حاملا صك نهايته الذي وقعه في «كامب ديفيد» وكي يبيعه للشعب المصري الذي «رمى طوبته وطوبة عهده ووعوده وحلفائه» فقام برحلة «بروباغندا» زار فيها معظم المحافظات الهامة كي يثبت قوته لأصدقائه الامريكان والصهاينة الذين إعتصروه وبدأوا يشككون في جدارته وثبات دولته، ربما تمهيداً لتصفية عهده. وعندما توقف ليخطب في اسيوط القاعدة القوية للجماعات الاسلامية التي تمتعت برعاية عهده حتى العام ١٩٧٧ الذي بدأ الشقاق، قال كلاما ينم عن الغيظ الشديد فهاجم الجماعات الاسلامية بالذات، ووصفهم بأنهم شيوعيون يتخفون وراء اللحى الطليقة والجلاليب البيضاء، وشتم عمر التلمساني، ووصمه بنعت «الكذّاب»، وادعى بأن البوليس قبض على واحد من الجماعات الإسلامية فعثروا معه على مبلغ «ثمنميت جنيه.. يعني أكثر من مرتبي».. قالها اللص الذي أصبح ملياردير اً، والذي يكلف حذاؤه ألف دولار للفردة الواحدة، قالها ودون ان يرف له جفن.. وَاستنتج منها ان هناك تمويلا من الخارج يستهدف أمن البلد، وتفجير الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط. ولم يصدقه أحد، لسبب بسيط وهو ان جميع مستمعيه ضبطوه مع كبار عهده متلبسين باشعال الحريق الطائفي الذي وقف يلصقه بالآخرين..

شم الاسلاميون اتجاه الريح، وعرفوا أنه عاد من واشنطن بالصلح وتعليمات مرحلة ما بعد الصلح، وأنهم سيكونون قرباناً يقدم على عتبات البيت الأبيض كما كانوا القربان الذي انذبح على عتبات الكرملين في عهد سلفه.

في الشهر التالي مباشرة لخطاب أسيوط صادرت المباحث العامة عدد مجلة «الدعوة»، وفي شهر يونيو ١٩٧٩ صدر القرار الجمهوري ٢٦٥ / ١٩٧٩ والذي قضى بحل الاتحاد العام لطلبة الجامعات بجمهورية مصر وتجميد كافة امواله وودائعه، واعادة العمل بالاتحادات على مستوى الكلية فقط، وتحت الإشراف المباشر والكامل للأساتذة، على أن

تشكل لجنة لادارة كل إتحاد مكونة من احد عشر عضواً، خمسة منهم اساتذة، كما أعطى لعميد الكلية حق الفيتو لايقاف أي قرار. وهكذا عدنا للوضع المفتري وقوانين عام ١٩٦٣ وألعن.. وللنظام الشمولي المنقول حرفياً عن النظام السوفيتي الذي تلعنه صحافة المؤمن ليل نهار، فنحن في العام ١٩٧٩، عصر الحريات ودولة المؤسسات وسيادة القانون.

القرار الجمهوري جاء كالعادة متأخراً أو جاء لمصلحة الذين افترض انه يعاقبهم ولمعاقبة الذين جاء ليحميهم، فخلال الفترة التي تمكنت فيها الجماعات الإسلامية من قيادة الاتحادات، أحدثت انتفاضة حقيقية في الحياة الجامعية، وشهد لهم أعتى خصومهم من الطلبة والاساتذة بالقدرة التنظيمية الفائقة والالتزام بالمسؤولية ونظافة اليد ـ عكس التيار ـ والتطهر الثوري. وكان إبعادهم يعني إنتهاء عصر الملازم الرخيصة والمجانية، وتوقيف خطوط «الميكروباص» المخصصة للبنات وصفوف المدرجات القاصرة عليهن، وتوقف الزي الاسلامي الموحد الرخيص الثمن، وتذاكر الحج المخفضة، فعادت للحرم الجامعي «مانيكانات الشواربي» وأصحاب «البي. ام. دبليو» للظهور الاستفزازي الذي يقهر الفقراء. لقد فتحت الابواب الجامعية لاخلاقيات العهد كي تزحف على «الكافتيريات»، وتتبختر في الأركان بعد أن كانت مجبرة على إحترام قداسة العلم في الفترة التي وضع فيها الاسلاميون الجامعة في مرتبة الجامع، وقالوا ان المسافة بين شارع الهرم وشارع الجامعة اكبر من التجاوز.

كان «المؤمن» يومها مشغولاً باعادة دفن مومياء الفرعون رمسيس الثاني احتراماً له كملك عظيم.

كان يكذب فقد أراد أن يفعل ذلك إرضاء لبيغن الذي احتج على الاحتفاظ بمومياء الفرعون الذي اخرج اليهود من مصر.

جاء عيد الاضحى عام ١٩٧٩ مناسبة لاستعراض القوة في صلاة العيد أمام قصر عابدين، فوقف يوسف القرضاوي وراء الميكروفون يقول لساكن القصر:

«إن مصر أرض الإسلام وليست أرضاً لفرعون الذي طغى في

الأرض.. إنها بلد عمرو بن العاص، وليس بلد رمسيس الثاني..

إن شباب الجماعات الاسلامية هم ممثلو مصر، وليس رواد كباريهات شارع الهرم، من الراقصات وممثلات السينما..

مصر ليست النسوة العاريات..

مصر هي الجامعيات المحجبات اللواتي يطبقن تعاليم الشرع المقدس..

مصر هي أرض الأزهر وألف عام من إحتضان الاسلام وقوانين القرآن»..

كان التحدي مسموع الصوت، وبمكبرات الصوت، وفي الشارع..

بعد الخطاب المهيج الذي ألقاه السادات في أسيوط فور عودته من كامب ديفيد واصلت جوقة الصحافة المأجورة العزف على «التيمة» نفسها التي ترددت في خطاب «الرئيس المُلهم»، فالاسلاميون يمولون من الخارج، ويثيرون الفتنة الطائفية التي هي أساس الوحدة الوطنية وعصب التراث العظيم لثورة ١٩١٩ واتحاد الهلال مع الصليب، والدين لله والوطن للجميع..

خلطوا عمدا بين فكر شكري مصطفى وسلوك الجماعات الاسلامية، وربطوا بين الذقون والجلاليب والحجاب الشرعي وبين سكان الغاب ومصاصي الدم.

تألق نجم أنيس منصور، وظهر السبب الحقيقي للانفاق الضخم والتعجل الاستثنائي في إصدار مجلته «اكتوبر»، فهي منبر اسرائيلي صهيوني النغمة، معاد للاسلام وكل ما هو إسلامي، ودعاية للتطبيع بالكلمة والصورة.

وقاد موسى صبري «دار الأخبار» في موجة صارخة ضد التيار الإسلامي المعارض صراحة لسياسة الصلح.

وكتب «احسان» رواية في الاهرام بعنوان «لا تتركوني هنا وحدي» بطلتها صهيونية عاشت في مصر خلال فترة قيام اسرائيل الدولة.

أصبح نجيب محفوظ وحسين فوزي وتوفيق الحكيم صهاينة بالروح والقلم.

أخـرج يوسف شاهـين فيلمـه «إسكندرية ليه؟».. كدفاع حار عن الصهاينة ودورهم الرائد في مصر.

إندفع عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح حافظ بمؤسسة «روز اليوسف» في التوجه الاستسلامي المثير للوجدان المسلم.

كان المقصود هو طمس الطابع الاسلامي لمصر، وتغيير هويتها نهائياً، ولكن الشعب الذي لم يثق أبداً بهؤلاء المزيفين لم يسلمهم روحه، بل استمـع بخشـوع كامـل الى الطرف الآخـر الذي بدأ يهمس في أذنه «ولتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود، والذين أشركوا..».

كانت المعـركـة محسـومـة، فالجبنـاء والذين باعوا أرواحهم كانوا يحاولون ضد طبيعة الأشياء، فلا يمكن مطلقاً ان نسمي الاستسلام تحضراً، ويصبـح بيـع المستقبـل للعـدو الذي حذرنا منه الله مسألة انسانية وانجازاً حضارياً عالمياً. لقد صنفوا أنفسهم «خونة» وهذه هي الحقيقة.

السادات المناور ترك كلابه تنبح على خصومه، واكتفى بمصادرة عدد مايو من مجلة «الدعوة»، ونزل عدد يونيو الى الاسواق بصورة عادية.. واكتفى بذلك فلم يتخذ أية اجراءات أبعد من هذا. وايضا اكتفى بحل الاتحاد الطلابي، وأجّل الاجراءات القمعية. تحاشى الصدام المادي غير المأمون في تلك المرحلة مكتفيا بتوسيع حرب الشتائم.

كان يشتم في الصحف والتليفزيون دون ان يجرؤ قلم مصري على الرد.

خلال تلك المرحلة صدرت مجلة ٢٣ يوليو من لندن لتقوم بالواجب «وزيادة حبتين» بالنيابة عن الشعب المشتوم المكتوم.

صدر عددها الأول في فبراير ١٩٧٩ فأصبحت كابوساً يزعج المؤمن في أحلى نومه، وكانت انتقاما سماويا جميلا من العهد القبيح وصاحبه الأشد قباحة.

جاء خطابه في «كفر الشيخ» في مايو ١٩٧٩ علامة عن مدى ما يعانيه من هذه المجلة الفلتة، عندما قال:

«لاكن الديمقراطية موش عجز، وإحنا كمان نبقى مش تمام اذا كانت

الديمقراطية تعجز عن ان تأخذ أو توقف كل واحد عند حده.. من هنا انا بقول تقنين الصحافة، ليه؟؟

الذين أساؤوا الى سمعة مصر ولا زالوا.. للأسف.. كلهم من الوسط الصحفي..

هنا في مصر اللي بيكتب عشان ياخذ الف جنيه في المقالة من الكويتيين اللي بيقولوا على مصر وسخة، عشان ياخذ منهم ألف جنيه في المقال..

واللي واخداه العراق، وعملت له إذاعة، وبيذيع..

واللي واخداه العراق وليبيا فاتحين له جرنان في باريس..

واللي فاتحين له جرنان في لندن، للقذافي، وسماه ٢٣ يوليو، وكله هجوم على مصر، وكلها صحفيين مصر، وكتاب مصريين..

عشان كده مستني إن شاء الله، بعد ما ييجي المجلس.. أنا كان بجرة قلم أخلص من دول كلهم إللي بره..

أبداً.. بس برضوا لا اللي جوه.. ولا إللي بره، إلا بسيادة القانون بعد الانتخابات، وبعدما يفوت قانون المدعي الاشتراكي، ويناقشه المجلس ويصدره، ويأخذ اجراؤه امام المجلس وأمام الشعب»..

آسف لسوء لغة الخطاب ولكن المعنى مفهوم على أي حال..

داخل جامعات مصر، حرمت الجماعات الاسلامية من منبرها الشرعي بعد حل الاتحاد العام للطلبة الذي جعلهم قادرين على صبغ الوسط الجامعي بالصبغة الاسلامية، وبدأ زحف ذيول الحكومة وأبناء طبقة الانفتاح، ينشرون في الجامعة موجة شامتة، فحفلات رقص ومسرحيات خليعة، ورحلات باذخة لا يقدر على المشاركة فيها غير أبناء أصحاب الملايين الجدد. وكان على الاسلاميين ان يصدوا تيار الانخلاع عن أرضهم، فبدأوا يستعملون العصي والقبضات في فض الحفلات التنكرية والراقصة، ومنع المسرحيات المثيرة وغير الاخلاقية، وتمكنوا من إيقاف عرض فيلم «اسكندرية ليه» الذي يتضمن تعاطفا مع الصهيونية، فقدموا بذلك مادة يومية للتشهير بهم في صحافة الكامب. لكنهم نجحوا بشكل واضح في خلق تيار مضاد لروح «التطبيع» وجو الاسترخاء والركون لفلسفة «تعبنا من كثرة الحروب، وحان الوقت لنستمتع كغيرنا

من الشعوب».

لم يسمحوا لأحد ان يستريح بينما العدو الصهيوني بدأ يتسلل لعمق مصر. كشفوا الذين يدعون للانهزام وروح التخاذل بينما هو يطور قوته، ويفرض سلامه وهو مسلح بالصواريخ والرؤوس النووية. إنه سلام مرعب، والذين يدعون اليه خائنون للامانة وللامة.

كانوا ايضاً يحملون الرسالة نفسها خارج جدران الجامعة، حيث جماهير الفقراء المخدوعين بسراب الرخاء القادم من أمريكا يحتاجون الى صوت تحريضي يوقظهم ويوضح لهم كم هو النظام كاذب ومتآمر مع العدو. وبذلك أسقطوا السادات مقدما، وعندما أطلق عليه الاسلامبولي الرصاص كان يطلقه على جثة تفسخت، فلم يرف جفن ولم تدمع عين عليه في كل مصر، وشعبها الجنائزي الذي يحترم الموت منذ فجر التاريخ، فبنى الاهرام وإخترع التحنيط اجلالا لحرمة.. الرحيل الاخير.

إن ضرب الجماعات الاسلامية، وإجبارها على الخروج من الجامعة والنزول الى الشارع كان بمثابة وضع المحراث في التربة المصرية وبذر الثورة على العهد في بطنها، وتعهدها بالري والتسميد، وصدر حكم «الردة» غيابياً على السادات ونظامه. وعندما ظهر المنفذ لم يستغربه الناس، بالعكس كانوا ينتظرونه، ولم يخرج أحد في الجنازة، فدفن العار في بلدنا يستوجب الستر..

الفكرة بدلاً من التفكير

تفوق أعضاء الجماعات الاسلامية في مجالات التنظيم، وخلق الحلول العملية للمشكلات اليومية، وعندما نزلوا تحت الأرض نجحوا بقوة في تغيير الرأي العام وتحويله ضد النظام. كانوا يمثلون قوات المقدمة القدوة.. بالمثالية، وإنكار الذات. كانوا عمليين من الطراز الأول، ولكن اسهامهم الفكري كان معدوماً أو يكاد.

لعل السبب كامن في انشغالهم بمواجهات يومية مع خصومهم، وعقبات تستنزف جهودهم في محاولة تخطيها أو معالجتها، وأخيراً صدامهم مع السلطة التي حلت لهم الاتحاد، وحرمتهم من الموارد المادية، فكان عليهم أن يتدبروا غيرها، فالدولة التي وقعت صلحاً مع العدو أرادت فرضه على المسلمين، فأصبح الجهاد ضدها عين على كل مسلم ومسلمة.

في وسط هذه الزحمة لم تكن هناك فسحة للفكر النظري. اكتفوا فقط بالتراث القديم والقاصر للاخوان المسلمين، فنشروا المؤلفات الاسلامية للكتاب المعاصرين، وكتبوا تعليقات عملية وتنظيمية في منشوراتهم اتسمت بالتسرع.. اما موقفهم من سيد قطب وخاصة كتابه «معالم في الطريق» فكان مختلفا عن موقف جماعة مجلة «الدعوة» الملتفين حول التلمساني، الذي قال:

ـ ان سيد قطب لم يكن يمثل إلا نفسه، ناهيك عن الاخوان المسلمين.

الجماعات الاسلامية، أبداً لم ترفض فكر سيد قطب، ولكنها لم تتبن منهجه، وقد رأيناهم في نشرتهم «صوت الحق» يقدمون فقرات كاملة من كتابه الممنوع.

وبعد الصلح مع اسرائيل اصبحوا أكثر جنوحاً للمواجهة مع النظام، وقد ظهرت في مجلة «الدعوة» تحذيرات الانزلاق في تيار العنف، فكتب مصطفى مشهور في باب «الشباب والجامعات» موجهاً الطلاب لتحاشي الردود الانفعالية، والاثارات المتعمدة من جانب الخصوم، فهذه الصدامات الجانبية ليست سوى مضيعة للجهد والوقت.. «وان علينا أن نبدأ من حيث انتهى الذين سبقونا، بدلا من البدء من نقطة الصفر».

ولكن ايغال النظام في التحالف مع العدو، والتشدد ضد الاسلاميين، نسف كل نداءات الاعتدال والاستفادة من عبر الماضي الدامي، بل ان القواعد الشابة ضغطت على رجال الحرس القديم، واضعفت جناح المعتدلين بقيادة التلمساني لحساب أقلام أكثر حماساً بدأت تكتب في «الدعوة»، وتكاثر ظهور اسم سيد َقطب وفكره مقروناً بالاجلال، بينما أُهمل الهضيبي وفكره الاصلاحي المبني على الوعظ والارشاد إهمالاً تاماً.

حتى لا نظلم الشباب الذين تحملوا وحدهم تثوير مصر، وتحريكها ضد الصلح الخائن، فلا بد من أن نطالع بعض اسهامهم النظري كما جاء في مقال نشر في «الدعوة» بنهاية العام ١٩٨٠ بمناسبة بدء القرن الهجري الخامس عشر بقلم عصام الدين العريان الذي يعتبر واحداً من أفضل الأقلام التي ظهرت بين «الجماعات الإسلامية»، والطالب في كلية الطب.

المقال يستعرض وضع الأمة الاسلامية خلال المئة سنة الاخيرة من ١٨٨٠ الى ١٩٨٠.. ويقسمه الى ثلاث مراحل واضحة.

المرحلة الأولى: مرحلة الهزيمة الشاملة، والوقوع بالكامل تحت السيطرة الاستعمارية، واقتسام دول الغرب لدار الاسلام، وسط عجز تام من جانب المسلمين عن فهم ما حصل ولماذا حصل وكيف ينهزم المؤمنون، وقد وعدهم الله بالنصر.

المرحلة الثانية: بدأت الدول التي كانت اسلامية تتمزق الى كيانات وطنية خلعت رابطة الاسلام، خاصة بعد أن أسقط أتاتورك راية الخلافة، وأصبح المسلمون بلا خلافة لأول مرة في تاريخهم.. هذه الكيانات المصطنعة بدأت تبحث عن هوية غير الاسلام، فتطلعت الى الغرب تقتبس منه، أو بدأ هذا الغرب يفرض عليها ويدس ـ لا فرق ـ من القيم ما يخلعها بعيداً عن جذورها الاسلامية.. وظهر في كل بلد مسلم طه حسين ينادي بأن حل مشكلة التخلف الاسلامي وهوان المسلمين لا يكون إلا بالتخلي عن الاسلام نفسه، واقتباس الحضارة الغربية كلها، خيرها وشرها. وتمت عملية تغريب للقوانين.. وعملية تغريب للثقافة.. والأخلاق

والعادات واللباس والطعام.. حتى اللغة أصبحت هجيناً.

وعندما طالبت هذه الكيانات الوطنية القروية بالاستقلال، وحصلت عليه، فانها لم تكن مستقلة. كانت مغلولة الروح.. كانت مستعبدة.. كانت تابعة للغرب فكرياً ومادياً.. تستورد منه حتى مشاكله، ثم تستجديه حلها.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الصحوة الاسلامية الراهنة، واكتشاف إفلاس الغرب حضارياً، وفشل تجربة التغريب في حل مشكلات المجتمع المسلم والانسان المسلم، وبدء العودة للجذور.. وتتمثل الصحوة في اتجاه الفتيات للزي الاسلامي والحجاب، واتجاه الشباب للاقتداء بالرسول في اللباس والحديث، والزواج المبكر، والحرص على الصلوات الخمس، وتحويل صلاة العيدين الى تظاهرة اسلامية كبرى.

مظاهر الصحوة تلك، دليل على أن الجماعات الاسلامية، أصبحت بالفعل تمثل طليعة الأمة، ومحركها بالاتجاه الاسلامي الصحيح، بما تمارسه من توعية، وما تقوم به من خدمات.

لكن هناك عقبات على الطريق، بعضها خارجي، كنظام الحكم الذي لا يطبق الشرع، وبعض الأساتذة الذين يتخذون موقفاً عدائياً من الحركة الاسلامية، وبعض أولياء الأمور الذين يرون في إنتماء ابنائهم الى الجماعات الاسلامية ورطة غير مأمونة العواقب.

أما العقبات الأخطر، فهي داخل نفس الأخ المسلم.. فالبعض لا يفرِّق بين الاسلام كنظام معصوم، وبين محاولات التطبيق الاسلامي القابلة للخطأ والصواب، كأي نشاط بشري ـ محمد أخطأ واعترف، وعمر قال: لولا علي لهلك عمر.

والبعض لا يرى الاسلام كلاً متكاملاً ـ نظاماً كاملاً وشاملاً ـ يبدأ من قمة الدولة، نظامها وأحكامها، فلسفتها وسلوكها، الشورى، والتشريع، والجيش... ثم ينظم حياة الفرد نفسه، علاقته بربه، ودوره في المجتمع الذي يعيش فيه.. الافتقار لهذه النظرة الشمولية للاسلام، يجعل البعض يتوه في التفاصيل، ويغلب الفرعي على الأساسي، يهتم بالسواك وينسى الصلح مع اسرائيل.

تعصب شريحة من المسلمين لتفسيرهم الخاص للاسلام متأثرين بقراءات فقهية بعينها، فينفصلون عن الجماعة، وينزلقون لحربها، مما يضعف التيار العام للحركة الاسلامية.

أخيراً ما ينتاب الشاب المسلم النشط في الجامعة من تكاسل بعد التخرج، فتقتصر صلته بالحركة الاسلامية على الصلاة، وقليل من المساهمات المادية، وكأن الوظيفة وطلب الرزق تعفي المسلم من فريضة العمل للاسلام، وتسقط عنه التكاليف.

هذا التلخيص السريع لفكر الكاتب الشاب، يوضح أدواته ومصادره العلمانية التي استخدمها في تحليل الموقف الاسلامي، ويوضح أيضاً الافتقار لنظرية متكاملة خاصة على صعيد الموقف من توزيع الثروات.

فن صناعة الفتن

بعد حل اتحاد الطلبة، وجدنا أن الجماعات الاسلامية تنزل تحت الارض، وتتغلغل في الأحياء الفقيرة.. وأيضاً تتجه لاستعمال العصي والقبضات كي تحافظ على هيمنتها وتأديب خصومها في الوسط الجامعي.

الجنوح للعنف خطأ، ولكنه حصل دائما، بل كان أحد لوازم التيار الاسلامي كما عرفته وعشته في المدارس الثانوية والجامعة حيث كانت الكرابيج وأحياناً المطاوي تحتل المكان الأول في الشنط قبل الكتب والكراريس.

في ٢٤ مارس ١٩٨٠ اتخذ عنف «الجماعات» شكلا متطرفاً يذكر بعملية خطف الشيخ الذهبي وربما كان متأثراً بها.. وذلك عندما حاصرت مجموعة منهم مقر عميد كلية علوم اسكندرية، واقتحم عشرة اخوان مكتبه، واحتجزوه رهينة لمدة ثلاث ساعات قدموا له في نهايتها إنذاراً نهائياً يضم أربعة مطالب هي:

«ألّا تُقام في الكلية أية مهرجانات سينمائية بعد اليوم..

أن توقف عمليات مطاردة الاسلاميين بالتحقيقات ومجالس التأديب..

الموافقة على تنظيم لقاء إسلامي..

ألّا يقوم العميد بشطب أسماء ممثليهم الذين يتقدمون لانتخابات اتحاد الكلية القادم..»

هذا الميل للعنف يمكن توظيفه في المكان الخطأ، بل والمحرم إسلامياً، كما حدث عندما اندمجت الجماعات الاسلامية في حلقة العنف ضد اخوانهم المسيحيين الذين وصفهم القرآن بأنهم أقرب الناس وأكثرهم قرباً لأهل الاسلام، والذين أوصانا بهم الرسول خيراً، وتزوج منهم «مارية القبطية» لتنجب له ولده الأخير ابراهيم.

قبل الدخول في دهاليز الفتنة الطائفية التي تمثل أسوأ وجوه نشاط الجماعات الاسلامية والجماعات القبطية على حد سواء.. يجب ان أقر سلفاً بأنني خِلافاً للمنهج سأبدأ منحازاً لنظرية أراها صحيحة تماماً، وسأجمع الادلة على مصداقيتها.. أي سأبدأ بالنتيجة التي اعتقدها،

وبعد ذلك سأبرهن عليها.. وهذه النتيجة هي أن الفتنة الطائفية صنعها السادات ونظامه وجروا جميع الاطراف الى ساحة ضرب النار، وعملوا على تأجيجها بكل الوسائل.

الهدف من ذلك واضح، فالنظام الذي اشترى سلامته بالصلح مع العدو، فوجيء بالتيار الإسلامي الذي حاول رشوته بكل الوسائل، ينقلب عليه ويتهمه بالكفر والخيانة، ويدمر شرعيته في نظر الاغلبية المسلمة.

المفاجأة الأشد قسوة على السادات ان الكنيسة القبطية عارضت الصلح هي الأخرى ومن منطلق عقائدي لا يقل صلابة من المنطلق الاسلامي.. فبدا كأن الرئيس «المؤمن» هو الزنديق الوحيد في مصر.

من هنا تكون مصلحته واضحة في أن يضرب المسلمين بالاقباط، فيجعل كل منهما عدواً للآخر وفريسة له، عدو قريب يعيش معه في المدينة نفسها او القرية، وأحيانا في الشارع نفسه والبيت نفسه، فينشغل الوطن بالانتحار عن مواجهة الخطر الأكبر، والمنكر العظيم الذي جلبه السادات على مصر، أقباطها قبل مسلميها.

هذا الخاطر الخبيث لا يمكن أن يغيب عن ذهن متآمر مريض كذهن السادات والذي وعى اللعبة ذاتها عندما كان يمارسها المندوب السامي البريطاني من أربعة وسبعين عاما..

أيضاً تفتيت مصر الى دولتين طائفيتين يتمشى تماماً مع المخطط الصهيوني البعيد المدى لتحويل المنطقة المحيطة باسرائيل الى «كوميونات» طائفية تحت الهيمنة الصهيونية، التي ستكون أقوى من الجميع وستشغلهم عنها بالحروب فيما بينهم - لاحظوا البروفة اللبنانية - وهنا لا يستبعد ان تكون اسرائيل والصديق الامريكي ضالعين مع «المؤمن» في مؤامرة ضرب مصر من الداخل، كل لأسبابه الخاصة وان جمعهم الهدف المطلوب في تلك المرحلة الحرجة عقب الصلح المرفوض.

الاقباط في مصر كانوا دائما جزءاً رئيسياً من النسيج المتجانس لهذا الشعب القديم. وطوال فترة الحكم الاسلامي سنجدهم يحتلون المناصب الحساسة في ادارة «البيروقراطية المصرية»، فمنهم الوزراء، والكتبة في الدواوين بالعاصمة. وفي الريف سنجدهم «الصرافين» الذين يقيسون

الارض ويحددون ضريبتها «الخراج» وهي وظيفة تمسك زمام صرة الحاكم ورزق المحكوم. وأيضاً هناك عدد كبير من المزارات التي تضم «أولياء الله» التي يتبرك بها المصريون كافة، تضم رفات مسيحيين من أهل الصلاح وسنجد في كل مديرية مقاماً شهيراً لولي يسمى غالباً «سيدي ابو جورج» يحتفل بمولده ويتحدث بمعجزاته المسلمون قبل المسيحيين. وسنجد الكنيسة القبطية تم تعريبها بالكامل من داخلها ـ عظاتها وصلواتها ـ حتى يفهمها شعبها الذي تحول بسهولة الى لغة الضاد وبقيت اللغة القبطية القديمة قاصرة على الدراسات الكهنوتية.

اذاً فنحن أمام ظاهرة انسانية فريدة: شعب موحد التاريخ واللغة والتراث، لم تفرقه الديانات، بالعكس اتجه لاحتضان الشعائر التي من خلالها تبدي كلا الطائفتين إحترامها للعقيدة الاخرى كالاحتفال بالاعياد المشتركة، وتبادل التهاني والتعازي والمجاملات، وإحترام رجال الدين وأهل التقوى من الجانبين.. الخ..

إذاً كيف يمكن لهذه العلاقة القديمة والحضارية ان تفسد؟

هنا يجب ان نعود للتاريخ فنجد ان نابليون الملحد عندما دخل مصر، يتظاهر لأهل الاسلام بأنه مسلم، ويستدل على ذلك بأنه قفل الاديرة وخلع البابا في روما قبل مجيئه لنصرة السلطان.. وبعد ذلك سنراه يخدع بعض ضعاف النفوس من المسيحيين فيشكل منهم جيشاً بقيادة «المعلم يعقوب» يحارب تحت قيادة الجنرال ديزيه في الصعيد.. ولكن التجربة التعسة تفشل، وينسحب الفرنسيون من مصر، ويصحبون معهم المعلم يعقوب ليموت غريباً وحيداً مريضاً ـ أي يعاني من اللعنات الثلاث التي يخشاها كل مصري ـ والغريب ان العلاقة بين الطائفتين بعد ذهاب الحملة الفرنسية عادت الى طبيعتها الصافية كأن «الفرنسيس» لم يدخلوا «المحروسة» وهنا تلزمنا قراءة مدققة لتاريخ الجبرتي ويوميات الحملة في مصر.

الفجوة الحقيقية حدثت بعد دخول التعليم العلماني وبالذات عند ظهور المدارس الاجنبية في عصر الخديوي اسماعيل وإقبال موظفي الدولة ـ وأغلبهم من الأقباط ـ على إلحاق اولادهم بها، حتى يضمنوا لهم

مقاعد وظيفية في «قطار الميري»، فالمثل الشعبي الشهير في بلدنا والذي يقول «ان فاتك الميري إتمرغ في ترابه».. هو مثل قبطي مئة بالمئة.. ولكن الاولاد الذين تعلموا في مدارس التبشير الغربية لم يعودوا أقباطاً صالحين.

ونحن المسلمون اول من يدرك صحة العبارة الحادة التي تقول: «لا يمكن ان يكون مصرياً جيداً إلا من كان قبطياً جيداً».. فالكنيسة المصرية هي بوتقة الوطنية منذ انقسم العالم المسيحي عقب مؤتمر «نيقيا» عام ٣٢٥، ووقف بطرك الاسكندرية البابا اثناسيوس معارضاً الكنيسة البيزنطية وكنيسة روما، فجلب على نفسه وشعبه اضطهاد الامبراطور البيزنطي، رافضاً التخلي عن إيمانه ونزعته الوطنية فقيل يومها: «العالم ضد اثناسيوس واثناسيوس ضد العالم».

لهذا فليس غريباً أن تكون كنيستنا الوطنية في مصر هي أول مؤسسة شعرت بخطورة التيار التغريبي والتبشيري على شعبها، وما الحرب التي شنها الانباكيرلس الخامس العنيد والشديد الايمان ضد رئيس وزراء مصر، وعميد التيار التغريبي الانجليزي، بطرس باشا غالي، إلا صورة لغضب الكنيسة على ابنائها الخارجين على خطها والعاملين لحساب عدوها.

وسنجد ان البطرك الصعيدي الشرقاوي يواجه الضغط ولا ينحني، ويتقبل العزل والنفي ولا يتراجع، وينتصر هو، ويقتل بطرس غالي على يد مصري مسلم.

الزعيم الوطني محمد فريد وضع اصبعه على سبب هذه المحنة عندما كتب في مذكراته:

«في يوم ٣١ ينـايـر ١٨٩٣ صدر العفـو عن بطرك الاقباط ومطران الاسكنـدرية وبذلك لم تنجح انجلترا في مساعيها وهي جعل الكنيسة القبطية بروتستانتية المذهب، ليكون جميع الاقباط تحت حماية انجلترا»..

مقتـل بطرس غالي صوَّرَتْـهُ صحف الاستعمار الانجليزي ـ المقطم بالذات ـ على أنه تعصب اسلامي ضد كبير الأقباط في مصر ونابغتهم،

وليس عملا سياسياً ضد الرجل الذي ترأس محكمة دنشواي التي شنقت الفلاحين لحساب الانجليز عام ١٩٠٦، والرجل الذي باع السودان للانجليز في معاهدة ١٨٩٩ والذي أصدر قانوناً للمطبوعات كمم به حرية الكلمة عام ١٩٠٩، والمصري الذي طالب بمد امتياز قناة السويس عام ١٩١٠، والمسيحي الذي نفى «البطريك» عام ١٨٩٢.

كان تلبيس الجريمة السياسية ثوباً طائفياً من تدبير المعتمد البريطاني دون جورست الذي حل حديثا في قصر الدوبارة خلفاً للورد كرومر.. جاء جورست بسياسة طائفية ناعمة وخبيثة ليخفف من الآثار المدمرة التي نتجت عن عنف سلفه الوقح الشديد الصلافة.

بدأت الموجة الطائفية بمقال كتبه شخص يدعى فريد كامل في صحيفة «الوطن»، فحواه ان أقباط مصر محرومون من حقوقهم في بلدهم.

تلقف الطعم، الكاتب الإسلامي، الناري المزاج، وعضو الحزب الوطني الشيخ عبد العزيز جاويش، وكتب رداً عنيفاً عليه بعنوان «الاسلام غريب في أرضه»، نشره في صحيفة «اللواء».. فاشتعلت الملاسنة القلمية بين كتّاب الفريقين على صفحات «الوطن» و«المقطم» من ناحية، و«اللواء»، والى حدٍ ما «المؤيد» في الجبهة المضادة.

كانت أصابع السياسة الاستعمارية ـ فرِّق تسُد ـ واضحة، فالصحف الناطقة باسم المعتمد تلقي بالحطب فوق النار، وتدعو الى مؤتمر قبطي لدراسة أوضاع الطائفة.

ويعقد المؤتمر في مدينة أسيوط، وطرحت فيه فكرة انشاء «دولة قبطية» في الصعيد علناً، ولأول مرة.

ورد المسلمون بمؤتمر عقدوه في مصر الجديدة أول مايو ١٩١١.

سارت مصر نحو هاوية الطائفية، تدفعها يد جورست. ولولا لُطف الله لتعرضت وحدة «مينا» للانفصال بعد خمسة آلاف عام من قيامها.

وجاءت ثورة ١٩١٩.. لتردم كل الوسخ الطائفي وليصبح الوفد ـ حزب الثورة ـ هو الممثل لكل الاقباط، ومعظم المسلمين.

لم يعد اللعب بورقة الطائفية وارداً ولا ممكناً، وحافظت الكنيسة على دورها ووجهها الوطني، أماً عاقلة للشعب المسيحي على مستوى القاعدة

العريضة في القرى والأقاليم، تلتقي مع التيار الاسلامي في مناهضته للتيار الهاتف بالتغريب، فحاربت الحملات التبشيرية بشراسة تفوق مقاومة المسلمين، فقد رأت عن حق ان الخطر يتهددها أكثر مما يتهدد الاسلام، فاجتذاب القبطي لاعتناق البروتستانتية أو الكثلكة أقرب وأسهل من اجتذاب المسلم المنتمي للأغلبية، ولدين مختلف تماماً.

وجاء موقف البابا شنودة الرافض للصلح مع اسرائيل، ومعاداة صاحبه، نابعاً من التقييم السليم للخطر الصهيوني على المعتقد المسيحي القبطي قبل أي شيء آخر، فمنع الطائفة من الحج للقدس التي احتلها قتلة المسيح، وبذلك انضم لطائفة المغضوب عليهم، فأوقف عن القيام بمهام منصبه، ونَفي الى دير النطرون، فأضرب الشعب عن القيام بأي قداس.

اذا كان الموقف بين المسيحيين والإسلاميين ضد الصلح وضد العهد موحداً الى هذا الحد، فكيف سمحوا لأنفسهم بالانجرار الى حمأة الفتنة الطائفية؟ النظام هو الذي خطط، وهو الذي فجر، وهو الذي استفاد. وقد رأينا محمد عثمان اسماعيل محافظ اسيوط ـ المعقل المسيحي تاريخياً ـ يقرب الجماعات الاسلامية ويساندها ويمولها، بالاتفاق مع الرئيس طبعاً وإلا لما أبقاه في موقعه طوال عهده بينما تم نقل وتغيير كل المحافظين الآخرين. فما السبب؟ لسنا في حاجة للاجابة، فالنتيجة واضحة.

أيضاً خطابات الرئيس غير المسؤولة ـ أو الملغومة عن قصد ـ وهجومه على الطائفتين، وكثرة ترديده واشاراته لوجود عناصر تعمل لاشعال الفتنة الطائفية، عبأت الرأي العام بالشك، والتفت المسلم للمسيحي.. والمسيحي للمسلم.. وكلاهما في حالة تربص وتوقع للشر.

قيل قديماً: «توقعوا الشر تجدوه».. وهذا ما حدث بالضبط.

كان برميل البارود معبأً في الصعيد، وبالذات في محافظتي أسيوط والمنيا، حيث توجد أعلى نسبة من الأقباط وأكبر قواعد للحركات الاسلامية، وأيضاً حيث حشدت أضخم ترسانة للسلاح الجديد الذي تم تهريبه من جبهة القتال خلال سنوات الاستنزاف ومعركة العبور. وتخزين السلاح، والقتل لأتفه الأسباب وبلا أسباب، من معالم الحياة

في جنوب مصر، وأهم قيم الصعيدي الذي يحسمها بعبارة: «على أيش توجع راسك يا بوي!! ديته رصاصه بتلاتة مليم تريحه وترتاح»..

المشكلة ان السلاح الذي نزل الصعيد هذه المرة لم يكن «بنادق الغفر» بل «كلاشينكوفات» و«تشيكي» نصف آلية.

كان عام ١٩٨٠ غريباً وعنيفاً ومرعباً على الصعيد الشخصي والعام..

كنت في الشارقة أعمل في صحيفة «الخليج» في ثاني «مقلب» أشربه على يد الاصدقاء القوميين «التريميين» وفي هذه الفترة المشدودة عثرت على شقيقي «الحاج مصطفى» لأعيد اكتشافه على ضوء نوراني جديد، أطلق ذقنه نصف متر، ولبس الجلباب القصير، وتعمم سنياً وعاد اخوانياً ـ هو الذي ترك الأشبال في العاشرة ـ أصبح أبا لدستة من الأطفال، ولكن ذلك لا يمنعه من حمل السلاح في جنوب لبنان وبعد ذلك في افغانستان، والى الآن..

وجدته على خير حال، ووجدني على شر حال، هو يقاتل في سبيل ايمانه وقضيته برضى ولكن باستبسال، وأنا أمزق عمري مع مخاريق وأقبض خوازيق.. وأحرق كبدي بالويسكي وبمعدل اربعين زجاجة شهرياً.

كان أجمل ما حصلت عليه في تلك الفترة هو إستعادة اخي، ابني الصغير الذي ربيت وأحببت، وصديقي الذي أرى فيه أيام «بلبيس» وقرفها، وأيام «حارة رابعة» في الجيزة وقلقها، ثم «العمرانية» ومنها الى الكويت، وبعدها ابو ظبي.. وفي كل تلك المواقع كنا معاً، وفي كل خطوة خطوناها كانت له علامة في قلبي، تبكيني أو تضحكني، ودائما تسعدني.. ولا اعتقد ان هناك على الأرض رجلين يحمل احدهما الآخر في خلاياه وثنايا روحه كما هي الحال بيني وبين الحاج مصطفى أعطاه الله الصحة وطول العمر.

هذه المقدمة العائلية الوجدانية، ليست مجرد شطحة، ولكنها وثيقة العلاقة بكل ما كتبته واكتبه وسأكتبه، عن الحركات الاسلامية والفكر الاسلامي، بل وتوبتي وندمي وعودتي، لتلمس الطريق الذي خرجت عليه، كل ذلك جاء نتيجة غير متوقعة للسهرات الطوال التي قضيناها نتحدث عن الاسلام وأمة الاسلام.. ولماذا.. وكيف.. ومتى.. والى اين.

كانت معلوماته غزيرة وطازجة.. وإيمانه كإيمان امي ـ امنا ـ عفويا ومتدفقاً، ومتابعاته لما يدور في مصر دقيقة ومن مصادر شغالة في قلب الساحة، وليس عن طريق الاعلام الكذاب.

في ربيع ذلك العام وقع في «المحروسة» حادثان متفجران.. الأول هو تسلم السادات لاوراق اعتماد الياهو بن اليسار كأول سفير للكيان الصهيوني في القاهرة مدينة الالف مسجد، والعشرة ملايين مسلم..

قال الحاج مصطفى: هل تعلم ان العثور على مقر للسفارة الاسرائيلية في القاهرة سبب مشكلة؟

قلت: طبعاً فليس سهلاً أن تجد مصرياً يقبل أن يؤجر أو يبيع لعدوه التاريخي، نفسياً على الأقل سيرفض..

رد: الصهاينة هم الذين رفضوا يا سيدي..

قلت: أنت تمزح.

جاداً قال: أبداً والله.. لقد رفضوا كل ما عرض عليهم من دور وقصور على الشاطىء الشرقي للنيل، فهذه ارض اسرائيل.. ومن غير المنطقي أن تفتح اسرائيل لها سفارة بأرض هي ارض اسرائيلية بأمر الله وحكمة التوراة، واستغفر الله.. وبذلك ضاعت بلبيس والعادلية وأبو كبير والاسماعيلية.. وضعنا يا عمنا، وأصبحنا بلا وطن كأولاد عماتنا..

الحدث الثاني هو استضافة «المؤمن» لصديقه المخلوع «الشاهنشاه ايريا مهر محمد رضا بهلوي» ليقيم في مصر.. مصر التي تآمر عليها وعلى شعبها وتحالف ضدها ومع كل اعدائها.. وهكذا أظهر السادات أنه معزول تماماً عن نبض الشارع المصري.. وبالذات عن التيار الاسلامي، والذي كان حتى تلك الساعة ينظر بقداسة تامة الى قيام «الجمهورية الاسلامية الايرانية» ويراها بداية حقيقية لعودة الحياة في الجسد الاسلامي الممزق.

أصبح التحدي سافراً، فالرجل يتصرف كأنه ملك الارض ومن عليها. وتواردت الأخبار من القاهرة بما لا يسر، فالغضب دمدمة مكتومة، وتجري محاولات دؤوبة لتحويله عن الهدف الحقيقي، الى صراع داخلي.. من مقاومة ردة النظام الى فتنة طائفية يأكل بعضها بعضا، ليسلم النظام

وحلفاؤه وأصدقاؤه الجدد.

بدأت الجولة في مارس بدعوة صدرت عن الجماعات الاسلامية بالجامعات الى عقد مؤتمرات لمناقشة «المنكر الذي يسير فيه النظام» وفي ٢٦ مارس، أقيم في جامعة القاهرة اجتماع طلابي حاشد، فجاءت قوات النبوي اسماعيل، وتدخلت لفضه، فنجحت جزئياً، وتمكنت من منع الطلبة الذين أرادوا الخروج في مسيرة تنزل الشوارع.

الوضع في أسيوط كان مختلفاً تماماً، فالمؤتمر انعقد، ونزل الطلبة الى الشوارع يهتفون ضد «حليف بيغن وصديق الشاه وعدو أمة لا إله إلّا الله» وصدرت الأوامر: «اضرب في المليان يا عسكري يا ابن الكلب».. ويبدأ الضرب، ويسقط أحد الطلبة قتيلاً ويصاب ستة بجراح خطيرة، ويلقي القبض على ستين طالب.

بدأت المواجهة على المكشوف بين العهد والاسلاميين، فكيف كان الوضع في الخندق المسيحي؟

منذ فترة كانت العلاقات تدهورت بين «المؤمن» وبين البابا شنودة الثالث. وبلغت الحضيض عندما زار «الرئيس» أصدقاءه في واشنطن، فوجد التنظيم القبطي في امريكا ينتظره بالمظاهرات واللافتات المعادية.. والأنكى من ذلك نشرهم إعلاناً مدفوع ظهر في كافة الصحف الأميركية الهامة، يتهم السادات بأنه أصبح أسير الجماعات الاسلامية المتطرفة.

هذا التوصيف ضايق «الرئيس» فعلاً، ولكنه أطلق شرارة النار الطائفية.. فهل كان هذا هو المقصود؟

الإسلاميون يؤكدون أن الإدارة الأميركية الصهيونية كانت وراء الإعلان الاستفزازي، وأن «السي. آي. إيه.» هي التي حرّكت الأقباط في امريكا والصعيد للهجوم على الاسلاميين ليس بالاعلانات الاتهامية فقط، بل بالدولارات والاسلحة.

هذا الاتهام قد يكون صادراً عن غضب متحيز ـ وهو كذلك فعلاً ـ ولكن بدء الفتنة وإنطلاقها من فوق الارض الامريكية مسألة تدعو للشك في وجود طرف ثالث.. وإلّا كنا سذجاً في قراءة الأحداث واستقراء التاريخ.

في ١١ ابريل عاد انور السادات من زيارة البيت الابيض يحمل قلباً أسود ضد الأقباط، وضد البابا شنودة الثالث بالذات، وحدثت الوقيعة الكاملة بينهما، فقد رفض «كبير العائلة المصرية» أن يصدق ما قاله البابا بأن الأقبـاط المصريـين في أمـيركا يتصرفون دون الرجوع إليه.. وكان صادقاً، حيث لهم مرجع آخر..

تحـرك الاستفـزاز من امـريكا ضد الاسلاميين، فوقعوا في الشرك، واستجـابوا له، وتحولوا من مصادمة السادات الى صدام مع اخوتهم المسيحيـين، وفي الوقت نفسـه تصـاعـدت الأزمة بين «المؤمن» والبابا شنـودة، فأوقف صلوات عيـد الفصح، وإمتنعت الكنيسة عن إرسال ممثليها الى الاحتفالات الرسمية أو لاستقبال «رأس الدولة» عند عودته من الخـارج.. وبـدا الجميـع كأنهم اداروا ظهورهم بعضهم لبعض، فالمسيحيـون ضد الاسلاميين و«الرئيس» ضد الاثنين، وإشاعات عن سلاح ودولارات تصل من واشنطن الى المنيا، ومجلة «الدعوة» تنشر ما سمي «تقرير ميتشيل» الذي يتحدث عن خطة دبرتها الـ «سي. آي. ايه» لضرب الاخـوان المسلمين وتصفية التيار الاسلامي نهائياً. وفي وسط هذا المرجل لم يحاول أحد أن يتوقف ليفكر ويسأل: الى أين؟ ولمصلحة من؟ وما النتيجة؟..

واشتعلت.. فقـد وقـع صدام مسلح بين المسيحيـين والمسلمين في محافظة المنيا، وتساقط فيه القتلى والجرحى في عز الظهر الأحمر.. وهذا يعني انفـلات أشباح الفتنة الطائفية التي تتحرك تحت الأرض، وبدء دورة العنف الدموي، الذي يلهي مصر عن كارثة الصلح مع اسرائيل، وعن خيـانـة النـظام، وعن التغلغـل الامـريكي بين الطائفتين وفي كل المؤسسات وعلى جميع المستويات.

كانت الفتنة مطلوبة إذن! ومرحباً بها دون شك، فمصائب مصر عند البعض فوائد.

كنا نراقب الوضع من خارج مصر فتبدو لنا المؤامرة في غاية الوضوح، وعندما وصلنا في الشارقة بيان الجماعات الاسلامية في الصعيد حول الاحداث، اتضح فيه كيف أن الانسان الغارق في الفعل ورد الفعل لا

يرى شيئا أبعد من أنفه.. وكيف يمكن جر مجموعة من العقلاء ليتصرفوا كالمجانين.. بل كيف بدت مصر كلها كبيمارتسان العباسية للامراض العقلية: فالرئيس يصرخ، وصحفه تشتم، والاسلاميون يدعون للاستشهاد، والمسيحيون يهتفون طالبين الغوث من معركة إبادة تدبر ضدهم.. ماذا يحدث في مصر يا هوه؟

هل تخلصت من عدوها الخارجي وإستدارت لتخلص على نفسها؟ أم عدوها حقنها في غفلة منها «بفيروس» جعل خلاياها تأكل بعضها «لوكيميا» تدفع كريات الدم البيضاء لتدمير كريات الدم الحمراء، وتنهي التصالح الذي يعيش عليه الجسم وبه تستقر المعادلة «البايولوجية». كان المنظر مأساوياً حقاً..

ماذا قال بيان «الجماعات الاسلامية» التي اصطبغت بروح صعيدية مغلقة؟

العنوان يدل على المضمون:

«المنيا وأسيوط بين النصارى ووزارة الداخلية»..

ويقول: «انه بينما أوقف البابا شنودة صلوات عيد الفصح، ورفض ان يخرج الى المطار لاستقبال رئيس الدولة، فانه قام بإرسال الاسقف صمويل الى الولايات المتحدة أثناء زيارة الرئيس السادات لها، وذلك كي يدفع الأقباط هناك للقيام بمظاهرات وتوزيع منشورات ضد الرئيس، وفي نفس الوقت أمر النصارى في مصر بحمل السلاح ضد المسلمين ومهاجمتهم. وهكذا قامت تلك العصابة من النصارى في المنيا بالانقضاض على المسلمين في «عزبة طاث» القبلية، وطعن اثنين منهم في الظهر، اثناء ذهابهم لتأدية الصلاة في المسجد ـ طعن مسلم في ظهره وهو في طريقه لبيت الله، تصوير صعيدي تراجيدي يصلح لموال على غرار ياسين وبهية ـ وعندما تجمع أهل الضحايا، وتوجهوا الى الجناة الذين يعملون بتحريض من الكنيسة ـ طبعاً أمال الكنيسة شغلتها أيه غير التحريض على القتل!! ـ يطلبون دية المغدورين، ولكنهم فوجئوا بالنصارى يستقبلونهم بالرصاص يطلقونه عليهم من سلاح غير مرخص ـ تصوروا سلاحاً غير مرخص في المنيا!! حيث التصفيات تتم في حقول

الذرة بأسلحة قانونية!! ـ وكانت الاسلحة تضم مدافع رشاشة وبنادق نصف آليـة، وقـد أطلقـوا الرصاص من فوق اسطح منازلهم، فقتلوا مسلماً، وجرحوا آخرين بينهم نساء وأطفال يرقدون الآن في مستشفى المنيا الاميري.

وتـدخل البوليس، وواجه النصارى، وقبض على الجناة.. وفي اليوم التـالي أوقف شاحنـة مملوءة بالاسلحـة والذخـائـر كانت في طريقهـا للنصارى.. واخيرا تم تجريد الباقين من السلاح.

وبينمـا كان المسلمون يعانون مأساتهم جاءت الحكومة لتخبرنا ـ لاحـظ دور الحكومة ـ بأن هذه الحوادث انما بتحريض بابا الكنيسة بهدف تقوية مركزه من الحصول على تنازلات من الحكومة..

هكـذا طلب وزيـر الداخلية من الأخ حلمي الجزار أمير الجماعات الاسلامية في مصر ان يرسل الجماعات لتهدئة الاهالي، وفي المقابل فانه سيأمر باطلاق سراح المسلمين الذين قبض عليهم البوليس في المسجد، حيث اتخذوا منه ملجأ ضد هجمات النصارى.

هؤلاء المسلمون عُذبوا بوحشية، وحرموا من الطعام، ومنع عنهم الماء لمدة يومـين، وحلقت لحاهم وما الى ذلك.. فتجمعت أسرهم حول مخفر الشرطة، وأشعلوا فيه النار، وقد تم استعادة الهدوء بعد تدخل الأخ حلمي الجزار والاخ محيي الدين أمير الجماعات بالمنطقة.. وبالفعل تم الافراج عن الدفعة الاولى من المقبوض عليهم يوم ١١ ابريل عند عودة الرئيس من امـريكـا حيث نعلم جميعـاً أي نوع من الاستقبـالات واجهه بها النصارى المهاجرون هناك..

بعد ذلك توالت الاحداث التي لا يعلم ما وراءها إلا الله وحده:

قبض على الاخ محيي الدين.

وجرى اضطهاد الجماعات الاسلامية في المنيا وأسيوط..

وأوقفت الدراسة بالجامعات..

وهكذا..

فلماذا يقع كل ذلك بعد عودته من البيت الابيض؟

هل جاء ذلك بتحـريض من الصليبيـة الأمـيركيـة لضرب الحـركة

الاسلامية في مصر، كما جاء في «تقرير ميتشل»..

فالى أي مدى سيذهبون؟

ان النصارى يواصلون الهجوم، ويتظاهرون علناً.. وينهمر عليهم السلاح بواسطة محافظ سيناء النصراني، بينما المسلمون لا يحظون إلا بالسجن!!»..

هذا الخلط بين موقف الحكومة المتآمرة، وبين حادث ضرب نار يقع يومياً في الصعيد عشرات المرات، يوضح الهاجس الثابت لدى الجماعات الاسلامية من ضربة يتوقعونها.. كما أن عدم الالتفات لتحريض وزارة الداخلية لهم ضد الكنيسة يدل على عدم نضج سياسي وقصر نظر..

ومن السهل اكتشاف الخيوط التي استغلت المسلمين والمسيحيين معاً، ودفعتهم الى الصدام، فتغاضت عن تكديس السلاح، وشحنت النفوس بالغضب، ورسمت السيناريو، ووقفت تراقب حركة ابطال المأساة.

الاعلان الذي نشره الأقباط المصريون المغتربون في الولايات المتحدة خلال زيارة السادات لامريكا في ابريل ١٩٨٠ كان بمثابة لغم مؤقت وموجه، فاتهام السادات بأنه أصبح اسيراً في قبضة المتطرفين من الجماعات الاسلامية كان المقصود منه إثارة الاسلاميين بتوجيه تهمة التطرف اليهم وليس اثارة الرئيس نفسه.. وهذا ما حدث.. ثم جاء النبوي اسماعيل ليثير الاسلاميين عندما أخبرهم بأن الكنيسة هي التي حرضت رعاياها على مهاجمة المسلمين واطلاق الرصاص عليهم، دعماً لموقف البابا شنودة ومطالبه التي يريد فرضها على الحكومة.

اذاً فهناك جهة ما في امريكا تسعى لاشعال الفتنة بتحريض الأقباط هناك.. وهذه الفئة لا يستبعد أن تكون مدفوعة من المنظمات الصهيونية العالمية المسيطرة هناك، وقد تكون الـ «سي. آي. ايه» كما يقول البعض، فالعملية مرسومة على نطاق اوسع مما تطيقه مجموعة من المهاجرين الجدد..

وفي مصر تعمل الحكومة نفسها في اطار المخطط نفسه.. وانتهت أحداث هذا الربيع الدامي بصدامات المنيا التي انتهت بالضبط حيث

أرادوا لها.. أي باعتقالات واسعة في صفوف الجماعات الاسلامية التي كانوا يدفعونها لحتفها.. أو لاجهاض حركتها بعد أن اتجهت لضرب «كامب ديفيد» وزلزلة النظام بمعاول دينية بعد ان أخرجوا فتوتين صادرتين عن الأزهر في عامي ١٩٦٥ و١٩٧١، وكلتاهما تحرم الصلح مع اسرائيل وتعتبر كل من يقترفه «مرتداً» خارجاً عن الاسلام عقوبته الموت..

الآن حقق النظام والمخططون له هدفهم، فشبكوا الجميع بالفتنة وصرفوهم عن جريمة الصلح، أما الجماعات الاسلامية فشغلوها ثم شلّوها.

المشكلة ان الضربة التي وجهها السادات ونظامه للجماعات الاسلامية كانت محدودة وقاصرة على عناصر المنيا وأسيوط بينما بقيت الحركة في مجموعها سليمة ونشطة في عدائها للعهد. والواقع ان «الرئيس» ومفرمته لم تكن بقادرة على ضرب الجماعات التي قالت عنها «اللوموند» الفرنسية في نوفمبر ١٩٧٩ في معرض تحليلها لظاهرة تجمعات صلاة عيدي الفطر والأضحى:

«منذ حركة الجيش عام ١٩٥٢ بقي العسكر هم القوة الوحيدة المسيطرة على السلطة، لا تسمح لغيرها بالظهور على المسرح.. اليوم فان الجماعات الاسلامية رغم التناقضات الداخلية فيما بينها أصبحت تشكل قوة خطيرة موازية للجيش».

مفاوضات النبوي اسماعيل مع حلمي الجزار أمير الجماعات الاسلامية لانهاء الشغب في المنيا وتهدئة الأهالي هناك جاءت دليلا عملياً في ربيع ١٩٨٠ على صحة تحليل «اللوموند» في خريف ١٩٧٩.

كان على السادات أن يفرمل اندفاعه قبل توجيه الضربة النهائية لخصوم ثبت انهم قادرون على تحريك الأهالي بالسلاح لمحاصرة أقسام البوليس وحرقها.. وتحويل خناقة قروية في الصعيد الأوسط الى شغب طائفي وتقديمه للناس على أنه مؤامرة عالمية ضد الاسلام.. والأهم من ذلك أن الشعب يتبعهم ويحتضنهم على أنهم ممثلو الاسلام وجنوده وشهداؤه، فأصبح الاعتداء عليهم اعتداء على الاسلام، سيحرك الجماهير لتنزل الشارع دفاعاً عن دينها، ونجدة لخيرة شباب أمة محمد.

رأى السادات، وكان محقاً.. أن عليه أن يفصل الصلة بين الجماهير وبين الطلائع الاسلامية.. أن يخرج السمك ليموت أو ليعكر المياه. «ليصطاد في المية العكرة» لا بد من مكيدة كبيرة تدمر سمعة الحركات الاسلامية في الشارع وتصورها كخطر داهم على البلد وعلى الشعب.. وهنا يسهل جداً استئصالها فلا يتحرك لها أحد.

في هذا الموقع ليس هناك أفضل من تحريك الوطنية المصرية وتخويف الشعب على البلد. على «ام الدنيا».. على وحدة مصر وسلامتها، واظهار شباب الحركات الاسلامية بصورة المتهوسين.. «اللي حيودو البلاد في داهية» والوطنية المصرية عقدة عمرها أربعة آلاف سنة، وهي التي شكلت المسيحية في مصر، ومغروسة فيها قبل دخول عمرو بن العاص، وهي التي خلقت العداوة الثابتة بين حزب الوفد ممثل الوطنية المصرية وبين الاخوان المسلمين الذين لا يعترفون بالوطنية، ولا يرون رابطة غير الاسلام، وينظرون الى مصر وشعبها ليس ككيان متميز ولكن كجزء من الامة الاسلامية حيث الاسلام يجُب ما قبله.

الحركات الاسلامية والقومية من بعدها فشلت في تجاوز هذه العقبة، فالمصري العادي مستعد للموت في سبيل الله، وفي سبيل اخوته في المعتقد، ولكنه غير مستعد لتعريض مصر لخطر يأتيها عن طريقه أو يساهم في صنعه، فاذا اختلطت عليه الأمور، كما هو الحال، عندما يقع التصادم بين ما يراه مصلحة مصر، ومصلحة امة محمد، ويصبح غير قادر على الاختيار فانه يفضل الانسحاب من الامر كله.. المشكلة انه يرى مصلحة مصر من وجهة نظر الحاكم الذي يراه تجسيداً لمصر نفسها. وهو معتقد راسخ منذ كان «الفرعون» هو الحاكم، وهو الاله الواجب الطاعة في كل حال، وهذا هو مدخل الفساد السياسي حتى قيل: «ان مصر تُفسد حكامها» وهو قول صحيح إذا نظرنا اليه من زاوية السلطات المطلقة التي مارسها حكامها على مدى التاريخ.. والسلطة فساد، أما السلطة المطلقة فهي فساد مطلق.

كانت فتنة الربيع هي البذرة الخبيثة التي تعهدها النظام طوال بقية العام، ليتخذها الذريعة التي يثبت بها خطورة الجماعات الاسلامية «على

سلامة الوطن».

وما ان بدأ العام ١٩٨١ حتى كانت مصر كخلية النحل الهائجة التي تطن بالشائعات حول السلاح الذي يصل الى الاقباط من امريكا رأساً، وعن إتصال مباشر بين «البطرخانة» وبين واشنطن يومياً وعن طريق الراديو.

وعن سلاح يصل الى «الجماعات الدينية من ليبيا»، ومعسكرات تدريب أقاموها في الصحراء الغربية.. وعن دعم ماروني قادم من لبنان، حيث تعمل ميليشيا من الأقباط المصريين في صفوف الكتائب، لتكتسب خبرات تعود بها الى مصر، عندما تحين الساعة الحاسمة.

الغريب أن أجهزة الدولة وبالذات وزارة الداخلية كانت تتولى صك الشائعات وتوصيلها الى من يهمهم الأمر، وشهدت مصر حرب مناشير كريهة، ومفعمة بالبغضاء العنصرية. والغريب ان الاهرام الوقورة نشرت بعض هذه السموم على صفحاتها بالنص، مدعية أنها فعلت ذلك فتحاً لباب مناقشتها، والهجوم عليها وعلى مثيري الفتنة، ولكنها في الواقع كانت تزيد انتشارها، وتعمم خطرها. ويصر بعض الاسلاميين ويؤكد قولهم كثير من الأقباط، ان هذه المناشير أو معظمها كانت تطبع بمعرفة «المباحث العامة وتوزع بواسطة مخبريها»..

يدخل العام ١٩٨١ بشتاء جليدي على مصر، جمد العلاقات بينها وبين جميع الأشقاء، ما عدا الشقيق محمد جعفر النميري.. وجمد العواطف بين ساكن قصر عابدين وساكن البيت الأبيض، فالمستر ريغان الرئيس الأميركي الجديد، يرى السادات تركة ثقيلة، خلفها له سلفه كارتر، فلا داعي لمجاملات، ولا بأس من التخلص من عبء عميل استنفد أغراضه، وفاحت روائح فساده. وقد شعر «المؤمن» بذلك التبدل ـ قلب المؤمن دليله ـ وتذكر ما حصل لصديقه شاه ايران على يد الصديق الامريكي.

أيضاً هناك الحليف بيغن الذي مرمغ بالطين وجه «بطل العبور» وصانع الحرب والسلام.. فقد رفض النقاش في قضية الحكم الذاتي، وأعلن ضم القطاع والضفة والجولان. وفي النهاية، أعلن القدس عاصمة

أبـدية للكيان الدخيل.. وعامل السادات باستصغار مهين، ورفض أي تدخـل أو تعليق حول هذه القضايا الجوهرية من «البطل» الذي أصبح «هفيه» وهدفاً للمسـخرة والنكت القبيحة.

وكي يثبت جدارته أمام أصدقائه الجدد، كحاكم قوي، لم يعد أمامه سوى ضرب الحركات الاسلامية.. وكي يسحبها للمواجهة في الشارع، كان عليه أن يلعب بورقة «الفتنة الطائفية»، فيثبت عليها انها خطر على الوحدة المقدسة، وتهديد لسلامة مصر.

في هذه الفترة، امتلأت القاهرة بمنشور غامض المصدر، مليء بالسب في الاسلام والمسلمين، وأعيد طبعه في منشورات نسبت الى الجماعات الاسلامية في الأزهر، مع ردٍ عليه... وأعيد طبعه مرة ثالثة في نشرة نسبت الى الجماعات الاسلامية في الاسكندرية مع رد ثالث عليه.. واتضح فيما بعد أن جماعات الأزهر والاسكندرية لا علاقة لها بالنشرات والردود، التي وزعت باسمها في مصر كلها.. فمن الذي كتب ونشر ووزع مثنى وثلاثاً؟

لا يوجد أي رد.

ينتهي الشتـاء والربيـع، ويدخل صيف القاهرة الجهنمي، وخطاب السبـاب في الاسلام هو حديث الناس الغاضبين.. من الغلاء، وزحمة المواصلات، وأزمات الزيت والسكر والخبز، وانفجار المجاري، وانقطاع الكهرباء، وسرقات «السادات وحرمه».. وبقية العصابة الحاكمة.

أي شيء ممكن أن يحدث بالقاهرة في مثل هذا الجو الخانق، الذي لا يتخيل وطأته إلا من عاشه. وقبل أن تدهمنا الأحداث لنلقي نظرة على الخطاب المكيدة، والمفروض انه موجه من «مسيحي مصري» الى «مسلم مصري»:

«ان هذه العقيدة الاسلامية التي تدعو للسخرية، والتي تكبت المرأة، وتقيد الجنس، ليست إلا جريمة ودماراً، بعضه فوق بعض....

انها سبب التخلف في الشرق الأوسط، وكل الكوارث التي وقعت فيه، وسبب الجمود الذي تعاني منه كافة الشعوب الاسلامية.

انها عقيدة الضوضاء التي تصم الآذان، والقيام الاجباري في عز الليل، بالميكروفونات، ودقات الطبول..

انهـا عقيـدة السرقـة، والفسـاد، والتـلاعب في التسعيرة الجبرية، والرشوة.. هذا هو ما نسميه تطبيق الشريعة، واقامة المجتمع الاسلامي.

ولعلك تعلم أن أسيادك الأقباط ينظرون اليك بسخرية واحتقار كلما شاهدوا واحداً من مشايخكم يهرول وعمامته تميل من اليسار الى اليمين، وكأن رأسه مثقلة بحمل لا يمكن احتماله.

فهل يمكن لثمار مثل هذه الديانة المثيرة للاحتقار ان تصمد طويلا؟

الآن ، وبعد توقيع اتفاقية « كامب دايفيد »، فإنني أعتقد أن نهاية الإسلام باتت قريبة ، وكذلك عودة مصر الى المسيحية .

إنه أنتم أيها الناس الفاسدون ، الذين أفسدوا الحياة الدنيا والآخرة» .

هذه اللغة السقيمة أقرب لتحرير المحاضر التي يدبّجها الشاويشية في الأقسام ويتبرأ منها الشعب القبطي المثقف ، وتُنشر باسم الجماعات الإسلامية من دون معرفتها ، فلا تدع أمامنا سوى احتمالين :

الأول : وزارة الداخلية ، ووزيرها عديم الأخلاق بدرجة فوق عادية ـ حتى بالنسبة لوزير الداخلية ـ فالرجل جنّد مجموعة من البلطجيين والمهيجـين ، للاعتـداء البـذيء على خصوم العهد ، وإثارة الشائعات حولهم ، وتعطيل نشاطاتهم واجتماعاتهم . هذه الجماعات ستظهر وتقوم بدور شبه علني في الأحداث الطائفية نفسها عندما تفجرت . وعلى هذا الأساس لا يستبعد أن تكون هذه الجماعات هي التي فبركت الخطاب ليكون الفتيل الذي يشعلون به برميل البارود .

الثـاني : عملاء الصهيونية الذين اخترقوا المجتمع المصري ، بعد الصلح ، وعن طريق السفارة الإسرائيلية ، والسفارة الأمريكية ألف مرة

في شهـر مايو تبدو القاهرة ككائن خرافي مرهق يعاني من ضيق في التنفس يجعله نافد الصبر ، وكان السادات نفسه يعاني تلك الحالة ، ولم يعـد يطيق أحداً ممن حوله ، ولا يحترم لهم رأياً ، ولا يقبل منهم موقفـاً ، وعنـده حق ، فقد تخلص من ، أو خلّص على كافة الكفايات السياسية والإعلامية والإدارية والعسكرية ـ اسماعيل فهمي، وابراهيم

كامل، ومحمد حسنين هيكل، ومجموعة الفريق أحمد بدوي ـ ولم يبق على المزاود إلا شرّ البقر . صدّق نفسه أنه بطل وأنه فرعون ، وقال: « أنا وجمـال آخـر الفراعنة ». وصدّق الإعلام الغربي الذي نفخه كبالون، وبطريقة جعلته يتجاوز خط الخيانة ، وهو يبتسم أمام العدسات .

أصبـح مدمناً على عبادة صورته ، كـ « شجيع السيما » الذي لا يهاب ولا يتردد في اقتراف أي محظور ، كي يسرق الكاميرا ، ويخطف الأضواء .

في هذا الجـو الدبق الذي تعيشه المدينة ويطبق على صدر حاكمها تفجرت حوادث «الزاوية الحمراء».

من الذي أشعلها ، وكيف أشعلها ؟!

لن تجد إجابة مقنعة، ولن تسعفك لا حقائق، ولا وثائق، فأنت أمام عملية من عمليات « العباءة والخنجر » التي تخفي جميع حقائقها، بل تعتبرترتيبات التغطية أهم وأخطر من نجاح المهمة نفسها . مثلاً حتى يومنا هذا ، لم نعرف من الذي أو من الذين أحرقوا القاهرة في ٢١ يناير ١٩٥١ ، هل هو الملك فاروق ، أم الانجليـز ، أم الحزب الاشتراكي ، ولكننا نعلم أن الحريق أدّى لنزول الجيش الى الشوارع، وإعلان حالة الطوارىء، وإسقـاط الوزارة الوفـدية . والأهم من ذلك إيقاف الحرب الفدائية ضد القوات البريطانية في منطقة قناة السويس ، وحل جميع معسكرات التدريب فيها ، والقبض على قياداتها . فالجريمة السياسية ترتكب تمهيداً لجريمة سياسية أكبر .

الوضع اللئيم نفسه سيواجهنا بعد ثلاثين سنة من حريق القاهرة عام ١٩٥١ ، فالفتنة الطائفية في «الزاوية الحمراء» راح ضحيتها المئات من الأبـريـاء، والأمن المركزي واقفٌ يتفرّج على المجزرة، والفاعل ما زال مجهولاً. أما النتيجة، فكانت إظهار الحركات الإسلامية كخطر على وجود مصر، ومن ثم تدمير عناصرها وهياكلها بالكامل.

سيقولون لك إن المذبحة التي وقعت بين الأقباط والمسلمين في يونيو ١٩٨١ ، تفجـرت بسبب قيام بعض الشباب القبطي ببناء كنيسة على قطعة أرض استولوا عليها «الزاوية الحمراء» مما أغضب أهل المنطقة

من المسلمين، فهاجموا المكان ، وردّ عليهم المسيحيون « وولعت ».

هذه على أية حال رواية الحكومة المشبوهة ـ موسى صبري يقول انها وقعت بين النسوان أولا بسبب الخناق على نشر الغسيل ـ ولكن من يصدّق «موسى» عميل «فرعون» ؟

المؤكد أن الحي الذي يعتبر من أسوأ أحياء القاهرة، وأشدها فقراً، شهد منذ شهور ـ قبل الأحداث ـ نشاطاً مريباً لغرباء يدعون أنهم من «الحزب الوطني» ، وهو الحزب الذي يرأسه السادات ، وأن هؤلاء الغرباء كانوا يقدمون بعض الخدمات لبعض الأهالي، خاصة لمن كانت لهم مشاكل مع البوليس، وانهم ـ هؤلاء الغرباء ـ على صلة قوية بوزير الداخلية النبوي اسماعيل، كما اتضح من حديثهم الدائم عنه. ومن المعروف أن النبوي جنّد جيشاً من البلطجية والمهيجين لاستخدامهم في العمليات الوسخة خارج القانون ـ أثناء المجزرة التي ألقي فيها الأطفال الرُضع من النوافذ لتتناثر أشلاؤهم نِتفاً على أحجار الأرصفة، والتي ارتكب فيها الطرفان من الفظائع ما يخرجهما من نطاق الإنسانية . اتصل كثير من الأهالي بالبوليس وبالداخلية، فحضرت قوات الأمن المركزي، بالمدرعات والهليوكوبترات، ولكن لتحاصر المنطقة وتغلقها تماماً على من فيها، دون أن تمد اصبعاً لوقف الجرائم وحماية الأرواح ومنع النهب ، تاركة الأمور على راحتها، وحتى تعب المتذابحون وتوقفوا وحدهم، وهنا دخل الأمن المركزي الذي لم تتعفر أحذيته اللامعة، دخل يحصي القتلى، ويقبض على أصحاب الأسماء المكتوبة في قوائم جاهزة معه، وكلها لأعضاء في التنظيمات الإسلامية .

الظاهرة الغريبة الأخرى، انه خلال المذبحة، وأثناء الحصار، شوهد أفراد مجهولون، يطوفون بأحياء القاهرة الغاصة بالانفعالات، وهم يحملون رسائل استغاثة موجهة من المسلمين في «الزاوية الحمراء» لنجدتهم بالسلاح من النصارى، ورسائل معاكسة موجهة للمسيحيين تطلب النجدة المسلحة لإخوانهم في الدين بالزاوية الحمراء.

فمن كتب هذه الاستغاثات التي كانت معدة سلفاً؟

وهل كان مطلوباً أن ينهض كل أهل القاهرة على بعضهم بالسلاح، فلا

يبقى أحد فيها يعطل قطار الصلح؟

إن أي تجاهل للرابط الزمني والنفسي بين كامب ديفيد وتحريك الفتنة الطائفية في مصر، يدل على جهل تام بالواقع المصري، وبالانسان المصري سواء قبطياً كان أو مسلماً، والجاهل يمكن التماس العذر له.. ولكن هذا الفصل بين الحدثين يتم عن قصد لئيم، وبسوء نية، حتى نبقى أطول فترة ممكنة بعيدين عن معالجة الداء من جذوره.. فهذا الصلح ومن خططوا له ونفذوه، سيبقى محرك جميع الشرور التي بدأت تفتك بمصر وأهلها.. ليس فقط الطائفية، بل تفشي المخدرات والعقاقير، والتفسخ الخلقي، والفيديو الجنسي، وشبكات التجسس والتهريب والجريمة المنظمة والأدب المتعاطف مع الصهيونية، وأخيراً تدمير الاسلام والمسيحية معاً، مرة واحدة، وللأبد.

إن ما يحدث في مصر، بعد كامب ديفيد يحتاج الى رصد وتحليل، فهذا التفسخ البطيء في كل مناحي الحياة المصرية، يتم وفق برنامج زمني طويل المدى، وبفعل يد تعودت تحريك الدمى من وراء ستار.

٤

تنظيم الجهاد

الهروب الى عالم غير موجود

الوضع كله زفت. السادات جُنَّ.. جَنَّنتهُ السلطة وما بدا كأنه خنوع تاريخي لشعب صبور بلا حدود.

قَبَض النبوي اسماعيل على قيادات الجماعات الاسلامية، وبدأت مطاردة واسعة لعناصرها في كل المحافظات، وجاء سبتمبر ١٩٨١ والجو مكهرب تماماً. كل الأطراف تتوقع شيئاً ما.. سمفونية العنف ما زالت ناقصة، تحتاج الى حركتها الأخيرة «فينالي».. تلك الجملة التي تحمل طابع المؤلف.. توقيعه المميز.

وبالفعل انقضت عناصر المباحث العامة ومباحث أمن الدولة والأمن المركزي لتقبض على كل رموز مصر من أقصى اليسار الى أقصى اليمين، من الأقباط ومن الاخوان المسلمين.. عمر التلمساني وفؤاد سراج الدين وصلاح عيسى ومحمد حسنين هيكل وقباری عبد الله والشيخ كشك والشيخ المحلاوي.. أما البابا شنودة فمنذ أحداث «الزاوية الحمراء» وهو منفي في دير وادي النطرون. وخرجت الصحافة العالمية تستغرب ما بدا لها أمر لا يصدق.

حاكم يسجن كل فئات شعبه!! وشاهدنا المؤمن على شاشات التليفزيون في حالة سعار كامل يهاجم الإعلام الغربي الذي تخلى عنه وبدأ يدينه. أمّا الإعلام المصري والصحافة المصرية فسمت ما حدث «ثورة سبتمبر».

في لندن كنت متعباً، أرى الدنيا من خلال ضباب انجليزي كثيف،

ووصلت لقناعة أننا جيل ملعون، قدر عليه أن يتعذب بأحلامه وحكامه.. وأن سعد باشا عندما قال لأجدادنا: «ما فيش فايدة» إنما كان يعنينا.. وأنه إذا كان هناك أمل فسيكون في جيل قادم بعدنا يجب أن نعده ليكون أقوى منا.. أفضل منا.

وعند أول فرصة قفزت من قطار صحافة الكبار، لأساهم في مشروع خلاب لصحافة وكتب الأطفال، وأخذنا نحلم أنا ومحمد الخنيفر بنوع أسطوري من الرسوم والكتابات، تساهم في تكوين «الفتى المسلم» الملائم لعصر «الكومبيوتر» القادر في الغد على إعادة البناء وتصحيح الأخطاء، وان هذا العمل وليس أي عمل آخر هو أفضل وأنبل ما يقوم به صحفي في دنيا المسلمين التي دب فيها الخلل، وتهددها الفناء.

بهذا اقتنعت حتى الثمالة، واعتبرته طلاقاً بائناً من الصحافة كما عرفتها طوال ربع قرن نصباً وإحتيالاً وضحكاً على الذقون. وفي المرة الوحيدة التي قمنا فيها بإنشاء مجلة تقاتل السادات من أجل مصر، تقاتلنا نحن، وفي النهاية سرقناها، وتركنا السادات يقتل مصر.

هل كان يأساً وهروباً من معركة قائمة وحالية، بترحيلها الى خانة المستقبل؟

ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن العمل من أجل قضية مصر الساخنة، ومن لندن في ذلك الوقت كان مستحيلاً، فجميع المنابر الصحفية كانت مؤيدة ضمناً أو موازية لسياسة السادات.. حتى «العرب» حينها كانت صحيفة غامضة لم تفصح عن خط هجومي مخلص، أو نبرة واضحة حتى جاء «الحاج أحمد» بعد ذلك ليركلها، فتضع أقدامها على الأرض، ورأسها في السماء، ولكي تنطق بالعربية ولو كانت مكسرة نحوياً.

فكرت في العودة الى أرض القضية، وتسليم رقبتي للمدعي الاشتراكي الشهير «أنور أبو سحلي» ليسحلني وليكن بعد ذلك ما يكون، ولكن المشكلة ان الباب الوحيد المفتوح للذين قالوا: «لا» هو باب «ليمان طرة» والدخول فيه لن يساهم في حل أزمة مصر، بل سيحل أزمة «المؤمن المأزوم» حتى إذا لم أُسجن، ولم يفعل بي شيئاً، سوى أن يعطلني فهو بالضبط يقتلني، فأنا رجلٌ «شقاوي» أحصل على لقمتي يوماً بيوم، ومعلق

برقبتي أفواه وبطون كثيرة أنا المسؤول عن ملئها.

عموماً كان العمل للأطفال يرضي حلماً قديماً من أحلام الشباب ما زال معششاً في القلب، وليس أجمل من العيش في الأحلام عندما تشتد حول مراكبنا أعاصير الكدر. ونسيت كل شيء وعدت للحبر الشيني والألوان والأوراق، والشخصيات الزكية المرحة تتطاير حولي في شقاوة وعيونها تبرق بالفرح والدهشة، وألسنتها كالدبابيس. كنت أتقمص طفولتي مع عفاريت حارتنا.. في «شارع حبيشي.. واللي يعادينا مين؟؟ نضرب بالسكاكين.. واللي يعادينا مين؟».. يا إلهي كم أحب العمل للأطفال. قال لي «الخنيفر» يوماً بدفقة مخلصة:

«لقد ضيعت كل ما مضى من عمرك.. هذا هو أنت.. هذا هو وجودك الحقيقي».

كدت أصرخ، وأنفجر باكياً، فها أنا في السابعة والأربعين، ولم أعرف لي موقعاً بعد.. وعلى كثرة الأعمال التي سفحت فيها عمري وباخلاص، فانني لم أقتنع بأي منها.. فما معنى أن تقيم مؤسسة صحفية في تركيبة سياسية لا تسمح للصحافة أن تتنفس الا بأذن المتسلطين ـ صغار المتسلطين ـ ؟؟ ما قيمة أن تكتب كل شيء إلا الحقيقة؟؟

في مجلة «سلطانة» رسمت الأبطال، وسخرت من الأشرار، عدت أضحك مع شخصياتي وأتكلم مع نفسي، عدت لذلك الجنون اللذيذ الذي يرفعك لعالم فوق العالم، كأنك من عباد الله المبرشمين بالماكسفورت.

في عز هذه الحال.. وأذكر بالتحديد أنني كنت بغرفة المكتب، بشارع «كانبري بارك رود» أجهز سيناريو عن عنترة بن شداد العبسي وأخيه «شيبوب» عندما كانا طفلين تحت العاشرة يملآن البادية بالرمح والصراع يعكران صفو العقارب في شقوقها، ويفزعان العفاريت تحت الأرض.

«ترموس» الشاي أمامي، والراديو مفتوح بجوار أذني، وكل شيء تمام، فالبيت ساكن والمرأة حامل في شهرها الأخير، ودقت «بغ بن» الساعة الخامسة، وانطلق المذيع يقرأ عناوين النشرة، لم أهتم فمزيد من الاضرابات، وإرتفاع أعداد العاطلين عن العمل.. وحوادث اغتصاب الأطفال.. ولكن لفت إنتباهي كلمات «القاهرة» .. «إطلاق رصاص»..

«أخبار لم تتأكد عن إصابة طفيفة للرئيس السادات».. كاد نبضي نفسه أن يتوقف.. ولم يخالجني أي شك في المسألة أكبر من مجرد «إصابة طفيفة» فالطاغية إنتهى.. إنزاح الى الأبد، كان شعوراً يقينياً لم يكذبني قط.. وأخذت أقلب محطات «الراديو» وأنا الهث.. الخبر نفسه يتكرر بصيغة الشك.. وبعد ربع ساعة أكد نائب الرئيس الامريكي أن الرئيس السادات سقط قتيلاً برصاص جنود أطلقوا عليه النار في أثناء العرض العسكري الذي أقيم بمناسبة ٦ أكتوبر.

تركت الرسم والكتابة وعالم الأطفال، ورابطت أمام التليفزيون، وحافظت على جهاز «الراديو» بجوار أذني وبدأت أسجل أهم شريط «فيديو» في حياتي.. تابعت فيه كل ما أذيع حول إغتيال السادات في جميع القنوات.. الأخبار، والتحليلات، والتعليقات المصورة في «القاهرة» وحول العالم، وعلى مدى أسبوع كامل.

لم أكن أصدق حواسي فأخذت أعيد شريط الفيديو لاشاهده مرة ومرات، كي أتيقن أن ما حدث كان واقعاً وليس مجرد أمنية أحققها بعين الوهم.

لم أتوقف عن تشغيل الفيديو ولا عن مناقشة الحادث وخلفياته والاحتمالات القادمة على مصر مع نفسي ومع الآخرين.

الأخبار تأتي متقطعة والربط بينها مستحيل:

* «نائب الرئيس أصبح رئيساً».

* «الذين قاموا بالاغتيال من «الجماعات الاسلامية» المتطرفة، التي أدمنت الارهاب، وخربت البلد وأخيراً اغتالت «الرئيس المؤمن»..»

* «الفريق ابو غزالة يهدد بشنق الجناة في أعمدة الشوارع والميادين العامة».

* «التنظيم اسمه «تنظيم الجهاد» وهو يعمل لقلب النظام».

* «تم القبض على المئات من عناصر التنظيم وصودرت ترسانات من الأسلحة خاصة في محافظتي «أسيوط» و«المنيا» في الصعيد».

* * *

«ديفيد هيرست» و«باتريك سيل» و«ايريك رولو» يكتبون عن مصر، وأحيـاناً من مصر. الكل يتذاكى، ويتغابى في نفس الوقت، ويدس على الاسلام والحركات الاسلامية، ويبدون أعظم الدهشة للبرود الشامت الذي قابل به الانسان المصري قتل السادات وكيف قاطع أكبر شعب جنائزي في التاريخ جنازة «الفرعون الأخير».

إنزعجت للسرعة الضوئية التي غير بها بعض الكلاب طبقة نباحهم، وكيف إستـداروا بأنيابهم ينهشون جيفة سيدهم الذي كانوا بالأمس يعضون خصومه، ويقعون على مؤخراتهم وذيولهم بين أفخاذهم يتابعون أية اشارة من اصبعه.

كم هي مهينة مهنة الصحافة في هذا الزمان!

بل كم إمتهناها نحن جيل «الكومبارس» و«المشاعلية» و«البلانات»! ها هو صلاح جاهين رسّام مرحلة التأميم وأمجاد الوحدة وشاعر «اخواني.. هيه» و.. «والله زمان يا سلاحي.. إشتقت لك في كفاحي إهتف وقول أنا صاحي.. يا مجد والله زمان».

الحساس الذي حفظنا له:

القمـح مش زي الذهب.. القمـح زي الفلاحين.. عيدان ضعيفة.. جذرها مغروز في طين.. زي إسماعين.. ومحمدين..

ورباعيته التي جرحتني:

دخل الشتا قفل البيبان عالبيوت..

خلّى شعاع الشمس أوهى.. من خيط عنكبوت..

حاجات كثير بتموت في ليل الشتا..

لكن حاجات أكثر بترفض تموت..

عجبي

الرجل الذي تصورت إخلاصه لعهد عبد الناصر نابعاً من إخلاص الفنان لريشته، وكلمته وتراب وطنه.. ولذلك أبقيت له مساحة عريضة من الاحترام، رغم الخلاف الكامل في الرؤيا، والموقف من المرحلة الناصرية.

رحـل عبـد الناصر عن عالمنا، وجاء بعده السادات.. عهد مختلف، ومـوقف مختلف ونهـج وصـل لخيـانة مصر نفسها، مصر اسماعيل،

ومحمدين.. مصر الغلابة المنضامين.

ورغم ذلك وجدنا صلاح جاهين يرسم مصر يومياً في «الاهرام» وهي تحضن السادات وتهنئه وهو يبيعها بالجملة والقطاعي.. لقد شارك في زفة «المقاسيم» وإرتضى دور «الغايش» وإستفاد مادياً بدءاً من «خللي بالك من زوزو» وحتى «الزغـرودة» التي أطلقها في عودة «الريس» من رحلة «شالوم إلى اورشليم».

سقـط الصنم، واستعضنا الله في حبنا الذي منحناه وكان السقوط مؤلماً لنا ـ وليس له بالتأكيد ـ وأيضاً كان عاماً كالتفسخ الرمي «توفيق الحكيم»، «نجيب محفوظ»، «الحسين فوزي»، «صلاح عبد الصبور».. تماماً مع «ميمي شكيب»، و«زيزي مصطفى». كان عصراً غريباً مفجعاً وقلنا لعله خير، وجزى الله الشدائد فهي التي تفرز الخبيث من الطيب، وقد عرفنا كم كنا مضحوكاً علينا.

الآن إنقتل السادات، هي إرادة الله وحكمه وحكمته اقتضت أن ينفذ القصاص علناً، وبهذه الصورة كي تنفض مصر عاره وفُجره وكفره عن رأسها. وفي تلك اللحظة المهيبة والجليلة يظهر مهرج السلطان المغدور، ومداحه الأول صلاح جاهين ليسب سيده، الذي لم يبرد دمه بعد، تحت بلاطه الاسمنتي.

صلاح جاهين، يقول عن السادات، إنه كان مثالاً للفساد والكذب.. وان ما فعله ليس إلا دعارة.

ايه؟؟

دعارة.. قلنا.. دعارة.

ان الله لن يغفر لي أنني عشت الى هذه اللحظة دون أن ألعنها وألعن نفسي وألعن النفاق وأرض النفاق الى يوم يبعثون.

في صبـاح اليـوم التـالي أبلغت الزميـل محمد الخنيفر أنني بطّلت «صحافة أطفال» وقررت أن أصدر صحيفتي الخاصة ولو بعت هدومي.

تحـدث معي بالتليفـون، لم يكن مصدقاً ما أقوله. وفي المساء كان عندي بالمنزل يناقشني في القرار الغريب والمفاجيء. كيف أنني بالأمس كنت أرى المهمة الوحيدة والجديرة بالتفاني فيها هي صحافة الأطفال

فهي الأمل في حل أزمة الأمة، وخلاصي من أزمتي الشخصية.

قلت له إن مصر أصبحت مسرحاً للعبة كبيرة وأنا شخص عجول بطبعي ولن أتحمل الصبر على عمل سيصدر بعد سنة وستظهر نتائجه بعد ثلاثين سنة:

ـ وحلني بأه.. حتى يصبح أطفالنا الذين نتوجه لهم اليوم، رجالاً في الغد، ويتسلموا الأمانة، ويصلحوا الأحوال.

ـ غير معقول.. لا بد أن هناك شيئاً حدث في رأسك، أو في رأسي.

ـ طبعاً ما حدث هو شيء، لن تستطيع تقدير خطورته بالنسبة لرأسي.. هل رأيت صلاح جاهين في برنامج بانوراما، أمس؟؟

ـ لا.

قالها وتركني وهو متأكد أنني إن لم أكن مجنوناً فإنني على الأقل شخص «مش طبيعي» وأعتقد أنه على حق.. فالمرحلة نفسها ليست طبيعية.

الفريضة الغائبة بفعل فاعل

تربة مصر، وهي ثرية سخية، كانت تقلب عاليها واطيها بمحاريث قوية السلاح، تجرها أكتاف شابة غاضبة، فقدت الايمان بالماضي ووجهت عنفها للحاضر، وأخذت تبذر في الأرض الجاهزة أفكارها الخاصة وبسرعة مقلقة..

جماعة صالح سرية تقوم ببروفة الانقلاب العسكري عام ١٩٧٧ وتفشل ولكنها تترك اثرها في ذاكرة الشباب الذي قرر ان يتعلم على حبال المشانق، ومن خلال التجربة والخطأ..

مصطفى شكري يخوض تجربة «مجتمع المسلمين» وينتهي النهاية الشكسبيرية نفسها على يد المجتمع الذي كفره.

الجماعات الاسلامية تتمكن من السيطرة على الجامعات على أمل أن يتخرج من بينهم الجيل الذي سيحكم مصر ويحقق الحلم الاسلامي، ولكن النظام الذي لعب معهم وبهم، عاد وانقلب عليهم وسجن قياداتهم وطارد قواعدهم.

جماعة التلمساني تبادلت المصالح مع العهد، وتقيدت بالقانون والشرعية، وفوجئت بفرعون يدوس القوانين والشرائع كافة ويرتكب الخيانة علناً، ويخرج على العروبة والاسلام.

الشيخ كشك يهاجم فساد حكم الجيش ويهاجم «الرئيس» وبطانته وزوجته التي رقصت مع كارتر ويمرمغ في الطين عائلته التي افترت، ونظامه الذي فرط في أرض الاسلام.. و.. الخ.. وأصبحت مصر تتحدث بما يقوله كشك.. وكشك يعبر عما تضمره مصر.. خطبته يحضرها الألوف.. وكاسيتاته تباع في السوق السوداء وبالملايين.

واذا كانت القاهرة عندها عبد الحميد كشك فإن الاسكندرية عندها الشيخ عيد وأيضاً الشيخ المحلاوي. الأخير بلغ غيظ السادات منه حداً تخطى الأدب، فعندما قبض عليه في «هوجة سبتمبر» العشوائية ذكر اسمه في خطبته المشهورة المسعورة وقال:

«الشيخ المحلاوي بتاع اسكندرية، راخر بيقل أدبه!! أديني قبضت

عليه، وأهو مرمي في السجن. زي الكلب. انا مش حرحم».

الكلمـات الخمس الأخيرة «زي الكلب.. أنا مش حرحم»، كانت من حيثيات الحكم باعدام السادات، فقد أجمع الاسلامبولي ورفاقه الأربعة على أن هذه العبارات بالذات أثبتت لهم أن المؤمن لا يحترم الدين ولا العلماء الشجعان وأنه تصور نفسه إلهاً «مش حيرحم».

في هذا السديم من الغبار والأفكار، بدت مصر كأنها إحدى الشموس الكبيرة إنفجرت وانطلقت أشلاؤها يبحث كل منها عن مدار يستقر فيه، ويجذب اليه غيره من التائهين المصدومين المتصادمين.

واحد من هؤلاء، كان المهندس محمد عبد السلام فرج الذي تخرج من كلية الهندسة بجامعة القاهرة واشتغل في الجامعة نفسها، وكانت ميوله الدينية واضحة منذ صباه الذي قضاه في بلدته الدلنجات، وعندما وصل الى القاهرة وجد نفسه مندمجاً في الجماعات الاسلامية التي كانت كليته أحد معاقلها من زمان. وفي هذه المرحلة، قرأ «معالم على الطريق»، ومجمـل مؤلفات سيد قطب الأخرى، وقرأ أبا الأعلى المودودي ونظرية الحاكمية لله. وكذلك مذهب التوحيد كما قال به محمد بن عبد الوهاب وعاد الى الوراء ليقرأ إبن تيمية ويتأثر به لاقصى حد.

قراءة متأنية لما كتب تظهر أيضاً بصمات كتاب «القتال في الاسلام» للشيخ أحمد نار.

هذا في مجال النظرية، أما على الصعيد العملي، فقد إستولت على لبِّه حركة «الفنية العسكرية» بقيادة صالح سرية، وقرر وضعها كدليل عمل له، فركز على فكرة الاستيلاء بالقوة على الحكم بانقلاب ناجح، وإقامة الدولة الاسـلاميـة أولا، ثم دعـوة الناس في مَرحلة لاحقة، فالله يزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن.

لقد إستعرض شريط الفشل الطويل:

إغتيال المرشد المؤسس حسن البنا عام ١٩٤٨.

شنق قيادات الاخوان بالجملة على يد رجال الثورة عام ١٩٥٤.

شنق سيد قطب عام ١٩٦٦.

شنق صالح سرية عام ١٩٧٤.

شنق شكري مصطفى عام ١٩٧٧.

مع كل ما صاحب ذلك من اعتقالات وتعذيب، وتصفيات بدنية داخل الزنازين.. ولا حل لهذه السلسلة من المذابح الا بتشكيل قوة ضاربة، تأخذ النظام على غفلة فتصل هدفها من أقصر الطرق، لا تكفير ولا هجرة ولا انتظار لتخرج الجيل المسلم، فكل ذلك جربناه ولم ينفع، والخميني قام بالثورة ومن خلال الكاسيت ومظاهرات الشوارع، طارد الشاه وطرده وأسس دولة الإسلام.

في العام ١٩٧٧ كان محمد عبد السلام فرج يتحرك في أوساط الحركات الاسلامية التي نزلت حينها للعمل تحت الأرض، ووجدت ضالتها في الأحياء الشعبية التي تحيط القاهرة بحزام من الفقر الفظيع، حيث عشش الاهمال والاحباط والفقر والمرض.. وحيث لا وجود للتخطيط ولا الخدمات ولا الحكومة.

كان مهندسنا القلق يسكن في واحد من أكبر هذه الأحياء، وأكثرها تدهوراً وهو حي «بولاق الدكرور» الملاصق لحي العجوزة الراقي، والذي يقابله على شاطىء النيل الشرقي، حي الزمالك الشهير بمشاهيره والذي يدفع سكانه جنيهاً كاملاً ثمناً لرغيف الخبز، ويصدر لهم المذبح لحم «البتلو» و«الضاني الحولي» فقط، ويصدر لهم وحدهم سوق روض الفرج كل ما يصله من فاكهة «نخب أول» وحيث يوجد «نادي ضباط الجيش الظافر» الذي قامت منه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م من خلال تصعيد كوميدي لاحداث انتخابات مجلس ادارته.

لقد سكن محمد عبد السلام فرج في شقة يملكها أصهاره، وإشتغل كإمام هاو في مسجد عمر بن عبد العزيز، وهو مسجد أهلي أقيم على نفقة اسرة زوجته المستورة. ومن خلال خطب الجمعة، والدروس الدينية التي يلقيها «الباشمهندس» المسلم، وهي خطب ودروس غير تقليدية، تعكس قراءاته، وتعبر عن أفكاره، وتركز على الكارثة التي حلت بالاسلام على يد الحكام، وتندد بتقاعس المسلمين وخنوعهم الذي اذلهم لاعدائهم.. ولا حل لتغيير هذا الحل إلا بتغيير المسلمين لواقعهم، فالله لا يغير ما بقوم،

حتى يغيروا ما بأنفسهم، والتغيير المنشود لا يأتي إلا بإعلان الجهاد.
الجهاد هو الفريضة الغائبة.. وغيابها ليس سهواً.. بل تم بفعل فاعل.

انها فتوى للقتل

لم يتـرك لنا شكري مصطفى و«مجتمع المسلمين» الذي شكله أي أدبيات أو مؤلفات فكرية سوى الحوارات المطولة التي جرت بينه وبين أعضاء المحكمة العسكرية. ويبدو أن التنظيم إكتفى بتطبيق حرفي لما ورد في كتـاب سيـد قطب «معالم في الطريق» والذي حدد مرحلتين بارزتين لاقامة مجتمع المسلمين.

مرحلة الاستضعـاف: وفيهـا يترتب على المؤمنين، إقامة مجتمعهم الطاهـر، واجـراء «المفـاصلة الكاملة» مع «المجتمع الجاهلي» وحكومته الكافرة، والهجرة بعيداً عنه كما هاجر النبي وأصحابه من مكة الى يثرب.

مرحلة التمكن: وعندها يصل المجتمع الاسلامي الى درجة يستطيع فيها منازلة «الجاهلية المعاصرة» وإزالتها وإقامة الدولة الاسلامية التي تحكم وفق الشريعة الاسلامية الغراء.

المهندس عبد السلام فرج ـ مهندس تنظيم الجهاد ـ بلور فكره في كتيب صغير، من مئة صفحة طبع منه ألف نسخة بمطبعة أهلية صغيرة في إمبابه وسماه «الفريضة الغائبة» ولكنه عاد وأحرق معظمها بناء على نصيحة عبود الزمر ضابط المخابرات والمسؤول العسكري في التنظيم، على أساس ان توزيع هذا الكتيب على نطاق واسع سيلفت نظر المباحث الى الجماعة، التي لن تصل إلى أهدافها إلا بالسرية المطلقة، وليس بالنشر الواسع.

ولكن ماذا يقول صاحب «الفريضة الغاضبة» في صفحاته المئة التي هزت مصر وأذهلت العالم؟

أولا: هو يختلف مع سيد قطب وجماعة شكري مصطفى في تحليل المجتمع القائم في مصر، فهو ليس مجتمعاً جاهلياً كمجتمع مكة عندما بعث الرسول، فالاسلام في مصر قائم وظاهر ولكنه ليس حاكماً.. والأدلة على ذلك أن المساجد مفتوحة للمصلين من الفجر لما بعد العشاء، والناس يملأونها خمس مرات في اليوم، والتيار الاسلامي هو القوة الصاعدة في الشارع وبالذات بين الشباب في العشرينات، فالجلباب الأبيض واللحية

المرسلة، حلت محل «الجينز» وشعور الخنافس، كما أصبح الحجاب هو الزي الغالب، بين الصبايا والسيدات.

مصر إذن مسلمة القلب تتجه نحو عقيدتها بشوق.

إذن.. أين المشكلة؟

المشكلة تنحصر في حكومتها التي توالي الكافر وتستند اليه ضد شعبها، وتحكم بغير ما انزل الله.

الحكم الشرعي في مثل هذا الوضع، يمكن أن نجده عند إبن تيمية الإمام الذي عاش في ظروف مشابهة في عصر الزحف التتاري، فقد سئل هذا الفقيه عن حكم سكان مدينة ماردين، وهذه المدينة المسلمة تقع على نقطة استراتيجية حاكمة لطريق الحرير، الواصل بين الشام والصين، وجاء التتار وحاصروها، وهددها هولاكو الرهيب بمصير أبشع من مصير بغداد. وأراد حاكمها نجم الدين غازي أن يصالح الوحش التتري، على أن يؤدي له فروض الطاعة، وما يطلبه من خراج.. وأرسل له ابنه مظفر ليكون رهينة عنده حتى تضمن حياة الابن ما تعهد به الأب.

تظاهر هولاكو بقبول هذا الحل، وبرفع الحصار، واستقبل الشاب الرهينة ووجده مخلوع الفؤاد، مهتز العقيدة، ناقماً على أبيه الذي ورطه، ليخرج هو من ورطته.

لم يكن هولاكو بحاجة الى بذل كبير جهد لاغراء مظفر بغدر أبيه نجم الدين وبخيانة أمة المسلمين، فإتفق معه على أن يتسلل مع زمرة من التتار الى داخل ماردين ويغتال أباه، ويعتلي العرش بدلا منه، وسيقدم له المغول كل ما يحتاجه من دعم، على ان يعلن من جانبه الولاء لهولاكو ويقبل منه العرش والصولجان ـ يصبح حاكاً عميلاً!! ـ وقبل، وقتل، وحكم.

أفتى إبن تيمية بأن ماردين ليست دار إسلام، فالذين يحكمونها هم المغول. وهؤلاء ليسوا بمسلمين ولو إدعوا الاسلام، وعدم إسلامهم ناتج من كونهم يحكمون بشريعة وضعها لهم ملكهم جنكيز خان هي خليط من الاسلام والنصرانية واليهودية والوثنية المغولية، وسماها «الياسق» أو «الياسه» ـ أصبحت السياسة فيما بعد ـ ولأن من يحكم بغير ما أنزل الله فقد كفر ـ بنص القرآن ـ وهكذا كفر الذين يحكمون وفق شريعة

جنكيزخان.

لكن ماردين في الوقت نفسه لا يمكن اعتبارها بمثابة «دار حرب» فسكانها مسلمون، فهي حالة بين بين، يتوجب اعلان الجهاد ضد الحكام الذين والوا الكفار وحكموا بغير ما أنزل الله ولكن ليس ضد أهلها من المسلمين.

ترتب على هذه الفتوى عدة احكام تفصيلية منها: جواز قتل كل من قبل العمل مع الحاكم الكافر، أو ساعده على المسلمين بأي صورة من الصور.

ومنها جواز قتل المسلم إذا تترس به ـ إحتمى خلفه ـ كافر، وسيبعث القتيل يوم القيامة على نيته.

ومنها عدم قبول خديعة الكفار وإدعائهم الاسلام حتى ولو رفعوا المصاحف فوق سيوفهم فإن ذلك لا يكف عنهم سيوف المسلمين.

ومنها أن حكم الموالي للكافر، كحكم الكافر سواء بسواء.

يقوم محمد عبد السلام فرج بتطبيق أحكام ابن تيمية التي أصدرها في مؤلفه العظيم «السياسة الشرعية» ويقارن بين الأوضاع في ماردين خلال القرن الثالث عشر الميلادي وبين قاهرة القرن العشرين، فيجد أن التطابق كامل.. فالتتار الجدد هم الصهاينة وحلفاؤهم الامريكيون.. والحاكم العميل. مظفر نجم الدين أصبح اسمه محمد أنور السادات، والشعب المسلم في الحالين واحد، والمطلوب منه أن يزيل بالقوة ذلك النظام الموالي للكفار، والذي يدعي الاسلام، ويحكم في الوقت نفسه بغير ما أنزل الله.

نحن الآن لسنا في مرحلة «التبليغ» داخل المجتمع الجاهلي في مكة، ولكننا في مرحلة ماردين حيث الاسلام موجود في الشارع وممنوع من الدخول في قصر الحكم، والمهمة العاجلة أمام المؤمنين، ليست العزلة ولا السيطرة على الجامعة، ولا مغازلة الحكم، ولا الارشاد والوعظ، بل العمل الوحيد هو قلب نظام الحكم بالقوة، وقتل مظفر وطرد التتار، وإعادة الخلافة التي سقطت في بغداد على يد هولاكو مرة، وسقطت على يد كمال اتاتورك مرة اخرى، وما أشبه اليوم بالبارحة.

كانت نقلة شديدة الجرأة.. بسيطة جداً، ومباشرة جداً، جداً.. ومتى قبلتها ودخلت في زمرتها، فقد قبلت الموت في سبيلها، ووافقت على قتل السادات، ومن تترس بهم لحماية نظامه.

كانت فتوى للقتل.

كتيب محمد عبد السلام فرج لم يأت بجديد في الاسلام. كل ما فعله هو تجميع فتاوي لمختلف الائمة حول فريضة الجهاد، موجها هذا السلاح بالدرجة الأولى نحو الحكام «الطواغيت» الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ووالوا الكفار.. معتمداً بالاساس على فكر إبن تيمية وتلميذه الذي جاء بعده بخمسة قرون محمد بن عبد الوهاب مختلفاً في ذلك مع شكري مصطفى الذي دعا الى نبذ كل الاجتهادات والمذاهب الأربعة والاعتماد فقط على النص القرآني، والاحاديث الصحيحة.. لذلك فإن فكر محمد عبد السلام فرج لم يحظ بتقدير كبير حتى بين أفراد تنظيمه «الجهاد» وسنجد كرم زهدي أمير التنظيم في الصعيد يقول: «كتيب «الفريضة الغائبة» ليس إلا مقتطفات حول موضوع واحد»، وسنجد أيضاً الشيخ عبد الحميد كشك يشن هجوماً كاسحاً على فكر شكري مصطفى ومحمد عبد السلام فرج معاً فيقول:

«الموضة الجديدة اللي طالع فيها المفكرين المراهقين، بتوع اليومين دول، إن كل واحد منهم يعلم نفسه بنفسه، بلا حاجة لأستاذ يرشده، ولا شيخ يأخذ عليه فيلجأون لكتب العلم والفقه مباشرة، وهم جاهلون بها فيخرجون أشد جهلاً وإدعاء.

في أيامنا هذه ممكن أن يتعرض عالم اسلامي فاضل في السبعين من عمره للاهانة أو السخرية من عالم مراهق لم يتجاوز العشرينات، كل بضاعته أنه قرأ ثلاث كلمات أو بضع صفحات من إبن تيمية أو إبن عبد الوهاب، فيقيم من نفسه حارساً على العقيدة.

فأي مسخرة وأي كلام فارغ!!

فيا مشايخ الأزهر.

أنتم أيها المغمى عليكم، أفيقوا.. أنتم يا من تركتم الاسلام للتيه، إنتبهوا.

المؤامرة على الاسلام واسعة وتهدف لشغل المسلمين وغرس الخلاف بينهم.. أمال اسرائيل بتعمل إيه غير كده؟

واحد عالم من أصدقائي، سأله واحد في المنيا: (لماذا لا تحرِّمون إستعمال الخل، وهو في حكم الخمر!!)

والغريب أن نفس السؤال ألقي عليّ أنا حرفياً في أبو ظبي.

يعني فيه جهة بتوزع البلبلة.

سفارات بتشتغل فينا.

سفارات صهيونية وامريكانية وشيوعية. ومش بعيد يطلع علينا أمير الجماعة الفلانية بفتوى لتحريم «أكل البصارة» لأنها تلهينا عن ذكر الله، وتشعل هذه الفتوى بيننا حرباً داخلية، تلهينا عن القناة التي تحفرها اسرائيل لوصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر، والقناة التي وعدهم بها صاحبهم لتوصيل مياه النيل الى صحراء النقب، وإحنا مشغولين في الخل والبصارة».

رغم هذا الهجوم فإن «الفريضة الغائبة» كان مفجراً صغيراً وضع في برميل البارود الذي ساهم الجميع في شحنه: «الاخوان»، و«الجماعات الاسلامية»، و«صالح سرية»، و«شكري مصطفى»، و«الشيخ كشك»، و«صلافة بيغن»، و«فساد السادات وبطانته»، و«نجاح الخميني»، و«إستضافة الشاه في مصر»، و«العدوان على لبنان»، و«تفجير المفاعل النووي العراقي»، و«ظهور الصهاينة في شوارع القاهرة بشكل إستفزازي»، و«قانون (جيهان) للأحوال الشخصية» الذي يتعارض مع نص القرآن.

كانت القاهرة يعاد رسمها بخطوط تترية، ليعود عصر هولاكو وتنطبق عليها أحكام إبن تيمية انطباقاً مذهلاً وكما أصدرها على ماردين منذ سبعماية سنة. وحتى تكتمل الصورة فلا بد من عجالة نستعرض فيها معالم «الفريضة الغائبة».

يقول محمد عبد السلام فرج إنه بالرغم من أهمية فريضة الجهاد بالنسبة لانقاذ الاسلام المهدد في الحاضر، ولبناء دولته في المستقبل فإن العلماء المسلمين يتجاهلون بالكلية، ويتظاهرون بأنهم رغم علمهم لا

يعلمون عنه شيئاً (!!).

إنهم يعلمون إننا إذا كنا نبغي بناء مجد هذه العقيدة فليس أمامنا سوى طريق واحد لنسلكه، ذلك هو طريق «الجهاد المقدس» فكل مسلم وأي مسلم عليه أن يتبنى وبشكل كامل الأفكار والنظام الذي وضعه له الله ليجعل منه القوة اللازمة لتحقيق إرادته.

الآن يبدو واضحاً أن «الطواغيت» الذين حكموا في الأرض، وعاثوا فيها فساداً لن يمكن إزاحتهم إلاّ بحد السيف، وهنا يقول الرسول ﷺ: ﴿بعثت والسيف في يميني، حتى يسبحها الله وحده. لا يشركون به شيئا﴾.

لقد أقام الرسول ﷺ دولة الاسلام وأرسى نظام الخلافة.. وهذه هي أوامر الله، وواجب كل مسلم، فلا يدخر جهداً ولا مالا ولا حياة، حتى ينفذ هذه الارادة السماوية.. ورغم ذلك فان بعض المسلمين يدعون أنهم لا يعلمون عن هذا الأمر شيئا، رغم أن كتاب الله يقدم لنا البينة الواضحة في قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون﴾ [المائدة (٤٤)]

السؤال الذي يجب أن نطرحه اليوم على أنفسنا: «هل نحن نعيش في دولة اسلامية؟» وهذا يكون صحيحاً لو كان الاسلام هو السلطة العليا.

وقد أجاب على هذا السؤال الامام إبن تيمية عندما وضع مدينة ماردين في درجة بين «دار الاسلام» و«دار الحرب» فأجاز قتال حاكمها الذي لا يحكم بما أنزل الله، ومنع القتال ضد سكانها المسلمين.

فالسلام لمن يستحقونه والحرب ضد من خرج على الشرع... ومنذ سقطت الخلافة عام ١٩٢٤ وأمة الاسلام محكومة بقوانين الكفار.

ما حدث أيام التتار عاد ليحدث بالضبط في هذه الأيام، كما ورد في تفسير إبن كثير لآية سورة المائدة التي قال فيها تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما، لقوم يوقنون﴾ حيث يقول ابن كثير: إن الله لا يرضى بغير حكمه الذي يجمع كل الخير، ويدفع كل الشر، وهو يرفض كل الآراء الخاصة والتهويمات الخرافية، وكل البشر الذين خرجوا عن الشريعة كاهل الجاهلية، فحكموا بأهوائهم، وجهالاتهم، أو كحكم

التتار الذين طبقوا شريعة (الياسة).

إنـه خروج على الإيمان أن يطبق القانون الوضعي، وتعطل أحكام القرآن والسنة.. وهكذا يصبح الجهاد فرضَ عينٍ على كل مسلم، حتى يستعاد الحكم الذي أمرنا الله بإقامته وإتباعه.. ومحاربة كل من وقف في طريق المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله، وقانون السماء المقدس.

وحكامنا اليوم هم ألد أعداء الاسلام المانعين لتحقيق إقامة العدل، وتـطبيق الحـدود، لأنهم يأكلون من موائـد الصهيـونيـة والصليبيـة والشيوعية التي تعمل لهدم العقيدة المحمدية.

تعلمنـا الأحـداث ـ وهي معلم شديد القسوة ـ أنه يمكنك في مصر المسلمة، أن تسكر لحد العدم، وتنسطل لحد فقدان الوعي، وتسرق البنك الاهلي وبنك مصر، وتزني علنا، وتكفر بالله، وملائكته وكتبه ورسله، وتكون شيوعياً وناصرياً ووجودياً في نفس واحد.. ورغم كل ذلك فأنت آمن على روحـك من «عشمـاوي» وحبال النظام ورصاصه!! ولكن ما أن تطالب بتطبيق كتاب الله والعودة الى روح الاسلام حتى يتفجر في وجهك بركان الغضب، ويهدر دمك وتصبح مطارداً حتى الموت.

الشيـوعيون يحلفون بشنق «خميس والبقري» في كفر الدوار بأيام الثورة الأولى.. وبموت شهدي عطية في السجن بعد ذلك بسنوات.. ولا ينسون ذلك مطلقاً في أشعارهم ومآتمهم، عندهم حق.. ولكن ماذا نقول عن شهداء التيار الاسلامي؟

حسن البنا الذي أطلق عليه الرصاص في قلب القاهرة عام ١٩٤٨ بأمـر من فاروق وبتـدبـير رئيس وزرائـه ابـراهيم عبد الهادي وبيد الاومباشي أحمد حسين جاد الذي قام بالقتل تحت إشراف ضابط المباحث عبدو أرمانيوس.

إعدام سبعة من قيادات الاخوان المسلمين عام ١٩٥٥ هم: يوسف طلعت وهنداوي دوير ومحمود عبد اللطيف ومحمد فرغاني وعبد القادر عودة وابراهيم الطيب وحسن الهضيبي الذي خفف عنه الحكم للاشغال الشاقة.. وحكم بالمؤبد على سبعة وتم وضع خمسة آلاف رهن الاعتقال، في أكبر محاكمة هزلية قادها المجنون جمال سالم وشارك في عضويتها

المتآمر الكامن «آنور السادات» وما تلا ذلك من مذبحة للاخوان في «ليمان طرة» راح ضحيتها العشرات من الأبرياء العزل داخل الزنازين.

إعدام سيد قطب وزميله في السجن محمد حواش امام «محكمة الدجوي» عام ١٩٦٦م وما تلاها من اعتقالات وتعذيب وحشي.

إعدام صالح سرية مع قيادة تنظيمه الذي قام بمحاولة قلب نظام السادات عام ١٩٧٤، والتي عرفت بمحاولة «الفنية العسكرية».

إعدام شكري مصطفى مع عناصر من تنظيم «مجتمع المسلمين» عام ١٩٧٧ بعد محاكمة شجبها شيخ الأزهر عبد الحليم محمود.

هذا السرد السريع يجعلنا نلمس نوعاً من سبق الاصرار والترصد في عمليات الابادة العمدية التي قابلت بها السلطة في مختلف العهود كل التحركات التي حاولت العودة الى الحكم الاسلامي والدولة الاسلامية.. وهكذا فإنه من الطبيعي أن يصل الباشمهندس محمد عبد السلام فرج صاحب كتيب «الفريضة الغائبة» وتنظيم «الجهاد» الى النهاية نفسها، ويعلق على الحبل نفسه.. فالاسلام الذي يدعو له مخيف جداً لأنه يخلق نوعية من المسلمين يريدون تغيير العالم باليد.. بالارادة.. بالشهادة..

وعندما هاجم الشيخ عبد الحميد كشك كتيب «الفريضة الغائبة» وربطه بفكر أحمد بن حنبل وأحمد ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، كان الشيخ السليط اللسان ـ الذي إنتهى في أحضان السلطة والاسلام الرسمي ـ صادقاً في الربط، مغرضاً في الهدف الذي رمى اليه.

هؤلاء الفقهاء الثلاثة هم فعلاً المقالع التي سيتجه لها كل من رغب في الحصول على أحجار يقيم بها حصوناً وأسواراً يحمي بها الاسلام من الغرق.. فكل منهم كان علامة وحده، وكل منهم ربط الفكر بالعمل، وكل منهم إرتبط فكرياً بمن سبقه من أصحابه، كأنهم إخوة رضعوا من الثدي نفسه الذي لا ينضب.

أحمد بن حنبل المفكر الذي عاصر قمة دولة العباسيين الأولى هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق بالله والمتوكل عندما كانت دار الاسلام ممتدة من سور الصين حتى اسبانيا وكان الاسلام هو القوة الغالبة بلا منافس، والحضارة السائدة بلا معارض، ورغم ذلك فقد ابتلى

من داخله، لقد ظهرت الهرطقة العقلية، والزندقة الدينية، وتفشى الفساد في الدوائر العليا للحكم، وترجمت الفلسفة اليونانية وكتب المنطق، علاوة على التراث الفارسي والهندي، وبدأ الناس يختلفون في قضايا غريبة جداً.. مثل «طبيعة الذات الالهية».. و«هل القرآن (قديم) سابق لوجود الله، أم (مخلوق) كبقية مخلوقات الله»، وفشا الجدل وانقسم الناس الى شيع، وتحزب الخليفة لحزب المعتزلة، وانزل نقمته على معارضيه، فخضع الجميع خوفاً أو طمعاً.. إلا أحمد بن حنبل قال ببطلان كل هذا الجدل، وطالب بالعودة للكتاب والسنة، لا يزيد عنها ولا ينقص، تمسك بالاسلام الأصولي، وأسس مدرسة تدعو للعودة لمجتمع الرسول وأصحابه في المدينة الفاضلة التي أقاموها في يثرب.

إنسجن وإنجلد وشنعوا عليه فصمد حتى الرمق الأخير.

أحمد بن تيمية عاش محنة الاسلام العظمى، على يد المغول، الذين اسقطوا الخلافة العباسية، ودمروا بغداد، وتظاهروا بالاسلام وهم يفتكون بالمسلمين، وحكموا بشريعة تيمورلنك، فأفتى إبن تيمية بتكفيرهم وطالب المسلمين باعلان «الجهاد» المفروض عليهم، والعودة للأصول الأولى للعقيدة كما جاءت في الكتاب والسنة وكما أوضحها أحمد بن حنبل في مذهبه.. كان هذا الكلام خطيراً بحيث قضى ابن تيمية عمره بين السجن والهرب، حتى مات في الزنزانة، مخلفاً وراءه تراثاً أصولياً بالمعنى الثوري للكلمة.

محمد بن عبد الوهاب وصل في عصر فساد المجتمع الاسلامي، وإنهيار دولة بني عثمان وتفشي الموبقات والخزعبلات، حتى أصبح الشرك بالله غالباً على المعتقد الطاهر كما نزل على محمد (ﷺ) فأعلن محمد بن عبد الوهاب الحرب على الشرك، والعودة الى نقاء التوحيد معتمداً فكر ابن حنبل وابن تيمية ونادى ببناء دولة الاسلام القوية المجاهدة، فكان يمثل الصحوة الحديثة للاسلام بمواجهة عوامل الانحلال التي أعجزت المسلمين، وقام «الموحدون» وحاربوا وانتصروا أولاً، ثم انهزموا ودمرت مدنهم وقواعدهم، وذبح قادتهم من السعوديين، ليعودوا في بداية القرن العشرين، ليقيموا تجربتهم الاسلامية المعاصرة

على يد الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

هذا الخيط الممتد من يثرب الى بغداد الى دمشق الى الدرعية فالرياض والقاهرة واجه قدره، والحرب الحاقدة التي شنت عليه، فدفع الثمن وما زال، منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا.

التشـابه كبير بين طبقة «المماليك المصرلية» العسكرية، وبين طبقة «العسكر الثورجية» الحالية، كلتاهما حكمت مصر بالعصا والسكاكين.

وكلتاهما طبقت قانونها الجائر، وابعدت الحكم بما انزل الله.

وكلتاهما أعملت السلب والنهب في الحصول على الامتيازات.

وكلتـاهمـا إنهـزمت عسكرياً أمام العدو واستسلمت للعار المهين.. عندما إنهزمت في الحرب.

هذا التطابق المدهش هو الذي سهل مهمة محمد عبد السلام فرج وجعل تأثير ابن تيمية وفكره أكثر وضوحاً في كتيب «الفريضة الغائبة».

كان دور فرج هو إستخراج أحكام ابن تيمية وتطبيقها على مجتمع العسكر في مصر المعاصرة، فيجد أن الحالة واحدة من أيام قلاوون وحتى عهد السادات وسلفه، وأيضاً خلفه.

كان همّ ابن تيمية الفقيه المجاهد هو أن يفتك بالنظام الفاسد الفاسق الذي بني على ظلم الناس ولمصلحة الطبقة العسكرية المتسلطة، كي يقيم على جثته الحكم العادل المبني على كتاب الله ولمصلحة عباده، واستعادة المجد الاسلامي الذي تهاوى.

إبن تيميـة رأى أن السـلاح الوحيد لتحقيق هذا الحلم هو إعلان الجهاد ضد العدو الخارجي.. وقبل ذلك ضد العدو الداخلي.. وهكذا أفرد الفصل الرابع من كتابه «السياسة الشرعية» كاملا لشرح فريضة الجهاد التي لم يعـد يذكـرهـا المسلمون، وكان هذا الإهمال للجهاد هو سبب هوانهم وإنحطاطهم.. فالجهاد بنظره هو أهم واجبات الانسان المسلم وأكبرها ثواباً عند الله، فالاجماع إستقر بين جمهور العلماء على تفضيل الجهاد عن الحج والصوم والصلاة كما هو ثابت في الكتاب والسنة.

فالخامة الأصيلة للمسلم الحقيقي لا تظهر بالورع، واعتزال الحياة الدنيا في قوقعة من التدين الفردي.. وإنما الايمان الحقيقي وقوته تتجلى

في الجهاد.

يقول ابن تيمية إن هناك قوماً يبالغون في التعبد لاقصى مدى، ويعتزلون الحياة الدنيا ومتاعها إبتغاء مرضاة الله، رغم انهم يحصلون مقابل ذلك العناء على ثواب قليل، بالقياس الى الثواب العظيم الذي يحوزه من يخرج من بيته مجاهداً في سبيل الله.

الفقيه المجاهد كان ثائراً على قطاع كبير من المسلمين قصروا تعبدهم على الجانب الروحاني من العقيدة، وقالوا بأن الجهاد الحق إنما هو جهاد النفس بينما كان التتار يقيمون أهراماً من جماجم المسلمين، والمماليك يحكمون بشهواتهم وأغراضهم.

هذه الغضبة من ابن تيمية سيتلقفها محمد عبد السلام فرج ويطبقها على الجماعات الخيرية الاسلامية والجمعيات الدينية المنتشرة حوله، ويرى فيما تقوم به من أنشطة مجرد هدر للجهد وتضييع للوقت الذي يجب ان يكرس كله في سبيل هدف واحد، هو المطلوب لانقاذ المسلمين واستعادة الاسلام، وهو الجهاد.

الجهاد كما قال به ابن تيمية يبدأ ضد العدو الداخلي، حيث يقول بأنه ثابت في القرآن والسنة وبإجماع الجمهور، بأن على المسلم مقاتلة كل من خرج على شريعة المسلمين، من بين المسلمين ـ العدو الداخلي ـ حتى لو نطق بالشهادتين.. ولكن كتاب «السياسة الشرعية» لم يوضح إذا كان المقصود هنا بالعدو الداخلي هل هو الحاكم، أو من يثور على الحكم من العصاة.

وهنا يعتمد محمد عبد السلام فرج على حادثة مظفر نظام الدين غازي، حاكم ماردين الذي أجاز ابن تيمية قتاله لخروجه عن الشرع، وطبق فرج هذا الحكم ـ بالقياس ـ على السادات ونظامه فجاء القياس دقيقاً ومقنعاً إذا وضعنا بيغن وريغان مكان هولاكو و«الرئيس المؤمن» مكان مظفر.

سيظهر ابن تيمية بقوة ووضوح في أثناء محاكمة خالد الاسلامبولي ورفاقه الذين نفذوا عقوبة الاعدام في أنور السادات، وسنجد ان الفقيه المجاهد هو الذي كتب حيثيات الحكم على صاحب كامب ديفيد منذ حوالي

سبعة قرون، وكان ذلك أمراً مدهشاً بكل المقاييس.

إعتبر محمد عبد السلام فرج أن مهمته الرئيسية هي إستعادة الجهاد تلك الفريضة التي غيبتها الفئة المضللة من علماء الأمة، وانه بذلك يقدم الحل الوحيد الذي يعيد للاسلام شوكته، طالما أن كل الحلول والوسائل الأخرى التي جربها المسلمون فشلت، رغم كل عظمتها الروحية وتجردها عن الماديات.

يقدم لنا الباشمهندس فرج استعراضاً للحلول الفاشلة التي لم تشفع لأصحابها سلامة نيتهم، ولم تنفع المسلمين في مصيبتهم:

الجمعيات الخيرية الاسلامية: التي تشرف عليها الدولة وتعيش على معونة وزارة الشؤون الاجتماعية وتقوم بتحفيظ القرآن وبعض أعمال البر والاحسان، ولكنها لم تساهم بشيء في رفع شأن الاسلام، بل عملت العكس غالباً حيث هي دعاية فارغة لدولة الظلم.

طريق إصلاح النفس: هذا الصنف من المسلمين يتصورون العقيدة مسألة شخصية فلا يتقدمون للعطاء من أجل اقامة المجتمع الاسلامي، هم أيضاً لا نفع فيهم لأنفسهم ولا دينهم.

الحزب السياسي: مجموعة التلمساني ومجلة «الدعوة» الذين يسعون للحصول على «شهادة حسن سير وسلوك» من الدولة كي تمنحهم الشرعية ويصبحوا حزباً.. أي يصبحوا جزءاً من الفساد العام والنظام الظالم الذي لا يحكم بالقرآن.

الجماعات الاسلامية: طلبة الجامعات الذين يرون إسقاط النظام بالسيطرة عليه من الداخل.. أي عند تخرجهم كأساتذة وأطباء ومهندسين وقضاة ووكلاء نيابة ومديرين.. الخ.. فيصبح «السيستم» كله بيد الاسلاميين، فتتم أسلمته، وهذا وهم، فعمل الاسلاميين داخل الدولة يقويها وليس العكس.

جماعات التبليغ والدعوة: من يرون أن الواجب الأهم هو تعريف المسلمين بدينهم الصحيح عن طريق الوعظ والارشاد ووسائل الاعلام.. وهؤلاء سوف يصطدمون بأن كل وسائل الاعلام تملكها الحكومة، وتسيطر عليها.. والحكومة معادية للاسلام.

جماعات الهجرة: وهؤلاء يرون أن المطلوب هو أن يهاجر المسلمون بدينهم، ويقيمون مجتمعهم في بلد بعيد حتى يصلوا لمرحلة القوة فيعودوا لبلدهم غزاة يقيمون الدولة بعد الفتح.. وهنا أليس من الأجدى تقصير الطريق واقامة المجتمع الاسلامي في بلدنا ونخرج منه فاتحين؟

العلم أولاً: تلك الفئة التي ترى تأجيل الجهاد حتى ينتهي المسلم من مرحلة التعليم، إذ كيف يجوز الجاهل على النصر؟ وهؤلاء يرد عليهم صاحب «الفريضة الغائبة» بأن العلم المطلوب هو الالمام بالفرائض الاسلامية بشكل عام، وفريضة الجهاد بشكل خاص، وهذا لا يتطلب وقتاً طويلاً.. والنبي نفسه كان أمياً والذين نشروا الاسلام في كل ربوع الأرض، وإنتصروا على كسرى وقيصر كانوا حاملي عقيدة، وليسوا من حاملي «الدكتوروهات».

وقف عبد السلام محمد فرج في قلب مصر فاتحاً النار ليس على نظام السادات وحده.. بل على عمر التلمساني يقول له: إن حزبك الذي تلهث لإقامته لن يختلف كثيراً عن حزب خالد محيي الدين أو حزب فؤاد محيي الدين أو مصطفى كامل مراد. وكلكم اعداء الاسلام.

وقال للشيخ عبد الحميد كشك: إن وسائل الاعلام التي تعتمد عليها، كلها بيد النبوي إسماعيل، وهو يستطيع اغلاق جامع «عين الحياة» ويصادر أشرطة الكاسيت وأن يحرق مطبوعات مكتبة الشيخ كشك.

وقال للجماعات الاسلامية: إن تأثيركم محصور داخل أسوار الجامعات وخلال فترة التلمذة فقط، وعندما تصبحون مهندسين وأطباء.. و.. فأنتم لن تسقطوا نظاماً تأكلون على مائدته.. أنتم تخدمونه..

وقال لجماعات شكري مصطفى أو بقاياها: ان الهجرة من المجتمع هروب من الجهاد.

وقال .. وقال.. وقال... كأنه يحمل مدفعاً سريع الطلقات، أخذ يطلقه على خصوم ثبتهم أمامه فوق منصة.

كان كلامه لا يفتقر المصداقية، فجميع المحاولات السابقة لاقامة النظام الاسلامي انتهت لحمامات الدم، وطوابير من الشهداء والمعذبين، ولم تنجح أي منها في الوصول الى غايتها، وبقي الحكم الاسلامي في

مصر كابوساً لأصحابه.

فكرة الجهاد لم تكن بعيدة بحال عن منهاج الشيخ حسن البنا وكتابات أبي الاعلى المودودي ومخطط سيد قطب، بل كانت محوراً رئيسياً في كل الحركات الاسلامية التجديدية منذ أن نجح عبد العزيز آل سعود في إنشاء مجتمعات «الهجر» وتكوين فرق «الاخوان» الرهيبة بمقاتليها «فرسان التوحيد» اخوان من اطاع الله.. ولكن بينما نجح فكر عبد العزيز العملي وانتهى باقامة دولة التوحيد، فشل القادة الاسلاميون بمصر «البيروقراطية» في خلق قوة الدعوة المسلحة، ربما لأنهم تربويون ـ حسن البنا مدرس، وسيد قطب مدرس ـ أكثر منهم فرسان مقاتلون بعكس عبد العزيز الذي جمع الفقه والفروسية.

ربما لأن الدولة المركزية في مصر تملك سطوة طاغية على الأفراد.

عموماً هذه نقطة تحتاج الى دراسة عميقة واعية من جانب الاسلاميين، حتى لا يقتصر وجودهم في التاريخ على القيام بدور الضحايا.

جاء محمد عبد السلام فرج هذه المرة بالفكرة عارية ومباشرة مؤكداً أن الهدف الأول للحركة الاسلامية إذا أرادت أن تتجنب طريق الذبح، هو الاستيلاء على السلطة.. وعن طريق الانقلاب.. وعلى الجميع أن يوفروا صياحهم وفلسفاتهم.

قال إن الجهاد المسلح يجب أن يشن مباشرة ضد «الحكومة التي لا تحكم بكتاب الله» قبل أي جهاد لتحرير القدس، أو للاطاحة باسرائيل. طبعاً الجهاد في هذا السبيل واجب، ولكنه يجب أن يتم تحت رايات الدولة الاسلامية وليس تحت رايات دولة السادات. وقد رأينا كيف أن نصر العاشر من رمضان إنتهى بتقوية نظام السادات الكافر الخارج عن الشرع، فطغى صاحبه وتفرعن، وفي النهاية سلم ثمرة النصر لأعداء الأمة، فضاعت تضحيات الشهداء هدراً.. وما دمنا في النهاية سنبذل دماءنا، فليكن ذلك رفعاً لشأن دولة الاسلام، لا دولة «الطاغوت». وهذا الكلام يذكرنا بكلام مثله طرحه شكري مصطفى أمام المحكمة العسكرية.

ويخرج محمد عبد السلام فرج الى النقطة الأخطر، وهي أولوية الجهاد ضد العدو الداخلي على الجهاد ضد العدو الخارجي.. فيقول إن الدولة الاسلامية عندما تشن حرباً لتوسيع حدودها أولتأمينها ضد عدو خارجي، هنا يكون «الجهاد فرض كفاية» يكلف به القادرون عليه، وبالقدر الذي يكفي للقيام بالمهمة.. أما عندما يدخل العدو أرض المسلمين ويحكمها بقانون غير قانون الشريعة الاسلامية فهنا يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة، ليس فقط من أهل البلد المغتصب، بل على كل مسلمي العالم حيثما كان مسلم.

هذا الطرح العنيف لاعتبار الدولة المصرية بمثابة العدو الأول للاسلاميين يجب اعلان الحرب عليها قبل اسرائيل وقبل امريكا من وراء اسرائيل، كان بالنسبة للكثيرين نوعاً من التزيد في التطرف، فاسرائيل بالنسبة لجماعة الدعوة «هي رأس الأفعى للمؤامرة الصهيونية العالمية والشيوعية الدولية على الاسلام ولا بد من إعلان الجهاد، لتحرير الأرض المقدسة وأولى القبلتين».

أما الناصريون واليساريون فكانوا يرون اسرائيل هي «جسر الامبريالية العالمية الذي يتوجب إزالته من المنطقة كأول هدف يتوجب على القوى التقدمية تحقيقه».

جاء كلام شكري مصطفى يضع الهدف الاسرائيلي في الدرجة الثانية، فظهر وكأن هذا الكلام نوع من الخيانة.. ولكن جاء نوفمبر ١٩٧٧ ليضفي نوعاً من المصداقية على كلام شكري مصطفى، وليشكل برهاناً عملياً، يدفع به محمد عبد السلام فرج بوجه خصومه، حيث لا أحد يستطيع أن يبرهن على أن بيغن أكثر عداوة وخطورة على الاسلام من محمد أنور ولا أن قوات شارون تعامل المسلمين بشراسة تقل عن قوات النبوي اسماعيل.

جاء تحالف عدو الله بالداخل مع عدو الله بالخارج ليجعل منطق جماعة «الجهاد» مقبولا وشديد الجاذبية لدرجة كافية بأن تجعل خالد شوقي الاسلامبولي يأتيهم متطوعاً لاعدام السادات، وتتم المهمة في عشرة أيام فقط. الغريب أنه جاء مقتنعاً بفكرهم الذي أصبح قناعة عامة لجيل

كامل من شباب في العشرينات من عمرهم.. وهنا الروعة، لأنهم كانوا يعرفون الثمن ومستعدون لدفعه.

المدهش أيضاً أن محمد عبد السلام فرج كان الوحيد غير المستعد لذلك.. ربما اكتفى باقناع الآخرين!

طبعاً الجرأة بالفكر والقلم لا تستتبع بالضرورة جسارة القلب، ولكن موقف المفكر نفسه أمام المحكمة وبين حوارييه، كان متهافتاً!

تنصّل من كتيبه، ومن معرفته برفاقه، وأدان الفكر والعمل، بعكس سيد قطب الذي أذهل قضاته بصفائه الروحي، وهز العالم ببسمته الغامضة على حبل المشنقة.

وبعكس شكري مصطفى الساذج فكرياً وسياسياً بالنسبة لفرج، ورغم ذلك داهم المحكمة العسكرية بشجاعة أدبية تصل لحد الصلافة، وأعلن أفكاره بإيمان يقيني، وشرح البنية الاجتماعية والاخلاقية لمصر السبعينات، التي طبق عليها صفات الجاهلية بعنف وإقتدار.

ويبدو أن التركيبة المفككة للباشمهندس فرج انعكست على التنظيم فكان مشطوراً، نصفه في الصعيد، ونصفه في القاهرة، وكلا القسمين يتصرف بإستقلالية تامة، حتى خيِّل إليّ في أثناء المتابعة إن الجماعة اتفقوا على تقسيم مصر، لا تحريرها.

انتقام الجيل الذي نكص

التيـار الاسـلامي في مصر السبعينـات كان مفلوشـاً على الساحة كمصبـاح كهـربـائي، إنفجـر شظايا يستحيل ربطها أو جمع نثارها، فالتنظيم الأساسي إنضرب وتفتت فوراً بعد اغتيال المرشد الأول الشيخ حسن البنا الرجل الذي فاقت عبقريته في التنظيم امكانياته في التنظير، وأكملت الضربات المتواليات على بقية معالمه، حيث تتالت المحن بمعدل واحدة كل عشر سنوات ١٩٤٨ ـ ١٩٥٤ ـ ١٩٦٥ وكان سيد قطب ثاقب النظرة عندما وجه كلماته لجيل جديد من المسلمين جيل طازج لا ينتمي لتلك الفلول المهزومة، فالجيش الذي تروعه الخسارة مرة سيفقد القدرة على تصور أية إمكانية للنصر.

لذلك بدت الشراذم الملتفة حول التلمساني في مجلة «الدعوة» أقرب لشواهد القبور منها لدعاة الحياة، ولكنهم حافظوا على موقعهم «كبركة» تطل باشفاق على الحركة .

الجمـاعات الاسلامية بالجامعات احتلت الموقع الوسيط بين حرس التلمساني القديم والأجنحة الجامحة، حاولوا أن يقيموا قاعدة فكرية لجمـاهـيرهم العـريضة، ولكن شغلتهم المواجهات والمعالجات اليومية لمشاكل الجامعة، كانوا يمثلون الأغلبية العددية والوسطية الفكرية، فلا هم شرعيون ولا هم ثوريون!! مع الحكومة حتى وظفتهم.. وضد الحكومة عندما حلتهم!

أيضاً كانوا غير مرتبطين في إطار حركي له قيادة قادرة حددت الهدف العام، وإستوعبت كل تفاصيل التنظيم وحركة الكوادر. ميزتهم أنهم كانوا بمثابة المرعى الواسع الذي تنتقي منه عيون المتشددين عناصر ملائمة يمكن تجنيدها للعمل النضالي العنيف.

الطرف الآخـر ويمثـل الصقـور داخل هذا التيار العريض.. وهنا سنلتقي بجماعات عديدة لها إجتهادات مختلفة وتلتقي كلها في العداء للنظام والعمل ضده ـ صالح سرية ومصطفى شكري وأخيراً فرعا تنظيم

الجهـاد ـ سيلفت إنتبـاهنا أن الانتقال من مجموعة الى الأخرى يتم بإستمـرار، وهـو الأمـر الذي أثار غضب شكري مصطفى فنظم فرق التأديب لردع وتصفية المنشقين على أساس كونهم «مرتدين» عن المعتقد الصحيح.. كذلك سنلاحظ ان التنظيم الأشد صداماً مع النظام سيكون هو الأشـد جاذبيـة للعنـاصر المنـدفعـة، فبقايا عناصر تنظيم «الفنية العسكرية» سيكونون الخلايا الأساسية في تنظيم الهجرة.. وبقايا هذا التنـظيم بدورهم سينضمـون لتنـظيم الجهاد، وبعد ضرب الجماعات الاســلامية في الجامعة سيتجه بعض عناصرها نحو الحرس القديم في مجلة «الدعوة» ولكن معظم عناصرهم خاصة في الوجه القبلي سيتجه الى فرع الصعيد من تنظيم «فرج»!!

وسنعثـر بين المتهمـين في تنـظيم «الجهاد» على ناجح ابراهيم أمير الجمـاعات الاسلامية في جامعة أسيوط وهو الخطيب البليغ الذي هز أركان العهد عندما كان يخطب في استاد الجامعة بمناسبة عيدي الفطر والأضحى كل عام، والذي أصبح المتهم رقم أربعة في قضية التنظيم.

أيضاً كرم زهري قائد فرع «الجهاد» في الصعيد كان هو الآخر عضواً بارزاً في الجماعات الاسلامية بمدينة المنيا حتى تعرف على فرج من خلال أحد الاخوان كان يتردد بشكل دائم الى الجماعات ويشارك في أنشطتها.

محمد شوقي الاسلامبولي أمير الجماعة الاسلامية في كلية التجارة بجامعة أسيوط، سيصبح عضواً قيادياً داخل «تنظيم الجهاد» وهو الذي سيرسـل شقيقه الأسطوري الملازم أول خالد شوقي الاسلامبولي كي يتعـرف على محمـد عبد السلام فرج بمسجد عمر بن عبد العزيز في ضاحية «بولاق الدكرور» ـ لأنه هو الذي سيساعدك في العثور على شقة تكمل فيها نصف دينك، فهو رجل طيب ويحب مساعدة المسلمين ـ ويتم اللقاء التاريخي بين خالد وفرج والذي سينتهي بافراغ ٣٨ رصاصة من رشاش «الملازم أول» في جسد «القائد الأعلى».. لماذا؟

لأنه تربى على يد أحمد شوقي أفندي الاسلامبولي والده الذي كان عضـواً عاملاً في «الاخوان المسلمين» ثم بعد حل الجماعة، إنضم الى تنـظيمـات الثـورة «منـظمـة التحرير» و«الاتحاد القومي»، و«الاتحاد

الاشتـراكي» يعني أصبـح مع الحكـومـة التي شنقت قادته وسجنت اخوانه! لماذا تاني؟

ربما بدافع الخوف، فقد أصبح رباً لأسرة، وأباً لكوم من العيال، وعلم النفس يقول بأن الشخص المهزوم المرعوب يتقمص شخصية وآراء عدوه بشكل مبالغ فيه، ويبدي انصياعاً كاملاً له حتى ينجو من التدمير.

وربمـا لأن الرجل موظف قطاع عام.. وحزب الحكومة بالنسبة اليه يعني النفوذ والحظوة والترقية.

وربما لأنه اقتنع بأن قيادة عبد الناصر حققت المعجزات كما غنت كوكب الشرق يوماً: «حققنا الآمال.. برياستك يا جمال».

كل ذلك محتمل عاناه أحمد شوقي أفندي الاسلامبولي، وعاناه كل منا بنسب مختلفة، ولا بد من أن الرجل كان غير راضٍ عن نكوصه الديني السياسي، وإبتعاده عن الذين جاهدوا، وصابروا، وصبروا، فأخذ يكفر عن ذلك في تربية أولاده تربية اخوانية ـ دينياً وسياسياً ـ فشب محمد وخالد على اخلاقيات سعد ابن ابي وقاص وعبد الله بن عمر.. لديهما الاستعداد للقيام بالدور الذي نكص عنه الوالد الطيب.

تأتي كارثــة ٥ يونيــو ١٩٦٧، فيرى فيهـا أحمـد شوقي أفنـدي الاسلامبولي كملايين غيره إنتقاماً الهياً للبريء سيد قطب الذي شنق ظلماً في العام الماضي، وغضباً سماوياً للذين قتلوا وعذبوا، وكل ذنبهم أنهم قالوا ربنا الله.. وشعر أنه شريك في الجرم، وأنه جزء من النظام الذي نسي الله.. فأسرع على الفـور ينفض يديـه مرتـاعاً.. إستقال من عضوية «الاتحاد الاشتراكي العربي» ومن رئاسة إتحادات ونقابات الحلاقين والحرفيين التي شكلها خلال عمله في التنظيم الحكومي.. ولوحظ عليه الإنطواء، والبكاء وهو يصلي، والمرارة وهو يتكلم عما جرى في مصر، وما جرى لمصر.. وكان الصغيران محمد وخالد يشربان من هذا النهر المر، فشبا وقد سيطرت عليهما فكرة ثابتة، أنه لا حل إلا بالاسلام ولا إسلام بلا تضحية.

البعض أو الكل يصور خالد الاسلامبولي كشاب صعيدي هوايته في الحياة «أخذ الثار» وأنه إنما قتل السادات ثأراً منه لأنه إعتقل شقيقه

الحبيب محمد. إننا هنا نتجاهل عملية شحن ثابتة مستمرة لمدة عشرين عاماً على الأقل، جعلت خالد أحمد شوقي الاسلامبولي بعد قراءته لكتيب «الفريضة الغائبة» يكتب وصيته، ويبيع عمره لاداء عمل جهز نفسه له من زمان.

«بولاق الدكرور» ذلك الحي الذي عرفته مأوى لأفقر فقراء جامعة القاهرة في الخمسينات، هؤلاء الذين كانت الغرف في حواري الجيزة بالنسبة اليهم تعتبر ترفاً يعادل السكن في قصور موناكو وشاليهات السان تروبين، عدت لزيارته في منتصف السبعينات أكثر من مرة.

توسع الحي الملعون إبتلع كل غيطان الخس والقصب والجرجير التي كانت محيطة به.. مجرور ضخم طفح وتوسع وتفرعت في وسطه أذرع الطحالب العفنة على شكل زوائد أخطبوطية، تصل إمبابه بأطراف الدقي.. تكاثر الذباب والفئران والبشر، بنفس المعدل السرطاني.. جحور داخل جحور من الحجر الأحمر والمشمع والصفيح والخيش.. تقول الاحصائيات إن ٧٠٪ من البيوت هي عشش لا يدخلها ماء، وخالية من المراحيض، وإن معدل الفقر هنا أعلى منه في مناطق «الفقر الدكر» المحدقة بقاهرة الانفتاح.

هنا إختارت العناصر الهاربة والغاضبة من الجماعات الاسلامية في جامعة القاهرة بالذات ان تختفي وأن تعمل. شعر الكثيرون بالندم لأنهم إنقادوا لفكر المعتدلين من جماعة التلمساني فصالحوا النظام وتورطوا معه، وبذلك شجعوه على التمادي في الاستهتار حتى خان وصالح العدو.. وعلى التمادي حتى بطش بهم أخيراً.. الكثيرون منهم شعروا بأن سياستهم المترددة تلك، افضت بهم للكارثة، ولا بد من التعامل مع النظام بأسلوب مختلف تماماً.. هؤلاء وجدوا محمد عبد السلام فرج ينتظرهم في «مسجد عمر بن عبد العزيز» في «بولاق الدكرور» ومعه كتيب «الفريضة الغائبة» وخطة عاجلة للإنتقام من فرعون وقلب نظامه، وإقامة الحكم الاسلامي.

هكذا خبط لزق طيخ طاخ.

لسبب ما كان الباشمهندس محمد عبد السلام فرج شديد

الديمقراطية، غير مؤمن بالتنظيم الحديدي الهتلري كما يفترض في أي تنظيم يعمل تحت الارض ولقلب نظام الحكم، فشكل تنظيمه في القاهرة من ست خلايا لكل منها أمير له مطلق الصلاحيات لا يعرف عنه شيء.. ولا حتى أسماء العناصر العاملة معه، مكتفياً باجتماع «مجلس الشورى» الذي يضم الأمراء الستة.

يلتقي كرم زهدي أمير الجماعات الاسلامية بجامعات الصعيد مع الباشمهندس فرج ويقول: أنه لم يسمع منه شيئاً جديداً لم يعرفه من قبل. ويقول عن كتيب «الفريضة الغائبة»: انه ليس الا مقتطفات من ابن تيمية وغيره من الفقهاء. ورغم هذا التقييم غير الودي، والذي كان متبادلاً بين الزعيمين، فإن ذلك لم يمنع إتفاقهما على قسمة البلد نصفين ـ لك الصعيد ولي الدلتا ـ ونظمت الاجتماعات المشتركة بين العاصمتين بالتبادل علي اعتبار أسيوط عاصمة الوجه القبلي.

واعترافاً منهما بالندية وأيضاً عدم الجدارة الفقهية، فقد ذهبا لاجئين الى الشيخ عمر عبد الرحمن، وهو أستاذ أزهري كفيف حاصل على الدكتوراه، ويعمل مدرساً بفرع الجامعة الأزهرية في أسيوط، وطلبا منه أن يكون إماماً لتنظيم «الجهاد»، ولكن الرجل المتعمق في الفقه رفض لأن شروط الإمامة لا تنطبق عليه بسبب عاهته. وكان كرم زهدي معجباً به ويعرفه منذ العام ١٩٧٧ عندما كان يدعوه ليحاضر الجماعات الاسلامية في الكليات المختلفة.. وخلال هذه الدروس كان الشيخ المتشدد في إتباع السنة يرفض أن تلقي عليه الفتيات أسئلتهن مباشرة.. بل يقرأ عنهن محرم يصحبهن، مخافة شبهة زنا عن طريق السماع وهو الضرير الذي حماه الله من شبهة الزنا بالعين.

إلى هذا الحد !

كحل وسط وحتى لا يحرم التنظيم العنيف فقيهاً يتورع، فقد عرضا عليه ووافقهما على أن يتولى منصب «مفتي الجهاد» لا يقطعان في قضية شرعية إلا بناء على فتوى منه.

أصبحنا أمام تنظيم له رأسان وعقل واحد.. الرأس الصعيدي الناشف متأثراً بظروف أسيوط والمنيا.. وتراث الأقاليم العصبي، إختلف

مع فرج ابن «الدلنجات بحيرة» في تحديد من هو عدو الاسلام بالداخل.. وسنجد كرم زهدي يرى أن إعلان الجهاد يجب أن يكون ضد المسيحيين الذين إستكبروا في الأرض وأذلوا المسلمين، وكدسوا السلاح، وأصبح السادات ونظامه رهينة لهم. وهكذا فالمعركة ضد البابا شنودة تسبق المعركة ضد «الرئيس المؤمن»! ويمكننا أن نطالع تحليل زعيم «الجهاد» في الصعيد ضمن الأقوال التي أدلى بها أمام المحققين العسكر في القضية التي عرفت بإسم «قضية تنظيم الجهاد» حيث قال:

«إنني كنت أرى الأمر كالتالي... فالمسيحيون تمركزوا بشكل واضح في المنيا وأسيوط، واستغلوا زيادتهم العددية في تسيير المظاهرات في محاولة لإستعراض القوة.. كما أنهم احرزوا الأسلحة عن طريق فؤاد غالي محافظ سيناء مما دفع الشباب المسلم للتصدي بالقوة لوقف النشاط التبشيري المسيحي، ولايقاف إستكبار الصليبيين ومظاهرات القوة التي مارسوها وهددونا بها.. وقد شملت الاستفزازات توزيع النشرات النصرانية.. والاحتجاجات.. وأشرطة الكاسيت التي تهاجم العقيدة الاسلامية، وأوعزوا للاغرار بأن يجتمعوا بالكنائس، ويدقوا أعواد الناقوس، بلا مناسبة، ويوقتوا دق الأجراس مع وقت الاذان، ليشوشوا عليه، ويسيِّروا استعراضات الكشافة الاستفزازية كعرض لعضلات التنظيم النصراني.. بل كانوا يوزعون نسخاً من الأناجيل في البيوت والباصات، كما فعلوا في المنيا وأسيوط. هكذا إستكبر الصليبيون، الذين تدفق عليهم المال من امريكا، فاستعملوا الدولارات في تكديس السلاح، في البيوت والكنائس، كما نمى لعلمنا، وإنتظاراً لليوم الذي يستعملون فيه هذا السلاح كما فعلوا في لبنان، وهنا يعلنون تحويل مصر لدولة قبطية، عاصمتها أسيوط، كما حذر من ذلك الرئيس السابق في خطبه».

كان الرئيس يروج للفتنة فهل نلوم كرم زهدي الذي سأله المحقق: «هل معنى ذلك أن الدعوة للاسلام بالتي هي أحسن، إنتقلت لفرضه بالجهاد؟»

«ـ بطبيعة الأمور وتكرار هذه الاستفزازات فإن الدفاع عن العقيدة يشمل كل شيء ويستعد لكافة الاحتمالات، وعلينا أن نعد الشباب حتى

لا تأخذه الأحداث على غرة».

هذه الصورة الكالحة التي إنقلبت دامية تشير لمصادر التهييج من خارج الحدود، والدور الخبيث الذي لعبه السادات في تفجير الفتنة، وسذاجة الذين استجابوا من الطرفين، وإبتلعوا الطعم بسهولة.

أعظم انجازات تنظيم «الجهاد» هو تنفيذ القصاص العادل والشرعي بالمرتد أنور السادات وفق فتاوى صريحة للفقيه الأصولي أحمد بن تيمية.. وباجماع الجمهور، وبناء على فتاوى الأزهر نفسه ـ رغم أنه ارتد عنها ـ ولكن أكبر أخطاء التنظيم أنه إنجر لحمأة الفتنة الطائفية وبسهولة عجيبة، منفذاً ـ دون قصد ـ المخطط الصهيوني الامريكي لتحويل المنطقة الى «موزاييك» طائفي يأكل بعضه، ويسبح في الفلك الاسرائيلي، الذي سيكون الجرم الأكبر في سديم الشرق الأوسط.

إن ما حدث في مصر في صيف ١٩٨١ نسف كثيراً من المسلمات، فقد اندفع كل من الأقباط والمسلمين الى حافة التقسيم، وهو الأمر الذي كان أبعد من الخيال نفسه، ويظهر أن أقدم وحدة في التاريخ يمكن اللعب فيها واللعب بأصحابها إذا توفرت الأجواء المحمومة والمخططات الخفية الطويلة الأمد.

الفتاوى التي أصدرها الشيخ عمر عبد الرحمن في أعقاب أحداث «الزاوية الحمراء» صيف العام ١٩٨١، يجب إعادة تقييمها ليس على ضوء ظروف الصعيد وتراثه، بل على ضوء مصلحة الأمة، وفي ظروف وصول عناصر المؤامرة الصهيونية الى داخل مصر تحت مظلة التطبيع، ووجود سفارة صهيونية، لها اتصالاتها وعملاؤها الخفيون في الشارع وداخل جهاز الدولة.. هناك أموال تصرف، وبذور للشر تغرس، لا هي لصالح المسلمين ولا النصارى.. فالعداوة الصهيونية للكنيسة القبطية أقدم وأعمق غوراً من عداوتهم لأمة محمد.. لذلك فالوحدة بين المستهدفين تفرضها ضرورات الدفاع عن النفس، ولا نقول وحدة الأرض والتاريخ الماضي والقادم.

الشيخ عمر عبد الرحمن السني الجليل، الشديد الورع، أصدر فتوى تبيح قتل الأقباط الذين رفعوا السلاح وغدروا المسلمين، واحتلوا

مساجدهم. وأعلن أن النصارى الذين موَّلوا الكنيسة بهدف شراء السلاح، ومن ثم الاعتداء على أرواح المسلمين، وشاركوا في اطلاق النار عليهم، فان دمهم يهدر، ومالهم يصادر.. أما الذين ساهموا في القتال فقط فدمهم حلال. وأيضاً الذين ساهموا بالمال دون القتال فمالهم حلال.

هذه الفتوى غير شرعية لأنها دفع للخير، ومجلبة للشر ـ وأي شر ـ ووضع الحكم في مصر الاسلامية استقر من زمان عمرو بن العاص، وبزيارة المأمون على أساس أن أقباط مصر هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا، وليسوا هم الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.. ولأن الفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها.. ولصالح من؟

بعد أحداث «الزاوية الحمراء» في العاصمة، جمع كرم زهدي مجلس الشورى، وعرض عليهم فتوى الشيخ عمر عبد الرحمن التي تبيح دماء وأموال الأقباط الذين ساهموا في قتل المسلمين، وقرروا في حينه القصاص السريع.. واقترح علي الشريف أن يبدأ الجهاد في نجع حمادي وضد أحد أغنياء الأقباط فيها اشتهر بعدائه الشديد للمسلمين، وبمساهماته الضخمة في تمويل الجماعات المسيحية والمشاركة في عملياتها الأخيرة، ساعدته في ذلك قدراته المالية الكبيرة، كواحد من أكبر تجار الذهب والمصاغ في الأقاليم.

وضعت خطة الهجوم على المحل، وخرجت عناصر مدربة من التنظيم للقيام بعملية السطو المسلح.. وكانت بداية منحوسة لأول عمليات «الجهاد».. اذ قتل في الهجوم أشخاص من الأقباط واستولى كرم زهدي على خمسة كيلوجرامات من الذهب، تبلغ قيمتها في ذلك الوقت ثلاثون ألف جنيه.

لقد وضع تنظيم الصعيد الانتقام من الأقباط على رأس القائمة، قبل التخلص من الفساد، الذي أشعل نار الفتنة كي يحرق آثار جريمته. وقد شاع هذا الاسلوب الاجرامي في العهد، فكل مخازن الحكومة والقطاع العام، كانت تحرق قبل الجرد السنوي.. كما احرقت دار الأوبرا وقصر الجوهرة في القلعة بعد أن تمت سرقة كل الموجودات الثمينة في كلا المبنيين.. والسارق هو الحارق، وهو معروف جيداً.

لقد تصرف جماعة أسيوط كصعايدة، وليس كمسلمين، وإن احتموا بفتوى فاسدة.. ولهذا فقد حازوا على تأييد الأهالي الذين تربوا على الثأر والعصبيات العائلية والدينية.. يستوي في ذلك القبطي والمسلم. ولذلك فعندما خرجوا يوم ١٨ اكتوبر ١٩٨١، عقب مقتل السادات بيومين بهدف الاستيلاء على السلطة في أسيوط، خرج معهم الأهالي بالسلاح.. بعكس الحال في القاهرة، حيث وضع التنظيم خطة اغتيال السادات وأملهم أن تكون هي الخطوة الأولى لخروج الشعب في مظاهرات شاملة، لاسقاط النظام كله، وهذا لم يحدث.. لأن التراث الذي حرَّك الأهالي في أسيوط لم يكن له وجود في القاهرة.. وهذه نقطة جوهرية في موضوعنا الشائك والمحزن فعلا.

الواقع الذي يجب أن نعترف به، هو أن هناك فجوة في الفقه الاسلامي لم يتصد لها أحد من علمائنا لردمها، فبعد محمد بن عبد الوهاب الذي ظهر في القرن الثامن عشر، وقدم تصوراً جسوراً لمعنى «التوحيد»، يواجه به فساد العقيدة، وانحلال الأمة، كان علينا أن ننتظر مئة عام ليطلع علينا السيد جمال الدين الأفغاني بفكرة الوحدة الاسلامية، القائمة على الشورى والمشاركة، واقتباس العلوم الحديثة التي تفيدنا في بناء قوة الاسلام، واجتناب الجانب الضار من حضارة الغرب، والذي يتنافى مع العقيدة الاسلامية.

الدنيا تغيرت، والعالم الاسلامي يواجه أوضاعاً وتحديات أكبر من التي واجهته في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر.. ورغم ذلك، فلم تحاول العقول الاسلامية أن تجد حلولاً معاصرة مبنية على أسس العقيدة.. العلماء اكتفوا بدور موظفي الدولة، والدولة أصبحت غير مسلمة العقل والقلب والتوجه.. وانتصر التيار التغريبي الذي اكتفى من الغرب باستيراد مفاسده ومباذله، وكراهيته للاسلام ولكل ما يمت له.. ويخرج الشباب جيلاً بعد جيل، يتطلعون لجذورهم، يستعيدون دينهم، فيجدونه ما زال حيث تركه «ابن حنبل» منذ ألف ومئتي عام.. ويستخرجون منه أحكاماً وضعت في زمان آخر، وأوضاع لم تعد موجودة،

فيجتهدون بغير علم وحدهم.. ويتحملون النتائج وحدهم.. وهذا ظلم.. أي ظلم.

بُعثت والسيف في يميني

أحمـد شوقي الإسلامبولي ينتمي لعائلة من أعيان مركز « ملوى » ليس بعيـداً بكثـير عن عاصمة المحافظة «المنيا» التحق بكلية الحقوق وتخرّج محامياً، وتزوج في العام ١٩٥٢ من قدرية علي يوسف البرنس زواجاً مستقراً مثمراً، فأنجب منها أربعة :

«أنيسة» في العام ١٩٥٣ تخرّجت من معهد أسيوط التجاري، وتزوجت من موظف بالشؤون الاجتماعية.

«سميـة» تخـرّجت من كليـة التـربية بجامعة أسيوط وتزوجت من محاسب في «المقاولين العرب».

«محمد» الذي ولد عام ١٩٥٥ والتحق بكلية التجارة جامعة أسيوط .

«خالد» من مواليد ١٩٥٧، والذي كان يحلم بأن يكون طياراً فأصبح مدفعجياً.

الوالد الذي يتمتع في الصعيد بسلطة مطلقة في بيته وخصوصاً فيما يتعلق بتـربية العيال، سيكون هو الشخصية المسؤولة عن الدراما في روايتنا هذه . فالأخ أحمد شوقي الإسلامبولي الذي عمل محامياً بشركة السكر بنجع حمادي لم يكن مجرد موظف مستور، بل قضى صباه وشبابه عضـواً نشـطاً في جمـاعـة الاخوان المسلمين ، خاصة خلال دراسته الجـامعيـة في سنـوات الأربعينـات العـاصفـة التي شهـدت صعود « الإخـوان » للذروة في معـارك الفداء بفلسطين وانتهت بحل الجماعة واغتيال حسن البنا.

هذا الجيل الذي تربّى على قناعات راسخة في مناخ محفوف بالمؤامرات على الإسلام، كان صعباً خلعه من الجذور .

أحمـد شوقي الإسلامبولي إنخلع بعد « حادث المنشية » الغريب، وحل الإخوان عام ١٩٥٤. شاهد المحنة ولم يعانها بل انضم للحكومة. ليس هنـاك رجـل يرضى عن نفسـه وهـو يلعب دور المنسحب ويبـرره ـ اسألوني أنا ـ انه موقف نذل شديد اللؤم كل ثانية فيه لعنة وحدها .

أنت غير راضٍ عن الدنيا التي امتحنتك في اخوانك وسقطت في

الامتحان.

مهما نجحت فأنت فاشل، ومهما بالغت في تقمص أدوار بطولية فأنت « مَرَه » ولا شيء في العالم يمكن أن يقنعك بغير ذلك .

صاحبنا أحمد شوقي يقول إنه لم يقطع صلته بإخوانه وانه استمر يتواصل معهم بالسر، متستراً بانضمامه لحزب الحكومة الذي يغير «يافطته» ولا يغير تفاهته، فهو: «منظمة التحرير» و «الاتحاد القومي» و «الاتحاد الاشتراكي العربي» و «حزب مصر» وأخيراً «الحزب الوطني» ولسنا نعرف ماذا سيكون اسمه في المستقبل... العلم عند علّام الغيوب. المهم هو الوقوف حيث يقف الحاكم، والمزايدة على حماسه.

أحمد شوقي نشط في حزب الحكومة، ونشط مع خلايا الإخوان التي بقيت في السر، وحصرت نشاطها في جمع التبرعات المادية لأسر الإخوان التي استشهد عوائلها أو وضعوا بالسجون.

هذه المساهمات المادية منحت للبعض التوازن النفسي المفتقد، وخففت الشعور بالجبانة والهروب من المعركة، فعلى الأقل أصبح للوجود الشخصي « لازمة » بالنسبة للذين ضحّوا ودفعوا الثمن ، وما زالوا.

أحمد شوقي الإسلامبولي حصل على سلامه النفسي المؤقت عن طريق هذه «المساهمات في الله» وتربية العيال على القيم التي تربّى هو عليها.

ذهب خالد ليرد على أحد أصحاب والده جاء يسأل عنه، فقال له الوالد : «قل له بابا مش هنا»، فيرد الصغير: «وهل تريدني أن أكذب؟» ولم يكذب.

عقب كارثة ١٩٦٧ يتضح أن النظام العسكري ليس عسكريا إلا في الداخل ، وأن أبطاله لا يمارسون المرجلة إلا في السجن الحربي، وضد الأبرياء العُزّل. وأن «أحمد سعيد» طبل أجوف، وأن «صراحة هيكل» ليست إلّا جبالاً من الأكاذيب، وأن ما نزل بمصر من بلاء كان برأي أحمد شوقي الإسلامبولي ليس إلّا انتقاماً لأبرياء ١٩٥٤ و ١٩٦٦ الذين ظُلموا لا لذنب إلّا انهم قالوا « ربنا الله ».

يحدث انقلاب سياسي في داخل البيت الآمن عقب الهزيمة، فيتحول الى خلية خطرة متفجرة معادية للنظام، والقائمين عليه. كان «رب الدار»

يكفّر عن فترة الهدنة مع النظام أو «التقية» الكريهة التي فرضها على نفسه، فأعلن استقالته من «الاتحاد الاشتراكي العربي» وانفصل عن اتحـاد قوى الشعب العامل، وجهر بأن الهزيمة لها سبب، والنصر له سبب، ولا حلّ إلّا بالعودة الى الإسلام .

كانت كل مصر تقول بذلك وبالذات شبابها. ويشاء السميع العليم أن يكون في بيت أحمد شوقي الاسلامبولي أبناء يدخلون مرحلة الشباب، ويسمعون من أبيهم هذا الكلام، وينشأون على دقات طبول الحرب ضد نظام عادى الله، ورجال الله، ونكل بهم مثنى وثلاث ورباع.

هكـذا كان طبيعيـاً أن يصبح محمد الإسلامبولي أميراً للجماعات الإسـلامية في تجارة أسيوط وان يعتبر خالد الاسلامبولي ان الموت في سبيل الله هو الأمنية الأعز، وان السادات، هو عدو الله، وعدو دينه.

هذه المسلمات تربى عليها وتجري في شرايين دماغه من وقت مبكر، وجاءت قراءته لكتيّب «الفريضة الغائبة» ليدق كل النواقيس المركبة في عقله لتـذكره: «هذا هو الهدف، وهذا هو الوقت». وبدلاً من أن يدفعه «تنظيم الجهاد» نحو معاقبة «المرتد الأكبر» بدأ هو يقوم بدور القاطرة العملاقة المشحونة التي تجر التنظيم لتنفيذ المهمة.

في تلك الفترة التي اتصل فيها الملازم خالد الإسلامبولي مع محمد عبد السلام فرج كان التنظيم يمر بمرحلة عصيبة بالغة التعقيد كبقية الحركات الإسلامية. فأحداث الفتنة الطائفية في المنيا والزاوية الحمراء أعطت السادات المبررات كي يضرب، وضرب.

كانت عناصر التنظيم مطاردة في الصعيد والقاهرة، وشقة عبود الزمر المسؤول العسكري دوهمت، وضبطت فيها أسلحة ومخططات، وعيون البصاصين مبثوثة في الشقوق .

كان اللقـاء بين خالد وفـرج في بولاق الدكـرور بتوصية من محمد الاسلامبولي، ويتم بعد الصلاة في المسجد الاهلي الصغير الذي يحمل اسم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز.

يتم التعارف، فالثقة متوفرة، ورغم أن خالداً ضابط جيش فهو شقيق لعضو هام في تنظيم الصعيد. ولولا ذلك ما اطمأن له فرج المطارد، ولما

فتح له قلبه، وحدثه عن حال الإسلام، والواجب على كل مسلم، والفريضة الغائبة التي آن لها أن تسترجع مكانها في العقيدة. وأخيراً سلمه نسخة من مؤلفه، الذي لا يقدم إلّا لمن يرجى منهم خير.

يصبحـان صديقـين، وتتعدد اللقاءات، اذ خالد المتديّن يتردد الى حلقـات الاسـلاميـين ومسـاجـدهم، «كشـك» و «السماوي» و «حافظ سلامة». نسي أنه ضابط جيش، قبل أن يكون مسلماً.

كانت صلة خالد الاسلامبولي بالحركات الإسلامية أقدم من صلته بتنظيم «الجهاد». كان مشدوداً لها بحكم فطرته وبتأثير بيئته المنزلية، وبدافع إعجابه بأبيه وحبه لأخيه، ولهذا تردد على مساجدهم وتناقش معهم. ولا بد أن هذه الميـول لفتت اليه أنظار البصاصين وربطت بين ميوله وبين نشاط أخيه العنيف. وليس هناك ما يمنع من انقلاب «الملازم أول» الدمث المتواضع الى عنصر يقلب الجيش ومعه النظام .

في أكتـوبـر ١٩٨٠ تصله مذكـرة استدعاء لمبنى المخابرات العامة فتصور أنهم سوف يسألونه عن نشاط أخيه.

ذهب الى هناك، ليدخلوه الغرفة إياها، البلاط العاري، واللمبة المدلاة من السقف، وترابيزة خشبية أمامها كرسيان و «اجلس هنا».

يجلس على أحد الكرسيين ويُقفل الباب عليه، يتركونه وحده فترة كافية لأن تهز أعصابه، ويدخل عليه المقدم مجدي يقدم نفسه، مهذب محايد الملامح، وجهه كقناع الشمع، ملابسه مدنية، كلامه كملامحه.. محايد، أمامه ورقة وقلم، يدون فيها ملاحظات متفرقة. يبدأ التحقيق:

ـ **اسمك؟**

ـ الملازم أول خالد الإسلامبولي.

ـ **سنك؟**

ـ ٢٣ سنة.

ـ **رتبتك؟**

ـ قائد سرية مدفعية باللواء ٣٣٣ مدفعية.

ـ **وحدتك؟**

ـ معسكر «هاكستيب».

ـ هل لك أصدقاء؟

ـ نعم.

ـ من داخل الوحدة؟

ـ نعم.

ـ ومن خارجها؟

ـ نعم.

ـ اذكر لي بعض اسمائهم؟

هنـا يذكـر خالد بعض الأسماء بحذر، حتى لا يورط نفسه ويورط أصدقاءه الحقيقيين في التيار الإسلامي، ولكن الذين استدعوه يعرفون بالضبط ما يحاول خالد إخفاءه، فتعود الأسئلة أكثر تحديداً وتوريطاً.

ـ هل تعرف عبد الله السماوي؟

خالد يعرفه ويعرف أنه أحد القادة في بقايا تنظيم شكري مصطفى، وقد تردد الى الحلقة التي يعقدونها في مسجدهم.

ـ لا أعرفه.

ـ هل سبق لك وترددت على مسجد أنصار السنة المحمدية؟

عرف خالد أنهم يراقبونه ويسجلون تحركاته، وانه محل عنايتهم، فيجيب:

ـ نعم، ترددت عليه عدة مرات.

ـ لماذا؟

ـ للصلاة وعبادة الله سبحانه وتعالى.

ـ هل التقيت هناك بواحد من الجماعات الإسلامية؟

ـ ربما التقيت ببعضهم مصادفة، فهم لم يقدموا إليَّ أنفسهم على أنهم أعضاء في الجماعات الإسلامية.

ـ عن أي شيء تحدثتم؟

ـ في شؤون الدين.

ـ فقط؟

ـ فقط.

انتهى التحقيق وأقفل المحضر، وتقمص المقدم مجدي شخصية الأخ

الأكبر ونصح الشاب الغشيم بألا يتردد على مسجد أنصار السنة المحمدية، حتى لا يجره الآخرون لاقتراف أعمال يندم عليها، فهو ضابط جيش صغير وعليه أن ينتبه لمستقبله أولا.. فالولاء للجيش يتعارض مع السنة المحمدية، ولا يسمح بالتحدث في الدين مع الجماعات الإسلامية. الجيش التتاري له دينه وشريعته.

واضح أن خالداً لم يسمع النصيحة الغالية، بل سيعمّق انتماءه بالإسلام، ولن يجد راحته إلّا مع الشباب الغاضب لدينه، وواضح أن المقدم مجدي لم يصدّق أن خالداً سيعمل بتوجيهاته، فكتب تقريراً غير مطمئن، وأرسل مذكرة الى قائد اللواء ٣٣٣ مدفعية يطلب عدم اشتراك خالد أحمد الاسلامبولي في عرض ٦ أكتوبر ١٩٨١ لدواعي الأمن. وسيعرف خالد بهذا الأمر، وسيعتبره إهانة شخصية له هو الذي اشترك في هذا العرض عدة مرات.

وخلال مرحلة الطواف على المساجد الممنوعة، يزداد احتقاره للنظام الحاكم، ويتطور الاحتقار الى قناعة بضرورة تطهير الأرض منه ومن صاحبه، لقد وصل الشحن أقصاه، بانتظار اللحظة المناسبة لتفجيره، ويعثر في محمد عبد السلام فرج على الشخص الذي يعبر عن قناعاته العامة ويترجمها الى خطة عمل مباشرة لتحقيق الهدف. فهو يلخص رأيه فيه عندما سئل عنه في التحقيق فقال:

ـ هو فقيه.

ـ **أوضِح.**

ـ عنده علم بالأمور الدينية. ربنا فتح عليه، ويعتبر عالم ، وأكثر من. ذلك أستريح له.

ـ **كيف عرفت أنه عالم؟**

ـ من جلساتي معه، والاستشارة في الأمور الدينية، وهو يخطب الجمعة ويلقي الدروس في مسجد أهلي صغير بجوار منزله.

ـ **هل كان يتولّى تلقينك العلوم الشرعية؟**

ـ لا.

لم يكن الفتى محتاجاً لمعلم، كان محتاجاً لجماعة تضعه في المناخ

الذي يحبه، ولنتأمل عبارته:

« وأكثر من ذلك أستريح له » يقصد بذلك فرج وفكره والمجموعة التي التقت معه، والتفّت حوله، وفي فترة من الفترات قرر فرج أن يدفع بعيداً عنه هذا «الملازم» الشديد الشغف بالإسلام، خاصة بعد أن عرف أن عناصر المخابرات العسكرية ترصد حركاته، ولكن خالداً كان قد التصق بقوة فيهم لأنهم بالنسبة إليه أصبحوا الأوكسجين اللازم لتنفسه وبقائه.

٢ سبتمبر ١٩٨١ تقبض أجهزة «النبوي اسماعيل» على محمد الاسلامبولي على طريقة «زوار الفجر» فيداهم البيت في الثانية بعد منتصف الليل، وتصرخ الأم «ابني» ويعترض الأب: «لماذا؟؟ محمد لم يقترف جرماً».

يؤخذ الشاب بالجلّابية من فراش النوم الى «البوكس» المحمل بالعساكر، ويُقلب البيت عاليه واطيه، لا تُترك فيه ورقة دون فحص، ولا ركناً دون تفتيش. ويخرج الأب في أعقاب التتار يسأل عن محمد ولا من يجيب.

يتصل بابنه الثاني خالد الذي يقيم عند شقيقته في الألف مسكن:

ـ تعال بسرعة، عايزين ناخذ رأيك في بناء بيت على قطعة الأرض اللي انت عارفها.. أيوه أخوك محمد حيكون موجود أيضاً.

في الصباح يتجه الى «الهاكستيب» يطلب اجازة عاجلة من رئيسه المقدم مكرم عبد العال لأسباب عائلية طارئة، فيمنحها له الرجل الذي كان معجباً به لدرجة «حتوديه في داهية» فيما بعد.

ركب خالد القطار في ضيق نفس، كان قلقاً لتلك النبرة المنزعجة التي شعر بها في صوت والده. هناك شيء حدث في البيت، شيء خطير. ما هو، ولماذا أخفاه الوالد ؟ وكتب في مذكراته تحت تاريخ نفس اليوم:

« ان الغنيمة الكبرى لأي مؤمن.. وخلاصه.. هي أن يَقتل أو يُقتل في سبيل الله ».

يصل خالد الإسلامبولي الى بيتهم في «ملوى» فيجد معالم الكارثة التي توقعها منصوبة، فالأم ـ كأي أم مصرية ـ تبكي وتولول وتندب ضناها محمد الذي حرقوا كبدها عليه، وتطلب من الله أن ينجيه لها، فهي

ترى مهمتـه سبحانه وتعالى هي أن يصون عيالها، ولا تفهم مطلقاً أن تحرم ابنها لأنه يضحي في سبيل الله، فالله يحمينا ولا يمكن أن يسمح بتعرضنا للخطر في سبيله.. وهي التي قالت فيما بعد :

« يرجع لي خالد.. ويرجع السادات.. واحنا ما لنا ».

لم يجد خالد والده في البيت ـ خرج يسـأل عن مصير ابنه الذي اعتقلوه ـ وجد شقيقته الكبرى مع والدته، يحيط بهما جمع من الجارات، والقـريبات، ويعرف خالد منهن تفاصيل القبض على شقيقه ومرشده. وكيف كان هذا اليوم هو المحدد لإعلان خطبته على عروسه، فتحول الفرح الى مندبة.

تأثر خالد الجياش العواطف، فهو متعلق بأخيه «الشديد الإيمان» وصـاحب المبدأ الذي يضحي في سبيل الله، بينما هو يخدم في جيش «الطاغوت» فأي فارق فادح بين موقعيهما.

ليست هذه المرة الأولى التي يعتقل فيها محمد ولكنها المرة الاولى الثي تميّزت بالعنف وانتهاك الكرامات.

يعـود أحمـد شوقي الاسـلامبـولي مرهقـاً مكتئبـاً، فيلقـاه خالد بالأحضان: أخوك محمد يا خالد، خدوه.. خدوه الكلاب..

ويختلج الجسـدان المتعانقان، وينزلق الدمع في صمت من العيون التي لم تألف البكاء. يشعر الأب أن جسد خالد المليء بالعضل والعنفوان يتقبض كأنمـا لينفجـر. يعلو نشيـج قدرية البرنس، وتضرب صدرها: «ابني.. هاتو ابني.. آه يا محمد، يا ترى انت فين يا حبيبي».

يمسح خالد عينيه بظاهر يده ويتجه نحو أمه: «اصبري يا أمي.. لكل ظالم نهاية».

هل قالها وهو يعنيها؟

هل قالهـا لمجرد التخفيف عن الأم الملتاعة؟ فهذه إحدى العبارات الدارجة في مثل هذه المناسبات؟

وما هي العلاقة بينها وبين العبارة الأخرى التي عثروا عليها مكتوبة في مذكراته بنفس التاريخ ٣ سبتمبر ١٩٨٣:

«ان الغنيمـة الكبرى لأي مؤمن وخلاصه هي أن يَقتل أو يُقتل في

سبيل الله».

وهل كتبها قبل معرفة الخبر ولقاء الأهل أم بعد هذا الموقف المشحون؟

كل ذلك لا نعرفه على وجه الدقة. الشيء المؤكد أن فكرة القتل والاستشهاد طرقت خيال الفتى بقوة في ذلك اليوم، فعبّرت عن نفسها بدليل مادي وبخط يده.

عاد خالد الاسلامبولي من «ملوى» حزيناً مثقل القلب، شديد الانفعال، محقوناً بجرعة مضاعفة من الغضب ضد النظام الكافر. عادت فكرة القتل تلح على فكره ولكن بلا إلحاح «كانت فشة خلق على الورق» فالنظام راسخ تسنده أمريكا واسرائيل.. والسادات تحميه حلقات أجهزة الحراسة، فتجعله أبعد من العقاب. الفكرة موجودة ولكنها مؤجلة، وهو يعمل مع تنظيم «الجهاد» الذي يجعلها أول أهدافه. وعندما تحين الساعة فهو جاهز لتلبية نداء «الفريضة الغائبة» كواحد من جنود الله.

عاد الى حياته العادية بين بيت شقيقته في «الألف مسكن» وبين معسكره في «الهاكستيب» ولكنه لا يعثر على محمد عبد السلام فرج، لا في بيته ولا في المسجد، فانتابه بعض القلق عليه ولكنه أحس أن الجماعة مطاردة، وأن صديقه هارب. ولم يبق أمامه سوى بلدياته وتوأم روحه عبد الحميد عبد السلام عبد العال الذي يشبه في موضوعنا أحد أبطال الأساطير القديمة التي ظهرت في زماننا الخطأ. شخصاً حالماً لا يملك ذرة واحدة من الخبث، أو ما نسميه نحن ـ الصفات العملية ـ نذر كل نفسه وعمره لله.. ونفذ نذره.

هو أكبر من خالد بخمس سنوات. ولد في مارس ١٩٥٣، وكان مثله الأعلى منذ الطفولة، فكلاهما من «ملوى» وبين أسرتيهما زيجات متعددة ومتبادلة، وكلاهما تربى في طفولته بمدارس «راهبات نوتردام» ككل أبناء المساتير في البلد. وكان عبد الحميد مشهوراً في أوساط الشبيبة بتديّنه، وأنه لم يقطع فرضاً حاضراً منذ كان في الثانية عشرة من عمره، أيضاً كان يصوم الجمعة والاثنين من كل اسبوع على مدار السنة، وأصبح حديث

«ملوى» كلها عندما أصبح «بطل الجمهورية» في رمي الرمح.

كان خالد مبهوراً بقريبه وصديقه عبد الحميد، خاصة عندما ينجح في اقتحام الكلية الحربية التي كانت تفتن خيال خالد الصبي الذي شب متميزا بالقوة البدنية فكان يبدو دائماً أكبر من سنه، وأقوى من عشرة من إخوانه. كان مرهوباً بالفعل.

يتخرج عبد الحميد عبد السلام من الكلية الحربية، ويعمل في قوات الدفاع الجوي، ويتزوج من خديجة رشوان شقيقة حامد رشوان زوج أخت خالد، ليعيش معها في «نجع حمادي» حيث عين قائد سرية مدافع مضادة للطائرات.

فراغ طويل يصرفه ضابطنا الشاب المتورع في الصيام والصلاة وحفظ القرآن والحدب على أهل بيته والعاملين معه، ويتبحّر في قراءاته الفقهية ويتعرف على ابن كثير تلميذ ابن تيمية، ثم على سيد الفقهاء الأصوليين أحمد بن حنبل، ويقتدي به مطبقا العلم على العمل. ويهتم بالشعائر والسنن، فيطلق لحيته ويحف شاربه. يطلبه قائده ويعنفه ويأمره بحلقها، فيرفض ويقدم استقالته، ويوقع عليه عقاباً شديداً، ثم تقبل الاستقالة، ويصبح «سيد الشباب» عاطلاً عن العمل.

يودع الأهل متوجهاً الى أرض الحبيب حيث يعمل في السعودية لمدة عام واحد، ويعود ومعه السيارة «الفيات ١٢٨».

ينتقل مع زوجته الى القاهرة ويسكن في بيت شقيقها في «الألف مسكن» ويعمل بسيارته الخاصة «كتاكسي» ويندمج مع الجماعات الدينية، ويفتح الله عليه فيفتح مكتبه في الشارع نفسه الذي يسكن به، ويطلق عليها اسم الفقيه الذي كان دليله الى الهدى «إبن كثير».

يتخرج خالد ويقيم بالقاهرة حيث يعمل ويسكن عند شقيقته في البيت الذي يقيم فيه صديقه القديم عبد الحميد عبد السلام عبد العال، بطل الرمح، وبطل طفولته، ويجمعهما الإسلام ومجالس القرآن.

بعودته من «ملوى» لا يجد خالد من يبثه ما يشعر به من قهر سوى عبد الحميد الذي يضمه لصدره ويطمئنه بابتسامته التي لا تغيب، والتي أدهشت قضاته في المحكمة العسكرية، فلما سألوه عن سببها قال:

«إن روحي غادرت دنياكم الى الجنة».

لا شك أن حالة خالد الاسلامبولي النفسية كانت في غاية السوء، عقب عودتـه من «ملوى» ورؤيـة حالة أمه وأبيه المبكية بسبب القبض على شقيقـه محمـد. وخلال الإجازة الأسبوعية التي كان يقضيها في بيت شقيقته وجد في صحبة عبد الحميد بعض العزاء، ولكن عدم عثوره على محمد عبد السلام فرج أقلقه للغاية، وتوجس وقوعه في قبضة النبوي اسماعيل.

عبد الحميد تعرف على فرج عن طريق خالد ولكنه لم ينضم للتنظيم لأنه كان يرى أن العنف لن يوصل الى نتيجة ـ في تلك المرحلة على الأقل ـ ولكنه يُكِن إعجاباً بلا حدود لإخلاص الجماعة وحماسهم، أيضاً كان حبه لخالد عميقاً وثابتاً، وكان ألمه للحالة التي يعاني منها صديقه تزعجه وجدانياً، فلم يسبق له أن رأى هذا المخلوق الصلب عادة، على هذا القدر من التعـاسـة، وتصور أن تعلقه بأسرته هو مصدر انزعاجه الشديد، فاقترح عليه أن يطلب اجازة من وحدته يقضيها مع «عم أحمد شوقي» في البلد، وبقرب «الست الوالدة» فيخفف عنهما وليخرج بدوره من قبضة الحزن الذي عكر صفوه.

بالفعـل يطلب خالد اجـازة تبدأ من يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٨١ وحجز تذكـرة «روحة رجعة» على أساس أن يقضي عيد الأضحى مع والديه، ويعود بعد انتهاء عرض ٦ أكتوبر الذي لن يشترك فيه بعد المذكرة التي وصلت من المخابرات والتي تنصح بعدم إشراكه.

كان غاضباً.

نعم.. ولكنه لم يهتم لا بالعرض ولا بصاحبه، وهم لم يحرموه من شرف كبير بعدم إشراكه في تحية الحاكم الفاجر.

رتب نفسه على هذا الأساس، وكتب لوالده يعلمه بحضوره، ويوصي والدته بتجهيز «فتة الخروف» التي يحبها من يديها ـ حاول أن يخفف عنهما بالكتابة وبالحضور ـ ولكن الوقت يمر ببطء مؤلم.

اذا كان أحد ما قد اتخذ قرارا تنفيذيا بقتل محمد أنور السادات فان هذا «الأحد» يكون هو الرائد مكرم عبد العال الرئيس المباشر للملازم أول

خالد أحمد شوقي الإسلامبولي، والرجل الذي كان بلا شك يُكن للملازم خالد تقديراً فوق المعتاد ، فهو بالنسبة له «القوي الأمين» ويبدو أن هذا الرائـد التـاعس الحظ كان يولي الجانب الإنساني اهتماماً صادقاً في مؤسسة تضع الإنسانية «تحت الجزمة» وتتعامل وفق منطق آخر تماماً.

في اليوم ٢٣ سبتمبر وقبل سفر خالد بيومين وقبل العرض بأسبوعين استدعى الرائد مكرم مرؤوسه الملازم خالد الى مكتبه وقال له متحرجاً:

ـ آسف يا خالد، مش حقدر أخليك تطلع بإجازتك.

ـ لكن يا فندم انا حجزت التذاكر، وسيادتك عارف ظروفي و..

ـ أنا عارف يا خالد، لكن حصلت أمور طارئة، وأنا بأمس الحاجة لك كي تشترك في العرض العسكري، فزميلنا النقيب عبد الرحمن سليمان يمر بأزمـة صعبـة.. نقلوا زوجته محروقة الى المستشفى بين الحياة والموت.. ولولا ذلك لسمحت لك بالسفر فوراً، ولحل النقيب عبد الرحمن محلك في العرض العسكري.. آسف يا خالد، ما باليد حيلة.. انما قل لي.. إيه أخبار أخوك محمد؟

ـ العلم عند الله.. من يوم ما قبضوا عليه واحنا منعرفش عنه أي حاجة.. وده السبب اللي خلّاني متمسك بالإجازة، يا فندم.

ـ ما فيش فايدة يا خالد.. متحاولش.

ـ لتكن مشيئة الله..

ـ والله يا خالد إنت مفيش زيّك.

ـ لتكن مشيئة الله، فنحن لا نملك شيئاً من الأمر..

ـ اذهب فوراً الى مخيم اللواء بتاعنا في مدينة نصر، فنحن سنشارك في العرض بقوة مكونة من اثناشر مدفع بالمقطورات، سأقود أنا أربعة منها..

ـ حاضر يا فندم..

ـ لا تنس التأكد من تمام أطقم الرجال والعربات.. وإذا تغيّب أحد فلا ترجع لي.. تصرف انت..

تغـيّرت المخـططات رأسـاً على عقب، وبالنسبة لشاب في نقاء خالد وتقواه، فإنه يرى ما حدث هو إرادة سماوية لها مغزى، وليست مجرد عبث.. فكـل شيء مقدر سلفاً.. وما قدر يكون.. فهو لن يقضي العيد في

«ملوى» لحكمة، وسيشارك في العرض رغم توصية المخابرات لسبب «يد الله فوق أيديهم» ورئيسه المباشر لم يشر لذلك المنع رغم أنه يعرض نفسه للمساءلة. كل ذلك له مغزى. مضى يفكر في معنى ذلك كله وهو مستلق فوق سريره داخل القشلاق في «الهاكستيب» وهو معسكر يحمل اسم القائد الانكليزي الذي أنشأه خلال الحرب العالمية الثانية، ثم تحول الى معتقل شهير للإخوان في حكومة ابراهيم عبد الهادي.

راح خالد يتمعن في كل الذي يحدث له وللبلد.. ورأى أنه عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.. فربما كان هذا التأخير فيه خير له ولمصر، لقد حاول الابتعاد عن مركز الأحداث، ولكن مشيئة الله تضعه في قلبها.. العناية تسخره في مهمة كبيرة.. تضع بيده فرصة لم يكن يحلم بها.. سينفذ حكم الله، في رأس الكفر.. سيقتل « الطاغوت » في قلب العرض، انها المعجزة التي ستتحقق لأهون الأسباب.. كل الدلائل تشير الى ذلك.. سيعثر على محمد عبد السلام فرج، ويخطره بما حصل وما عزم عليه، ويسأله الرأي والمعونة.. ولكن أين هو؟ وكيف سيعثر عليه؟

صباح اليوم التالي، شارك خالد مع وحدته المكونة من أربع عربات في «بروفة» كاملة للعرض العسكري. كانت نية الهجوم الانتحاري على « الطاغوت » تبلورت وحسمت. وأثناء مروره أمام المنصة، أخذ يرسم بعين الخيال « سيناريو » العملية.

ما زلنا في يوم الخميس ٢٤ سبتمبر ١٩٨١، وغداً الجمعة هو الإجازة الأسبوعية، سيقضيه مع الصديق عبد الحميد، وسيفاتحه في المشروع فقد يساعده بالرأي في غياب فرج.

تنتهي «البروفة» ويعود الى موقعه وقد أصبحت الخطة هي هاجسه، فيرجع مرة أخرى الى المنصة حيث سيجلس السادات، وبدأ يقيس المسافات على الطبيعة، ويحسب ترتيب الخطوات، والوقت اللازم للتنفيذ.. كانت كل حساباته مبنية على أنه سيفعلها.. وحده.

نحن الآن في يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر ١٩٨١. خالد الاسلامبولي حضر أمس من القشلاق في ساعة متأخرة، وقضى ليلته في نوم منقطع مزعج. وقبيل الفجر صحا وتوضأ بهدوء، حتى لا يزعج أحداً في بيت

أخته، وخرج متسحباً من الباب صاعداً الى شقة صديقه عبد الحميد، فوجده كالعادة مستعداً للخروج لأداء صلاة الفجر جماعة، فنزلا معاً للمسجد القريب، ليعودا عقب الصلاة الى شقة عبد السلام حيث كانت خديجة قد جهّزت الإفطار لزوجها وصديقه. بعد طبق الفول، وكوب الشاي نزلا معاً الى « مكتبة ابن كثير » لصاحبها عبد الحميد عبد السلام الذي فتح بابها ودخلها مع خالد ليجلسا معاً يتناقشان في فقه ابن تيمية وكتاب سيد قطب وما يتوجب على المسلم عمله لإنقاذ عقيدته ، والحال التي وصل إليها الإسلام والمسلمون .

عبد الحميد يرى أن على المسلم أن ينضم إلى «الفئة الناجية» التي تحدث عنها الرسول ﷺ ووصف أصحابها بأنهم هؤلاء الذين يتمسكون بالكتاب والسنة لا يتخلون ولا ينحرفون.. ولا يعنيهم ضلال الآخرين .

خالد كان يرى الفداء والجهاد والاستشهاد هي طريق نجاة الفرد والأمة معاً. أما التمسك بالسنة وحدها فهي نجاة للفرد فقط.

لم يكن هناك خلاف بالمعنى الدارج، إذ عبد الحميد أيضاً يرى الجهاد فرض عين، وطريقاً مؤكداً لجنة الخلد، ولكن إعلان القتال يصح فقط عندما تتوفر فرص نجاحه، حتى لا يكون مجرد انتحار.. ونحن نُهينا عن إلقاء أنفسنا بأيدينا الى التهلكة.

أيضاً هو أهدأ طبعاً من ابن الاسلامبولي الميال للعنف البدني.

قبل صلاة الجمعة يتوجهان الى مسجد عين شمس لسماع الخطبة، فكل الخطباء الكبار قبض عليهم السادات في أول الشهر.

حتى هذه اللحظة لم يخبر خالد صديقه بقراره الخطير. كل الحوار بينهما لم يفتح الباب المناسب ولا اللحظة المناسبة لإلقاء القنبلة.

خلال الخطبة وفي أثناء الصلاة، يشعر خالد المملوء بالفكرة كأن هاتفاً من السماء يدعوه للتنفيذ ـ علينا أن نصدق ونؤمن بما يقوله فتى على هذه الدرجة العالية من الشحن الوجداني والإيماني إذا كنا مؤمنين أصلاً ـ وفي طريق العودة يقول خالد لصاحبه:

ـ يا عبد الحميد، سمعت أثناء الصلاة هاتفاً من داخلي يدعوني لقتل الطاغوت أثناء العرض.. وأن الله اختارني لهذه المهمة، ورتبها لي.

بهت عبد الحميد، وأدرك خطورة القول وجدية القائل:

ـ إستعذ بالله.. إن هي إلّا وساوس الشيطان همس بها في أذنك.

ـ يا أخي لقد حان الوقت لتخليص الأرض من عدو الله، واشتراكي في العرض إنما تم لسبب.

ـ دعك من هذا الهاجس، فكل ما سوف تفعله هو انك سترمي بنفسك للموت مجاناً، ولن تحقق شيئاً لنفسك ولا للإسلام.. عموماً عندي لك خبر سينسيك هذه الأفكار الخطرة..

ـ خبر إيه ؟

ـ أخونا محمد عبد السلام فرج، مريض في داره، وهو يسأل عنك، وقد نسيت أن أخبرك. ألهاني حديثك.. فهل ستزوره ؟

ـ ودي عايزة كلام ؟؟

قالها وترك صاحبه مهرولاً الى « بولاق الدكرور » يخوض في مجاهلها، ليصل الى شارع أحمد فايد المسمى على اسم كبير أسرة «عزة» زوجة محمد عبد السلام فرج .

في أثناء الطريق تأكد خالد أن ظهور فرج في ساعة الضيق تلك هو أمر يقع ضمن تلك السلسلة من الترتيبات الربانية لتحقيق ارادة عليا.. فهل حقاً حانت الساعة ؟

يصل أخيراً الى حيث ينام فرج في غرفة ضيقة، حيطانها المبنية بالطوب الأحمر غير مغطاة بالملاط، والأرض عارية متربة والسرير الحديدي الذي ينام عليه جاف متسخ، وكل شيء تنبعث منه رائحة خاصة، فيها اختلط العرق بالعطن، بعبق النوشادر النفاذ. أما فرج فصورة مجسدة للتعاسة والمرض وإحساس المطارد.. نحلَ عودُه، وغارت عيناه وتحوّل بياضهما الى عروق من الدم. قدمه في الجبس، ورأسه عليها كمادات باردة.

صعق خالد للحالة التي تواجهه، فقرر ألّا يفاتحه في شيء، فمن الواضح انهما تجسيد للمثل المصري « جيتك يا عبد المعين تعينّي.. لقيتك يا عبد المعين.. عيّان ».

حيّاهُ وجلس على حافة الفراش المترب، فقال فرج متحرجاً:

ـ طلبتك يا أخ خالد كي تساعدني في العثور على ملجأ بعيد عن عيون

المباحث، فأنا أشعر بأنفاس هؤلاء الكلاب تقترب مني يوماً بعد يوم..

ـ سأفعل بمشيئة الله وعونه، ولكن مال رجلك ؟

ـ كسرت رجلي وأنا في طوخ، ودخلت مستشفى المبرّة، فحولوني الى القصر العيني لأن الكسر كان مضاعفاً.. وخرجت الى هنا أمس الأول، ولن أستطيع البقاء في هذا المكان مدة طويلة، فكلاب الصيد تقترب خاصة بعد فشل الأخ عبود الزمر في محاولة اغتيال الطاغية، أثناء رحلته بالقطار الى المنصورة.

ـ كيف حاول.. وكيف فشل ؟

ـ ألم تسمع السادات وهو يحذره في الراديو قائلاً: الواد بتاعهم الهربان.. حنمسكه.. وحيقع في أيدينا.. أنا بحذّره وهو سامعني دلوقتي.. إحنا عارفينه ؟

ـ لم أسمع.. إيه القصة ؟؟

ـ قرر التنظيم اغتيال السادات أثناء وقوف القطار بالمحطات، وجهزنا القنابل والرشاشات. وخرج الأخ عبود الزمر في سيارة فولكس فاكن، وسبق قطار السادات على أن يندس بين الجماهير التي حشدوها لاستقباله، ويطلق عليه النار في الزحمة ويهرب-.

ـ وماذا حدث ؟

ـ ظهرت طائرات الهيلوكبتر تمسح الطريق على ارتفاع منخفض، ويبدو أن إحداها شكّت في السيارة التي تقل المجموعة، فأخذت تحوم حولها وتقترب منها أكثر من مرة بشكل خطر، فتأكد الأخ عبود أن الخطة انكشفت، وأنه سيقبض عليهم ومعهم السلاح خلال دقائق، فانحرف بالسيارة في طريق فرعي، وتوارى بها بين الأشجار، وهرب من المطاردة الجوية والأرضية التي استغرقت ساعة ثم توقفت بعد ذلك.

خالد الاسلامبولي يسمع من محمد عبد السلام فرج قصة محاولة عبود الزمر الفاشلة لاغتيال السادات وهو مبهور. إذاً فالتنظيم يفكر في القضية التي تشغله، بل ويحاول، وعلى هذا فالموضوع وارد والدروب سالكة. وبدت له الغرفة الحقيرة مدخله الى جنة رضوان.. بل ان فرج المطمور بالوسخ، المجبور بالجبس هو « رضوان » نفسه الذي سيسلمه

المفـاتيـح.. لم يكن يفكـر في خطة تتضمن المـراحل الثلاث: الهجوم.. التنفيـذ.. الانسحاب.. كما تقضي العلوم العسكرية التي درسها. كان يفكر في شيء واحد: « الاستشهاد » سواء نجح أو فشل.

كان سلوك سيد الشهداء حمزة أسد الله وعم النبي، وبطل بدر، هو النمـوذج الذي يتـوهّـج في أعمـاق روحه. الاسلام اليوم ليس بحاجة لحسابات. الاسلام بحاجة لتضحيات.. على هذه القيم نشأ، ولمثل هذا اليوم ولد.

قاطع حديث فرج الذي كان يخـوض ساعتها بإسهاب في موضوعه المفضل « طغيان التتار » والحاجة للجهاد، وقال وهو شبه ساهم:

ـ إسمـع يا أخي.. سأقص عليـك أمـراً غريباً وقع لي أثناء صلاة الجمعة اليوم.

ـ خير يا أخ خالد؟

ـ سمعت هاتفاً من أعماقي يقول بأنني مكلف بقتل الطاغية.. سمعته بكل الوضوح الذي في الدنيا، لم أكن حالماً ولا واهماً.. وأخبرت أخي عبد الحميد بما سمعت فقال إنما هو نزغ من الشيطان.

ـ لا بل أخطأ عبد الحميد. إن هذا الهاتف ليس إلاّ الوحي، وليس هاتف الشيطان، فقتلُ الطاغوت وجب والآن...

ـ ولكن..

ـ يا خالد ان الشيطان لا يدخل المساجد، وإنما تدخله الملائكة. ثم انه لا حل للمأزق الراهن إلا باغتيال الظالم، خاصة بعد الضربة التي كالوها لنا، فقد اعتقلوا أنشط عناصرنا وآخرهم الاخ نبيل المغربي، والاخ عبود الزمر ما زال هارباً، وأنا مكسور محاصر.

انقطع خيط الحوار بينهما فجأة، وغرق كل في أفكاره الخاصة. قطع فرج الصمت سائلاً صاحبه:

ـ إيه رأيك يا خالد.. هل يمكنك المساعدة بشيء يا أخي؟

كان يهدف المساعدة في تدبير مأوى له بعيداً عن بيته المراقب، ولكن خالد الاسلامبولي المشغول بأمر الهجوم على السادات فسر السؤال على أنـه طلب من رئيس التنـظيم للمسـاهمـة في عمليـة تنفيذ القصاص

بالخائن.. فرد ملهوفاً:

ـ اسمع يا أخي.. إنني كُلِّفتُ أمس الأول بالمشاركة في استعراض ٦ أكتوبر.. وأنا مستعد لعمل أي شيء يخلصنا من الظالمين.. أي شيء.

كانت المفاجأة صاعقة على المفكر الهارب ، الغارق في هزيمة تنظيمه والذي أصبح مكشوفاً لعقبان النبوي، فهذا الملازم الشاب والجديد على الحلقة يفتح له أبواب احتمالات باهرة جداً تفوق على الاستيعاب، لا يمكنه بلعها مرة واحدة.. هل يصدقه.. أم يكذبه؟ يقترب أم يبتعد؟ يطمئن له أم يغلّب الشك فيه؟ غير طبيعي أن تأتي النجدة بهذه السهولة.. أن تنقلب الفرائس الى مفترسين . عموماً في مثل هذه الظروف الشديدة الضنك فإن الأمور تستوي مع بعضها، فحاول أن يجس نبض محدّثه ويختبر مدى جديته فسأله :

ـ حسب معلوماتي يا أخ خالد فإن النجاح ضئيل في ضربة من هذا النوع، خاصة وان احتياطات الأمن أثناء العرض تكون شديدة للغاية.. ولن تكون هناك فرصة تقريباً.

ـ لا تقل هذا الكلام والله معنا ولن يتخلى عنا. وأنا لست جديداً على ظروف العرض، فقد شاركت فيه، وكُتب عليَّ أن أمر أمام المنصة، وأحيي أعمدة الظلم.. وأؤكد لك بأن النجاح ممكن جداً متى توفّر العزم والإيمان، فالجميع لا يتصورون إمكانية وقوع مثل هذا الهجوم وهنا تكون المباغتة كاملة، والاطمئنان الخادع للخصم من مصلحتنا.

ـ يبدو أنك فكّرت في الموضوع جيداً.

ـ يعلم الله انني لم أنم منذ ألغيت إجازتي، وأشركوني في العرض ضد إرادتي، فعرفت أنها إرادة الله..

ـ ونِعمَ بالله وعليه نتوكّل.. الآن ماذا تريد منّا.

ـ الأسلحة اللازمة، وثلاثة عناصر مدرّبة مستعدة للشهادة، ليحلوا محل ثلاثة جنود تغيّبوا من السرية، وأنا كفيل بإدخالهم أرض العرض.

ـ كل هذا سهل يمكن تدبيره بعون الله. ولكن أخبرني.. هل فكّرت في خطة للهروب من أرض العرض بعد إتمام العملية ؟

ـ لا أفكر في الهروب وما ينبغي لي.. كل هدفي هو تخليص الأرض من

الطاغية.. وأطلب من الله أن ينعم عليّ بثواب الشهداء.. والآن يا أخي ماذا سنفعل الآن ؟؟

ـ أمهلني بعض الوقت لأتدبر أموري، وأجمع مجلس الشورى لنبحث هذا القرار الخطير.. فأمرهم شورى بينهم..

انتهى هذا اللقاء غير العادي والذي أسفر عن نتائج غير عادية بالنسبة لطرفيه وبالنسبة لتاريخ مصر كلها، حيث ما زالت تفاعلاته مستمرة من يومها وحتى تاريخ غير منظور. وقد ورد هذا الحوار في محاضر التحقيق ولكن بصيغة بوليسية شديدة الفجاجة.

قبل أن يغادر خالد الاسلامبولي وقف كعسكري منضبط أمام زعيمه «الديمقراطي» فوق العادة.. ودق كعبيه.

ـ أي أوامر ؟

ـ ماذا عن تدبير مأوى لي يا أخ خالد. إن بقائي في هذا المكان أصبح خطراً جداً، ويجب أن أغادره بأقصى سرعة.

ساد صمت قصير ثم هتف خالد كمن عثر على الحل السريع بغتة:

ـ أختي.. انني أقيم معها ومع زوجها في بيتهم بالألف مسكن.. وأنا واثق أنهما سيسعدان باستضافتك عندهم حتى ندبر لك ملجأ آخر أكثر أمناً.

قال ذلك، وكتب له العنوان على ورقة، وانصرف يسبقه كي يدبر له الإقامة.

اعترض زوج شقيقته، عندما علم بأمر الضيف الذي سيحل بداره غصباً عنه. اعترض على ذلك مخافة أن يكون القادم من جماعة ـ المغضوب عليهم ـ من الهاربين المطاردين، فطمأنه خالد، وهدّأ مخاوفه:

ـ لن تطول إقامته أكثر من هذه الليلة، وغداً سأدبر له مكاناً آخر..

ـ إذا كان الأمر كذلك فلا بأس.. فأنت يا خالد تعرف الظروف كويس.. وأكبر روس في البلد رموهم في طرة يا ابن عمي..

يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر ١٩٨١، تحركت فيه الأحداث بشكل أقرب لتدافع عربات السباق في مضمار كثير المنحنيات، شديد الانحدار لا يسمح بالتوقف أو حتى بتهدئة السرعة، وسيقوم خالد الاسلامبولي بدور

القطب المغناطيسي الهائل الذي يجذب الجميع الى مجاله ويعطيهم اتجاههم بالنسبة لحركته.

بعد صلاة الجمعة أبلغ صاحبه وبلدياته عبد الحميد بنبأ « الهاتف » الذي كلّفه بالقصاص من « الطاغوت » فبوغت صاحبه وقال: هو الشيطان..

يتحدث بعد ذلك الى فرج المطارد المريض فيقول: بل هو الوحي..

يدبر خالد أمر مبيت فرج في بيت شقيقته برغم اعتراض زوجها، ولكنه يقنعه بأنها ضيافة مؤقتة..

يحضر فرج وزوجته و عبد الناصر درة إلى المأوى المؤقت في سيارة صفوت ابراهيم وبذلك تنتقل قيادة التنظيم الى منطقة الألف مسكن، فيرسل فرج صاحبه عبد الناصر درة لاستدعاء صالح جاهين، وعقد الأربعة اجتماعاً سريعاً عرضت فيه الفكرة، وتمت الموافقة عليها، وتكفل جاهين بتدبير الأسلحة والقنابل، وقضوا ليلتهم في بيت شقيقة خالد.

يلتقون مع عبد الحميد الذي يسكن في شقة فوقهم عند صلاة الفجر، وعندما يعرف أنهم قرروا المضي في الخطة وأنهم بحاجة لمأوى عاجل، حتى يغادروا بيتاً يعترض صاحبه على بقائهم فيه، يتقدم عبد الحميد بشهامة فطرية فيه:

ـ وتروحوا بعيد ليه ؟ بيتي مفتوح..

تنتقل العملية الى فوق طابقاً واحداً، ويصبح عبد الحميد في مركز الدوامة التي تصورها من «نزع الشيطان» الوسواس الخنّاس. ويخرج صالح جاهين لتدبير السلاح.

لقد خرجت العملية من إطار الفكر المجرد الى حيّز الوجود الحركي.

كما أصبح من الضروري الاتصال مع المسؤول العسكري في التنظيم، عبود الزمر، وإبلاغه بأمر العملية الجديدة، وكان في ذلك الوقت مطارداً من كل رجال الأمن المصري، عقب اكتشاف المحاولة التي قام بها لاغتيال السادات ومداهمة شقته، وخطاب الرئيس التهديدي الموجه له يوم ٢٥ سبتمبر:

ـ أنا عارف فيه ضابط منهم هربان، وربما يكون هو بيسمعني

دلوقتي.. إحنا اعتقلنا كل الآخرين في خمس دقائق.. واذا كان هو قدر يهرب، فأنا بقول له اننا وراه هو الآخر..

من هو هذا الآخر؟

هو نفسه عبود الزمر أكبر أعضاء تنظيم الجهاد سناً ـ باستثناء الدكتور عبد الرحمن ٤٢ سنة مفتي التنظيم الكفيف ـ فقد كان الزمر يوم « حادث المنصة » في السادسة والثلاثين أي أكبر من خالد باثنتي عشرة سنة.. ولد في القاهرة بحي الإمام الشافعي حيث الفقر والتقوى متلازمان من عهد قلاوون. حصل على التوجيهية من المدرسة الثانوية العسكرية والتحق بالجامعة، وبعد تخرجه دخل الحربية وأصبح ضابطاً في المخابرات العامة. وعندما توفي والده أصبح العائل الوحيد للاسرة. وتزوج لأول مرة زواجاً عاصفاً لم يستمر لأكثر من أشهر ثمانية.. ثم اقترن بابنة خالته «وحدة» واستقر معها حتى قبض عليه بعد أربع سنوات من الزواج، وهي شقيقة طارق الزمر مساعده وأقرب الناس اليه في التنظيم.

كان عبود الزمر الذي رافق السادات كثيراً ضمن طاقم المخابرات بحراسته يكن احتقاراً عميقاً وشخصياً للرجل وأسرته وبطانته وعهده.. ولأنه من المخابرات فلم تتوفر معلومات كافية عن تاريخ خدمته وسبب خروجه من السلك. وهو أيضاً لم يتكلّم كثيراً عن هذه المرحلة أثناء التحقيقات ولا في المحكمة، فبدا لغزاً محيّراً، بينما رفاقه كالكتب المفتوحة، مهتماً بوضعيته وشخصه داخل جماعته، بينما الآخرون غير مكترثين بالدنيا ومن عليها !!

ربما لهذا السبب قال عنه عبد الحليم رمضان المحامي:

ـ هذا رجل لديه سر لا يعلمه إلّا الله .

* * *

يتصل صالح جاهين مع طارق الزمر ويبلغه بالوقائع الجديدة ليوصلها لابن خالته بأسرع وقت، ويضع أمامه صورة كاملة للموقف .

يتم اجتماع طارق وعبود على «مقهى التحرير» في شُبرا بناء على

ترتيبات قام بها عبد الله سالم عضو التنظيم في كلية أصول الدين.

قال طارق:

ـ محمد عبد السلام فرج اتصل بي بشكل عاجل كي أبلغك أن الخطة لإقامة الدولة الإسلامية قد كشفت، والمطاردة عنيفة، وأن العناية أرسلت له ملازماً أول اسمه خالد الاسلامبولي مشترك في العرض العسكري ولديه الرغبة في قتل السادات. ومن مصلحة التنظيم حالياً أن نعاونه، ونسهل له كل ما يطلبه حتى نفطر بالسادات قبل أن يتغدى بنا..

قال عبود:

ـ إنكم تلعبون بالنار.. من أدراكم أن خالد هذا ليس مدسوساً عليكم ؟ ثم أنتم لا تعرفونه جيداً، فكيف تطلعونه على أسرارنا ؟ ثم أن فكرة الاغتيال في حد ذاتها لن تحقق النتائج التي اتفقنا عليها، وهي إقامة الدولة الإسلامية.

إنني لا أعترض على قتل السادات من حيث الشرعية، ولكني أعترض لأننا لم نكمل استعداداتنا لقيام ثورة شعبية تعم البلد كلها كما حدث في ايران.. أمامنا عامان أو ثلاثة لنحقق ذلك.. ولا أدري لماذا يصمم فرج على قتل السادات الآن ؟

هل نسيت انني فشلت في محاولة قتله في المنصورة منذ ساعات، وقد قبضوا على أفضل عناصرنا ؟!

قال طارق:

ـ إن فرج يقول لك ان المهمة سيقوم بها خالد ومجموعة محدودة من الأفراد.. ونحن كتنظيم لا علاقة لنا بها. وهم من جانبهم سينفون أية علاقة لهم بنا إذا ما قبض عليهم.. ثم ان هذه عملية استشهاد في سبيل الله، لأن الحرس المحيط بالسادات سيقضي عليهم حتماً.. كل ما نتمناه أن ينجحوا في القضاء عليه..

قال عبود:

ـ اذا كان الأمر كذلك فأنا موافق.. ولكني أرجو أن تخبروهم بأن هناك اجراءات كبيرة قد تعيق دخولهم أرض العرض والاندماج في الكتيبة التي سيشتركون فيها، وهذه ليست عقبات هيِّنة يمكن تخطيها بالنوايا

الطيبة فقط.. أفهموهم ذلك رجاءً..

عموماً فلو نجحوا في الوصول الى كتيبتهم دون أن ينكشف أمرهم فان تسعين بالمئة من الخطة يكون قد تحقق.. ويجب أن يأخذ فرج حذره لأن أي تهور قد يطيح بنا جميعاً.. وعليه ألّا ينسى أننا مطاردون ومحرومون من منازلنا.. ولن تنام عيون الأمن حتى يُقبض علينا جميعاً..

عندما نطلق على ما وقع في حادث المنصة صفة تنفيذ عقوبة الإعدام بحق السادات فإن ذلك ليس مجرد تعبير أدبي، حيث عرض محمد عبد السلام فرج مشروع الأخ خالد الاسلامبولي أمام الحضور، فوافقوا على السير فيه.

هذا المجلس بمثابة محكمة شرعية تمثلت فيها كل مصر، مثقفين وعمال وفلاحين، وتضم عالماً أزهرياً متفقهاً أصولياً يحمل درجة الدكتوراه.. وفي كل التنظيمات الاسلامية السابقة في مصر لم يصل أي منها لإقرار مشروعية العنف المسلح كطريق وحيد ومباشر لإقامة الدولة الإسلامية.. بل كان معظمها ينفي عن نفسه شبهة الطموح في الوصول الى الحكم .

ربما لأن العمل في سبيل الوصول للحكم في مصر يعتبر جريمة في نظر النظام الذي أصبح كل همه أن يحكم.. وليته استطاع ـ وهذا وصف أطلقه المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود على حكومة الاتحاد والترقي في تركيا ـ الآن أصبحت المواجهة مكشوفة، وكل يعرف شغله.

المرحلة التي أعقبت صدور الحكم كشفت عن تغيير جذري في المناخ المصري والنفسية المصرية. سنجد مثلاً أن تنظيماً سريّاً محاصراً مطارداً يثق بسرعة في متطوع جديد على صفوفه، وينفتح أمامه كاملاً.. وهذا معناه «غفلة ساذجة» أو ثقة كاملة بأن أهداف الجماعة أصبحت أهدافاً عامة تقتنع بها الغالبية العظمى من الشعب والشباب على وجه الخصوص .

الاحتمال الثاني هو الأصح فالتحريض الإسلامي وصل الى الذروة في المساجد، حيث تعدد نموذج «كشك» و «المحلاوي» في الجوامع، وأيضا في الجامعات، حيث سيطرت أفكار الجماعات الاسلامية وفي الاحياء الفقيرة التي لا يجد أهلها سوى اللجوء الى «باب الله».

أيضاً النظام نفسه قدم لقضاته كل حيثيات التخلص منه .

بعد صدور الحكم، تدور العجلة باتجاه الهدف.. استدعاء الرجال، والحصول على السلاح. في هذه المرحلة أيضاً سنندهش للسهولة التي يتطوع بها شباب لا يعرفون بعضهم للقيام بعمل انتحاري.. شباب يعيشون حياة عادية لا يضمهم معسكر تدريب، ولا يمرون بعمليات شحن عقائدي.. بل سنجدهم مشحونين وحدهم كأنهم يخزنون الهدف في عقلهم الباطن.. وكأن الهواء في مصر أصبح معبأ بطاقة هائلة من الغضب حوّلت الشباب ألغاماً جاهزة للانفجار، وعندما نقرأ محاضر التحقيق سنجد ان الاستجابة لعبارة « تعال نقتل السادات » ستتم بالعفوية نفسها لعبارة مصرية أخرى هي « تعال نقعد على القهوة ».. مسألة سهلة وواردة ولا تستدعي التفكير ولا أي تردد.

مثلا عطا طايل وهو صديق طفولة ودراسة مع فرج في بلدته من الدلنجات ومهندس مثله ـ خريج هندسة اسكندرية ـ لم تكن مشاركته واردة على البال، ولكنه سمع بإصابة صاحبه فذهب كي يعوده بمنزله في «بولاق الدكرور».

هناك عرف من عبد الناصر عبد العليم انه مختف من مطارديه في منزل عبد الحميد عبد السلام وأعطاه العنوان بحي الألف مسكن. وعندما وصل هناك لم يكن فرج وحده. كان معه خالد الاسلامبولي. وتقول حيثيات المحكمة:

«إن عطا طايل دخل على عبد السلام فرج في حضور خالد، فقام فرج بتعريفهما ببعض، وأشار خالد الى فرج مستفسراً قبل أن يفتح الموضوع معه ـ أي مع عطا ـ في الأمر، فوافق محمد عبد السلام مزكياً إياه لخالد الذي راح يخبره بأوضاع البلاد سارداً الأدلة الشرعية سواء من الكتاب أو السنة على كفر الحاكم، ووجوب قتله، وقام بقياس الأمر شرعاً على ما لديه من أحكام فقهية.. فوافق عطا طايل على المشاركة».

هكذا في جلسة واحدة وبقيادة شاب يصغره سناً يوافق «عطا» على المشاركة في عملية تكلِّفه حياته.

حسين عباس صاحب الرصاصة الحاسمة، وبطل الجيش في الرماية

عدة سنوات.. والمريض بالقلب، الذي تنتظر زوجته طفلهما الأول، والذي يعمل رقيباً متطوعاً، ونقل من الجيش العامل للجيش الشعبي نظراً لظروفه الصحية، لم يأت وحده. بل ذهب اليه عبد الحميد ليقابله بمسجد الأنوار المحمدية في عين شمس بتكليف من فرج حتى يسلمه مبلغاً من المال لاخته المتزوجة من نبيل المغربي أحد زعماء التنظيم الذين قبض عليهم في قرارات «سبتمبر».

حضر حسين مع عبد الحميد ليجدا خالد مع فرج. وبعد التعارف بين حسين وخالد اللذين يلتقيان لأول مرة قال فرج:

- إن هناك عملية استشهاد في سبيل الله سيقوم بها أخونا خالد، وهو يحتاج لمن يساعده في تنفيذها.. و .. و ..

يشرح فرج العملية مهتماً بالجانب الشرعي فيها، وبعده يشرح خالد الجانب التكنيكي فيها.. فيوافق حسين عباس (القناص) فوراً وبحماس شديد، وهنا يقول عبارة لها مدلولها:

« كنت أتمنى ذلك، وطالما دعوت الله أن يشفي غليلي، وأصرع الظالم ».

وصرعه..

نحن في يوم ٢ أكتوبر. حتى تلك اللحظة، ولم يبق على العرض سوى أربعة أيام، وقد بدأت الذخائر تتوارد من بلبيس وقرية الحجرة المجاورة لها والخطاطبة والزقازيق، أي أن ترسانة «الشراقوة» هي التي موّنت العملية بالرصاص والقنابل بغزارة.. وقام المقدم أبو جبل بتوريد ما يلزم من إبر إطلاق النار والطلقات، وهو الآخر شخصية غامضة، طُلب للمحاكمة كشاهد ملك، وليس كشريك !! حتى أن خالد الاسلامبولي نفسه طلب من محاميه ألّا يحرجه بالأسئلة في المحكمة !!

بقي عنصر ثالث لتكتمل الزمرة المطلوبة. وحدث في نفس ذلك اليوم تغيّر مفاجىء في موقف عبد الحميد صديق خالد والذي رأى أن العملية لن تنجح ولكنه وضع بيته وسيارته تحت تصرف المجموعة.

دخل عبد الحميد شقته فوجد «الفرسان الثلاثة» يقومون ببروفة عملية للموقعة المقبلة. قام عطا طايل بدور السادات وقام حسين عباس

بتصويب بندقيته نحوه. وتقدم خالد يلقي عليه القنبلة. وتهاوى عطا يتأوه من الألم.

وقف عبد الحميد على الباب يرقب المشهد «العيالي» وهو يبتسم بسمته التي أذهلت قضاته فيما بعد.

تقدم عبد الحميد نحوهم يحتضنهم قائلا:

ـ وحياة ربنا لن أسمح لكم بتنفيذ العملية من غيري، وأتركهم تدخلون الجنة وحدكم.

تدمع عين خالد من الفرح.

ـ إنت أخونا يا عبد الحميد، وأفضل منا جميعاً.

وفُتِحت له أبواب الجنة...

تأمنت الذخائر من رصاص وقنابل، واكتمل عدد الزمرة التي تعاهدت على الموت، وأصبحت المسألة مسألة وقت.. سينتقل محمد عبد السلام فرج يوم السبت ٣ أكتوبر من شقة عبد الحميد الى عيادة طبيب أسنان في الزيتـون بسيارة صفوت الأشوح وهي عيادة تملكها شقيقة زوجته التي أغلقتهـا وتـركتها عهدة عند صفوت يتصرف فيها بمعرفته خلال تغيّبها حيث تعمل في الخليج .

أما خالد الاسلامبولي فقد ذهب الى مقر عمله في الجيش كالمعتاد، وقد اطمأن الجميع أن كل شيء ـ تمام يا أفندم ـ وسيمضي اليومان التاليان في أعمـال عاديـة، وتجميـع كميـات إضـافيـة من الذخيرة على سبيل الاحتيـاط.. وكان المتفق عليه أن تجتمع العناصر الأربعة المشاركة في العملية مساء الأحد ٤ أكتوبر على قهوة في ميدان الاسماعيلية بمصر الجديدة، ومن هناك يصحبهم خالد للالتحاق بأفراد وحدة العرض التي يقودها . أيضاً سيدبر أمر دخولهم أرض العرض بتصاريح مزورة.

بالفعل يلتقي حسين عباس وعطا طايل وبعد صلاة العشاء يتجهان الى شارع أحمد عصمت وقد لبسا زي جنود في القوات المسلحة، وانتظرا هنـاك قليـلا حتى وصل عبد الحميد، وحملهما بسيارته «الفيات» الى القهوة المتفق عليها، وتركهما عائداً لبيته حيث حلق لحيته، وغيّر ملابسه الشرعية بملابس عسكرية، ليلتحق بهما بعد ساعتين .

حضر خالد وهو يقود سيارة عبد الحميد ليركب الجميع معه ويتجه بهم الى موقع العرض. مرّ بهم أمام المنصة وشرح لهم المهمة على الطبيعة. ثم استأنف مسيره ليتوقف بالسيارة على مبعدة ٣٠٠ متر.. وأشار لهم نحو مركز وحدته قائلاً:

ـ أدخلوا قبلي، واسألوا عني واطلبوا مقابلتي على أساس أنكم ملحقون من وحدات أخرى جئتم لاكمال النقص في الطواقم، وسألحق بكم بعد قليل.

نفذوا المطلوب منهم، ودخلوا أرض الاستاد ولم يعترضهم أحد، واتجهوا الى مركز الوحدة يسألون عن الملازم خالد الاسلامبولي فقيل لهم إنه غير موجود، وأن بإمكانهم إنتظاره حتى يعود. وكان خالد قد صرف بعض الأفراد من قوته فأعطاهم اجازات قبل العرض.. كما أبلغ العساكر بأن بعض الجنود من وحدات أخرى سيحلون محل المجازين، ولمح أنهم من عناصر «المخابرات» لذلك تعامل معهم باقي الأفراد بحذر، ولم يسألوهم عن أوراق الحاقهم.. بل سمحوا لهم بالانتظار، وإبتعدوا عنهم ـ عزلوهم ـ حتى يأمنوا شرهم.

جاء خالد إلى مقره حاملاً شنطته «السامسونايت» التي تضم القنابل والطلقات وإبر إطلاق النار. وقدم له الثلاثة أنفسهم على أنهم الجنود الملحقون فعاملهم ببرود وجفاء أمام زملائهم.

لقد وصلت المجموعة نصف طريق الهدف قبل ٤٨ ساعة من الواقعة.

نام الأربعة في المعسكر حتى صباح اليوم التالي في خيمة لم تكن نصبت بالكامل. وعندما وصل الأمر بنزع إبر اطلاق النار. أبلغ خالد جنوده بجمع السلاح في خيمة واحدة، كلف عبد الحميد بمسؤوليتها، وأمره بترك البنادق التي ستستعمل في المهمة ـ لا ينزع إبرها ـ وبوضع قطع من القماش بفوهاتها حتى لا تتوه عن أعينهم بين البنادق الأخرى.

بعد الظهر قام بتوزيع الجنود على العربات الأربع، ووضع رفاقه ضمن طاقم العربة رقم واحد، كما أخرج من شنطته إبر إطلاق ووضعها مع بقية الإبر حتى يصبح العدد مساوياً لعدد البنادق ولا تكتشف البنادق الأخرى التي لم تنزع منها إبرها.

كان يتصرّف ببطء وهدوء كأنه رجل آلي مبرمج للقيام بمهمة محددة.

ليلة العرض... وفي الساعة الثالثة فجر الثلاثاء ٦ أكتوبر، كان خالد ساهراً ومعه عبد الحميد حيث قاموا بملء خزن البنادق الثلاثة، وخزن المدفع الرشاش الذي سيستعمله خالد.. وبعدها راجعوا الترتيبات الأخيرة، وصلوا الفجر أربعتهم معاً داخل الخيمة، ودعوا الله أن يغفر لهم ذنوبهم، وإحتسبوا أنفسهم مع الشهداء.

في الساعة السادسة والنصف صباحاً، أيقظ خالد بقية عساكر الوحدة التي يقودها ليؤدوا التمام استعداداً للعرض، وحجز لنفسه وجماعته العربة رقم واحد، وهي التي ستمر أمام المنصة مباشرة على اليمين في القطار الثاني.. وجلس هو بجوار السائق الذي لا يعرف شيئاً عن الخطة ولا عن منفذيها.. وكان من المفروض أن يتخلص منه خالد بوضع مخدر له في الشاي، ولكن الخطة فشلت عندما قام حسين عباس بتجريب المخدر، فوجد أنه نبَّه أعصابه بدلاً من تنويمه، وتم الإتفاق على أن يهدده خالد بالرشاش ويشد فرملة اليد، لايقاف العربة المصنوعة في كوريا الشمالية.

تحرك الطابور حتى وصل نقطة الانتظار، ونزل الجنود يستريحون فأرسل خالد سائق العربة كي يشتري له «سندويتشين» وأعطاه ربع جنيه. وأثناء غيبته غيَّر خزنة رشاش السائق الفارغة، بالخزنة المملوءة بالرصاص والتي كان يخبئها في جوربه تحت البنطلون ووضع الخزنة الفارغة تحت المقعد ثم وضع قنبلتين في درج التابلوه الذي أمامه داخل كابينة السيارة، وأعطى قنبلتين للأخ عبد الحميد الذي إحتفظ بواحدة، وسلم الثانية إلى عطا.

عاد السائق ومعه «السندويتشات»، ولكن «خالد» اعتذر عن تناولها قائلاً:

ـ ما ليش نفس كلها إنت أو أعطها لحد عايزها.

إستغرب السائق ولكنه ظل لا يشك بشيء حتى دهمته الأحداث فشلَّته المفاجأة، مثله كبقية العالم.

قبل دخول ساحة العرض تمت عمليات التفتيش الروتينية المعتادة،

بأن يطلب ضابـط التفتيش أحد الجنود عشوائياً، فيأمره بفك سلاحه فيلقي نظرة على الخزنة، وعلى مكان إبر الاطلاق، فاذا وجد التعليمات منفذة فانه يسمح للوحدة بالدخول دون أن يفتش بقية الأفراد.

كان من حسن الحظ أن مجموعة خالد لم يصبهم الدور.. لم يفتشوا.

جاء الدور على حرس الرئاسة، فجاء ضابط منهم فوق «موتورسيكل» يعـوي، ووقف إلى جوار عربة خالد ولكنه طلب ثلاثة جنود من العربة المجاورة، وفتش بنادقهم، فوجدها «تمام» وكان خالد وأصحابه يراقبون المـوقف وقـد تجمـدت أطرافهم.. فقـد وقعوا.. فتش «حارس فرعون» السلاح، ثم تحرك مبتعداً، فأطل خالد من نافذة السيارة مستفسراً:

- خير يا فندم؟!

فرد عليه:

- ولا حاجة.. مجرد فحص روتيني.. كلو تمام.. إستمروا.. إستمروا..

وفعلوا...

قضي الأمر

دفعت سبعمائة جنيه استرليني ثمناً لجهاز الفيديو البدائي الذي عندي. كان غالياً جداً، وكنت مجنوناً، وفي الشهر التالي كان المحل نفسه يعرض الجهاز نفسه بنصف السعر تقريباً مما أصابني بالقهر الشديد، وقد سجلت على هذا الجهاز الاثري عشرات الأفلام والمسرحيات والبرامج العلمية والسياسية، لم أعد لمشاهدة أي منها.. ربما غيظاً.. وربما ضناً بالوقت.

فيلم وحيد شذ عن القاعدة وشاهدته مرات ومرات.. وحدي، ومع الأصدقاء.. ومع كل الذين قدموا من مصر، ولم يشاهدوا ما حدث، أو لم يشاهدوا أعظم حدث.

على هذا الشريط العجيب سجلت حادث إغتيال السادات، كل ما أذيع عنه خلال أسبوع كامل، وعلى القنوات الثلاث للتليفزيون البريطاني، وخاصة برنامج «نيوز نايت» على القناة الثانية.. رأيت «السادات» و«نائبه» يدخلان أرض الاستاد في سيارة امريكية مكشوفة، على غرار السيارة التي قُتل فيها جون كينيدي وقد تعلق على جانبيها ثمانية من البلطجية ـ رجال الحرس الخاص ـ بملامحهم المنفرة التي تنم على الشراسة والغباء، ونظاراتهم «الريبان» التي تضفي عليهم مسحة حيوانية تذكرني بثيران الطاحون المكتنزة العضل وقد وضعوا الغمامات على عينيها.

تدخل السيارة مسرعة لتتوقف بغتة أمام المنصة، ويخرجون منها السادات الذي بدأ متخشباً وغير طبيعي بنظرته الزائغة وملامحه التي فقدت الحيوية فزادت تعاريجها عمقاً.. كانوا يسندونه ويدفعونه وهو يترنح كالمسطول «سنجة عشرة».

هذه هي اللقطة الاولى من الحدث. اللقطة الثانية من الحدث، نرى فيها السادات يتوسط المنصة، وقد أفاق قليلاً، ونفخ صدره، وشد أكتافه المتهدلة.. وبدأ يتحدث مع نائبه ثم ممثل سلطنة عمان. عرفنا فيما بعد أنه السيد شبيب بن تيمور وزير الدولة العماني. وبعده جلس ممدوح

سالم الوحيد الذي لم يفقد صوابه وتصرف بشجاعة خلال الحدث. ثم عبد القادر حاتم الذي ضبطته العدسة متلبساً بالهرب، بصورة غير بطولية إطلاقاً ثم صوفي أبو طالب رجل المهمات القذرة المتناقضة.

على يسار السادات جلس وزير الحرب عبد الحليم أبو غزالة يزغر في الكاميرات بطريقة انذارية غير مطمئنة. ثم يأتي سيد بيه مرعي خريج معهد ميكيافيللي وصهر العهد، ومستشار صاحبه.. وبعده ظهر الأزهر ممثلاً في شيخه عبد الرحمن بيصار صاحب الفتوى الوقحة التي شبهت كامب ديفيد بصلح النبي (ﷺ) مع قريش في الحديبية، دون أن يستحي من فتاوى سابقة صدرت عن الأزهر تكفِّر أي مسلم يصالح اسرائيل!!

فجأة تنتقل الكاميرا الى السماء حيث ظهر تشكيل من الطائرات تقدم عرضاً بهلوانياً مثيراً، وقد رسمت كل منها خطاً من الدخان الملون خلفها فتشكل على الصفحة الزرقاء عدة خطوط متوازية على شكل قوس قزح مقلوب بعرض الساحة من اليمين الى اليسار.. تنقل الكاميرا لقطة لوجه السادات صاعر الوجه وهو ينظر للسماء بخيلاء.. واعتقد أن هذه كانت آخر صورة له على الأرض.. فجأة ترتج الصورة، مما يوحي بأن المصور بوغت بحدث مربك.. وبعد عدة لقطات غير مركزة.. إذ بالعدسة تستقر على شخص متين البنيان، يحمل مدفعاً رشاشاً، وقنبلة تنفجر، وشخص آخر يدخل الصورة حاملاً بندقية، يندفع نحو المنصة. الكاميرا تنتقل الى طابور العرض نفسه فنشاهد حافلة ضخمة متوقفة على الطريق بمواجهة المنصة.. تركز الكاميرا على شخص يسند بندقيته على جانب الحافلة مصوباً بإتجاه السادات الذي لم يظهر في الصورة.

دائرة بيضاء ترسم حول القناص والبندقية، وتعليق للمذيع يقول ان هذه هي الرصاصة القاتلة. المصور يعود للمساحة بين الشاحنة والمنصة، فنجد عملية ضرب النار شغالة، وأحد الحرس في ملابس مدنية يتقافز راقصاً بمسدس في يده يطلقه على أي شيء إلا المهاجمين الذين أصبحوا ثلاثة ثم أربعة.

صورة للمنصة حيث جثة السادات على الأرض، وفوقه جثة أخرى وكراسي مقلوبة.

أبو غزالة من دون «كاب» عاري الرأس، مغطى وجهه بالدم يصرخ في شخص غير ظاهر في الصورة.

حسني مبارك يدفعه ممدوح سالم من تحت إبطه ليخرجه من دائرة الضرب.

لو لم يسجل جهاز الفيديو المقلب الذي عندي.. سوى هذا الشريط العجيب، لكان هذا تعويضاً كافياً وأكثر من مرضٍ بالنسبة لي.. فهذه اللحظات من تاريخ مصر، لا تتكرر ولا تعوض، وإحساسي بهذا الحدث الذي لم أشاهده على الطبيعة يتجدد كلما أعدت عرض الشريط.

مؤكد أن الصورة التفصيلية للوقائع كانت أكثر كثافة وأشد إثارة، فهذه الثواني المتسارعة كانت دهوراً طوالا بالنسبة لمن صنعوها:

خالد شوقي الاسلامبولي وعبد الحميد عبد السلام عبد العال وعطا طايل وحسين عباس.. هؤلاء الأربعة الذين وضعوا نقطة فاصلة في تاريخ المحروسة، بحيث أن مصر بعد هذه اللقطات السريعة ستكون مختلفة تماماً عن مصر التي عرفناها قبلها. صحيح ان إزاحة السادات من فوق «منصة الأحداث» بالدم والرصاص، لم تغير بنية الحكم، فالنظام ما زال عسكرياً فاشياً يواصل فشله الاقتصادي والاجتماعي والعسكري، ولكن الذين شاهدوا رأس الذئب الطائر يبدون حذراً واضحاً في مسيرتهم، فهم أقل تبجحاً واستفزازاً من معلمهم السابق.. والأهم من ذلك فإن الجيل الجديد من الاسلاميين وضع قناعاته على المحك، وأضاف الى رصيده تجربة جديدة.. وأي تجربة.

فهرس الاعلام والهيئات

أ

خ

د

ذ

ر

ز

س

ق

ك

ل

م

ن

